العُمْدَة

في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده

الجزء الثاني

تأليف

أبي علي الحسن بن رَشِيق ، القَيْرَوانى ، الأَزْدِيّ

٣٩٠ — ٤٥٦ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٥ - باب التصدير

حد التصدير وفائدته

وهو أن يُردّ أعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة ، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبهة ، ويكسوه رونقاً وديباجة ويزيده مائية وطلاوة .

أقسام التصدير

وقد قسم هذا البابَ عبدُ الله بن المعتز على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يوافق آخِرَ كلمة من البيت آخرُ كلمة من النصف الأول ، نحو قول الشاعر :

يُلْفَى إذا ما الجَيْشُ كان عرَمْرَماً في جَيْشِ رأيٍ لا يُفَلُّ عرَمْرَمِ

الآخر : ما يوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه ، نحو قوله :

سَريعٌ إلى ابن العمِّ يَشْتِم عِرْضَهُ ولَيْسَ إلى داعِي النَّدَى بِسَريعِ

والثالث : ما وافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه ، كقول الآخر :

عَزِيزُ بَنِي سُلَيم أقْصَدَتْهُ سِهَامُ المَوْتِ وَهْيَ لهُ سِهَامُ

الفرق بين التصدير والترديد

والتصدير قريب من الترديد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافي تُرَدُّ على الصدور ، فلا تجد تصديراً إلا كذلك حيث وقع من كتب المؤلفين ، وإن لم يذكروا فيه فرقاً ، والترديد يقع في أضعاف البيت ، إلا ما ناسب بيت ابن العميد المقدم .

أمثلة التصدير

ومن أبيات التصدير قول زهير :

كذَلِكَ خِيمُهُمْ ، ولِكُلِّ قَوْمٍ إذا مَسَّتْهُمُ الضَّرَّاءُ خِيمُ

وقال أيضاً في ذلك :

لهُ في الذَّاهِبِينَ أُرُومُ صِدْقٍ وكانَ لِكُلِّ ذِي حَسَبٍ أرُومُ

وقال أبو الأسود ــ واسمه ظالم بن عمرو بن سُفيان الدؤلى ــ :

وما كُلُّ ذِى لُبٍّ بمؤتيك نُصْحَهُ وما كل مــــؤتٍ نصحه بلبيب

فهذا تصدير ، وإن كان ظاهره فى اللفظ ترديداً للعلة التى ذكرتها .

ومن أناشيدهم فى التصدير قول طُفَيْل الغَنَوِى:

مَحارِمَكَ أمْنَعْها منَ القوم ؛ إنّنى أرَى جَفْنَةً قَدْ ضَاعَ فيها المَحَارِمُ

وقال جرير وهم يستحسنونه جداً :

سَقَى الرملَ جَوْنٌ مُسْتَهِلٌّ رَبابُهُ وما ذَاكَ إلاَّ حُبُّ مَنْ حَلَّ بالرَّمْلِ

وقال عمرو بن أحمر :

تغمَّرْتُ منها بعد ما نفـــد الصبا وَلَمْ يَرْوَ مِنْ ذِى حاجَة مَنْ تَغَمَّرا

« تغمرت » أى : شربت من الغَمْر ، وهو قَدَح صغير جداً ، ضربه مثلا ، أى : تعللت منها بالشىء القليل ، وذلك لا يبلغ مافى نفسى منك من المراد .

من التصدير المضادة

ومن التصدير نوع سماه عبد الكريم المضادة ، وأنشد للفرزدق :

أَصْدِرْ هُمُومَكَ لاَ يَغْلِبْكَ وَارِدُهَا فَكُلُّ وَارِدَةٍ يَوْماً لهَا صَــــدَرُ

وأنشد فى التصدير بيت طفيل المتقدم ، وبيت جرير ، وخص بيت الفرزدق بالمضادة دون أن يجعله تصديراً كما جعله أولا طِباقا كما يقال فى الأضداد إذا وقعت فى الشعر ، وقد رأيته فى إحدى النسخ مع أبيات المطابقة [1]

ويقارب به من كلام المحدثين قول ابن الرومى :

رَيْحَانُهُمْ ذَهَبٌ عَلَى دُرَرٍ وشَرَابُهُمْ دُرَرٌ عَلَى ذَهَبِ

والكتّاب يسمون هذا النوع التبديل ، حكاه أبو جعفر النحاس .

ومن أناشيد ابن المعتز قول منصور بن الفرج فى ذكر الشيب :

يا بيَاضا أذْرَى دموعى حتى عاد منها سوادُ عينى بياضا

وأنشد لأبى نواس ، وهو عندى بعيد من إحكام الصنعة التى يدخل بها فى هذا الباب ، على أنه غاية فى ذاته ؛ لأن أكثر العادة أن تعاد اللفظة بنفسها :

دَقَّتْ وَرَقَّتْ مَذقةٌ من مائها وَالعَيْشُ بين رقيقتين رقيقُ

وأنشد لمسلم بن الوليد :

تَبَسَّمُ عن مِثل الأقاحِ تَبَسَّمَتْ لهُ مُزْنَةٌ صَيْفِيَّةٌ فتَبَسَّما

وهذ البيت أيضاً ترديد ، وأنشد للطائى :

ولم يحفظ مُضَاعَ المجدِ شىْءٌ من الأشياء كالمَالِ المُضَاع

فالمولدون أكثر عناية بهذه الأشياء ، وأشد طلباً لها من القدماء ، وهى فى أشعارهم أوجد كما قدّمت آنفاً .

٤٦ — باب المطابقة

[المطابقة فى الكلام : أن يأتلف فى معناه مايضاد فى فحواه[١]] المطابقة عند جميع الناس : جَمْعُكَ بين الضدين فى الكلام أو بيت شعر ، إلا قدامة ومن اتبعه ؛ فإنهم يجعلون اجتماع المعنيين فى لفظة واحدة مكررة طباقا ، وقد تقدم الكلام فى باب التجانس ، وسمى قدامة هذا النوع — الذى هو المطابقة عندنا — التكافؤ ، وليس بطباق عنده إلا ما قَدَّمْتُ ذكره ، ولم يُسَمِّه التكافؤ أحد غيره وغير النحاس مِنْ جميع مَنْ علمته . حد المطابقة

(١) هـذه العبارة زيادة فى المصريتين ، وقد كتب بحاشيتهما « سقطت هـذه الجملة من بعض النسخ ، وكأنها من منهيات المؤلف على حاشية نسخته فأدخلها بعض النساخ فى جملة الكتاب وسيأتى مثل هذا فى أبواب أخر » اهـ والصواب عدم إثباتها ، وذلك ظاهر كل الظهور لمن يلتفت إلى ما بعدها ، وانظر ص ١٥ من هذا الجزء

قال الخليل بن أحمد : يقال «طابقت بين الشيئين» إذا جمعت بينهما على حَذْوٍ واحد وألصقتهما .

وذكر الأصمعى المطابقة فى الشعر فقال : أصلها وضع الرِّجْلِ فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع ، وأنشد لنابغة بنى جَعْدة :

وَخَيْلٍ يُطَابِقْنَ بالدَّارِعِينَ طِبَاقَ الْكِلاَبِ يَطَأْنَ الهراسَا

ثم قال : أحسن بيت قيل لزهير فى ذلك :

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجالَ ، إذا مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

حكى ذلك ابن دريد عن أبى حاتم عنه .

وأما على بن سليمان الأخفش فاختار قول ابن الزَّبير الأسدى :

رَمَى الْحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمِقْدَارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبيض سُودا

وهذا من التبديل على مذاهب الكتاب ، واختار أيضا قول طُفَيْل الغَنَوِى :

بِسَاهِم الوجهِ لم تُقْطَع أباجِلُه يُصَانُ وَهْوَ ليوم الرَّوْع مَبْذُولُ (١)

حكاه الحاتمى عن أبى الفرج على بن الحسن القرشى . .

وقال الرمانى : المطابقة : مُسَاواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان .

---

(١) فى المصريتين « بشاهم الوجه » بالشين معجمة ، وهو تصحيف ، ويقال : فرس ساهم الوجه ، إذا كان محمولا على كريهة الجرى ، وقال عنترة :

والخيل ساهمة الوجوه كأنما سقيت فوارسها نقيع الحنظل

والأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق ، وهو من الفرس والبعير بمنزلة الأكحل من الإنسان .

رد الحدود بعضها إلى بعض

قال صاحب الكتاب : هذا أحسن قول سمعته فى المطابقة من غيره ، وأجمعه لفائدة ، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقُدَامة جميعاً ، وأما قول الخليل « إذا جمعت بينهما على حَذْوٍ واحد وألصقتهما » فهو مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان كما قال الرمانى ، يشهد بذلك قول لبيد :

تعاورن الحديثَ وطبقنه كما طبقتَ بالنعلِ المثالا

ومنه « طَبَّقْتُ المفصل » أى : أصبته فلم أزد فى العضو شيئاً ولم أنقص منه . . وكذلك قول الأصمعى « أصلها من وضع الرجل موضع اليد فى مشى ذوات الأربع » هو مساواة المقدار أيضاً ؛ لأن من ذوات الأربع ما تجاوز رجله موضع يده ، ومنها ما يطابق كما قال خِلْقة ، وربما كان طباقها من ثقل تحمله أو شكيمة تمنعها أو شىء تتقيه على أنفسها ، ولذلك شبه النابغة الجعدى مشى الخيل بوَطْء الكلاب الهراس ، وهو حُطَام الشَّوْك ؛ فهى لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت منه أيديها طلباً للسلامة .

وأما قول قدامة فى المطابق « هو ما اشترك فى لفظة واحدة بعينها » فإنه أيضاً مساواة لفظ للفظٍ ، وهى — أعنى المساواة — على رأى الخليل والأصمعى مساواة معنًى لمعنًى ، وقد يكون المراد أيضاً مطابقة اللفظ للمعنى ، أى : موافقته ، ألا ترى أنهم يقولون : « فلان يطابق فلاناً على كذا » إذا وافقه عليه وساعده فيه ؛ فيكون مذهب قدامة أن اللفظة وافقت معنى ، ثم وافقت بعينها معنى آخر ، ويصح هذا أيضاً فى قول الخليل فى الطباق « إنه جمعك بين الشيئين على حذو واحد » فيكون الشيئان المعنيين ، والحذو الواحد : اللفظة .

أمثلة من المطابقة

ومن مليح ما رأيته فى المطابقة قولُ كُثَيِّر بن عبد الرحمن يصف عيناً :

وَعَنْ نَجْلَاءَ تَدْمَعُ فِى بَيَاضٍ إذَا دَمَعَتْ ، وَتَنْظُرُ فِى سَوَادِ

وقال أيضاً :

وَوَاللهِ ما قارَبْتُ إلاَّ تَباعَدَتْ بصَرْمٍ،ولاَ أكْثَرْتُ إلاَّ أَقَلَّتِ

وقال ابن المعتز، ويروى لابن المُعَذَّل :

هَوَايَ هوًى باطِنٌ ظَاهِرٌ قَدِيمٌ حَدِيثٌ لَطيفٌ جَليلْ

ولبعض الأعراب :

أمؤْثِرَةُ الرِّجَالِ عَليَّ لَيْلَى وَلمْ أُوثِرْ عَلى لَيْلَى النسَاءَ

وقال أعرابى : الدراهم مياسم تَسِمُ حمداً أو ذماً ، فمن حَبَسها كان لها، ومن أنفقها كانت له ، ونظم الشاعر هذا الكلام فقال :

أنْتَ لِلْمَالِ إذا أمْسَكْتَهُ فإذا أنْفَقْتَهُ فالمَالُ لَكْ

ومن الطباق الحسن قول أعرابى : خرجنا حُفَاة حين انتعل كل شىء ظِلَّه ، وما زادُنا إلا التوكل ، وما مطايانا إلا الأرجل ، حتى لحقنا بالقوم .

وقال آخر لصاحبه : إن يَسَار النفس أفضل من يسار المال ، فإن لم ترزق غنى فلا تحرم تقوى ، فربَّ شَبْعَان من النعم غَرْثَان من الكرم ؛ واعلم أن المؤمن على خير ترحّب به الأرض وتستبشر به السماء ، ولن يُسَاء إليه فى بطنها وقد أحسن على ظهرها . ولربيعة بن مَقْرُوم الضّبى :

فَدَعَوْا نَزَالِ فَكُنْتُ أَوَّلَ نازِلٍ وعلامَ أرْكَبُهُ إذا لم أنزِلِ

ومن أفضل كلام البشر قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه : « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ؛ فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار » فهذا هو المعجز الذى لا تكلف فيه ولا مطمع فى الإتيان بمثله . وقال الله عز من قائل : (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحَرُور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات)

وعد ابن المعتز من المطابقة قول الله عز وجل : (ولكم فى القصاص حياة) لأن معناه : « القتل انفى للقتل » فصار القتل سبب الحياة ، وهذا من أملح الطباق وأخفاه .

ومما استغرب به الجرجانى من الطباق واستلطفه قول الطائى :

مَها الْوَحْشِ إلاَّ أنَّ هاَتا أوانسٌ ... قنا الخطّ إلاّ أنّ تلك ذَوَابِلُ

لمطابقته بهاتا وتلك ، وإحداهما للحاضر والأخرى للغائب ، فكانتا فى المعنى نقيضتين وبمنزلة الضدين ، هذا قوله ، وليس عندى بمحقق ؛ إنما إحداهما للقريب والأخرى للبعيد المشار إليه ، ولكن الرجل أراد التخلص فزل فى العبارة .

ومثل هذا عندى فى بابه قولُ أبى الطيب يذكر خيل العدو الزاحف للحرب :

ضَرَبْنَ إلينا بالسِّيَاطِ جهالةً ... فلما تعارفنا ضربنَ بها عنا

فقوله « ضربن إلينا » مجىء إقدام ، وقوله « ضربن بها عنا» ذهاب فرار ، وهما ضدان .

ومن أنواع الطباق قول هُدْبَة بن خَشْرَم :

فإنْ تَقْتُلونا فى الحديدِ فإننا ... قتلنا أخاكُمْ مُطْلقاً لم يُكَبَّلِ

فقوله « فى الحديد » ضد قوله « مطلقاً لم يكبل » وإن لم يأت على متعارف المضادة ، وكذلك قوله :

فإن يكُ أنفِي زَالَ عَنِّي جَمَالُهُ ... فما حَسَبِي فى الصالحينَ بأجْدَعَا

كأنه قال : « وإن يك أنفى أجدع فما حسبى بأجدع » .

مما يظن من المطابق وليس منه

قال الجرجانى: وقد يخلط من نقصر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه ، كقول كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه :

لقد كان أمّا حلمه فمروحٌ ... علينا ، وأما جهله فعزيبُ

لما رأى الحلم والجهل ووجد مروحاً وعزيباً جعلهما فى هذه الجملة ، ولو ألحقنا

ذلك بها لوجب أن يلحق أكثر أصناف التقسيم ، ولاتّسع الخرق فيه حتى يستغرق أكثر الكلام .

قال صاحب الكتاب : معنى قوله فيما أنكر أن البيت إنما حقه أن يكون فى باب المقابلة ؛ لمقابلة الشاعر فيه كلمتين بكلمتين تقربان من مضادتهما ، وليستا بضدين على الحقيقة ، ولو كانتا ضدين لم يكن ما زاد على لفظتين متضادتين أو مختلفتين إلا مقابلة ، فإن لم يكن بين الألفاظ مناسبة البتة إلا الوزن سمى موازنة، وسأذكره فى باب المقابلة إن شاء الله ، هكذا جرت العادة فى هذه التسمية .

وأما قولنا « إن الكلمتين غير متفاوتتين » فظاهر ؛ لأن الحلم ليس ضده فى الحقيقة الجهل ، وإنما ضده السفه والطيش ، وضد الجهل العلم والمعرفة وما شاكلهما ، وكذلك المروح ليس ضده العزيب ، وإنما ضده المغدو به أو المبكر به ، وما أشبههما ولما ثقل وزن المروح من هاتين اللفظتين وقَلَّ استعماله تسمحت فيهما ، وأما العزيب فهو البعيد والغائب ، ولا مضادة بينه وبين المروح إلا بعيدة ، كأنه يقول: إن هذا يأتى لوقته وذلك بعيد خفى لا يأتى ولا يعرف ، على أنا نجد أبا تمام إمام الصنعة قد قال :

ولقد سَلَوْتُ لَوَ أنَّ دَاراً لم تَلُحْ ... وَحَلُمْتُ لو أنَّ الهوى لم يجْهَلِ

وقال زهير ، وزعموا أنه لأوس بن حَجَر :

إذا أنتَ لم تعرضْ عن الجهل والخَنَا ... أصَبْتَ حَليماً أوْ أصـابَكَ جَاهِلُ

لما وجده خلافاً له طابق بينهما كما يفعل بالضد ، وإن كان الخلاف مقصراً عن رتبة الضد فى المباعدة ، والناس متفقون على أن جميع المخلوقات : مخالف ، وموافق ، ومضاد ، فمتى وقع الخلاف فى باب المطابقة فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة ، وأنشد غير واحد من العلماء لحسين بن مَطِير :

من أمثلة المطابقة أيضا

بِسُودٍ نَوَاصِيهَا وحُمْرٍ أكُفُّهَا   وصُفْرٍ تَرَاقِيها وَبِيضٍ خُدُودُهَا

ورواه ابن الأعرابى فى نسق أبيات :

بصــــفر تراقيها وحمر أكفها   وسود نواصيها وبيض خدودها

وهذه الرواية أدخل فى الصنعة ، وقال الرمانى وغيره : السواد والبياض ضدان ، وسائر الألوان يضاد كل واحد منها صاحبه ، إلا أن البياض هو ضد السواد على الحقيقة ؛ إذ كان كل واحد منهما كلما قوى زاد بعداً من صاحبه ، وما بينهما من الألوان كلما قوى زاد قرباً من السواد ، فإن ضَعُف زاد قرباً من البياض ، وأيضاً فلأن البياض منصبغ لا يَصْبِــغ ، والسواد صابغ لا منصبغ ، وليس سائر الألوان كذلك ؛ لأنها كلها تصبغ وتنصبغ ، انقضى كلامهم ، وهو بين ظاهر لا يخفى على أحد ، و إنما أوردته إبطالا لزعم من زعم أن أفضل مطابقة وقعت قولُ عمرو بن كلثوم :

بأنا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضاً   ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْرَوِينَا

من شعر أبى الحسن فى الطباق

ومن أخف الطباق روحاً ، وأقله كلفة ، وأرسخه فى السمع ، وأعلقه فى القلب ؛ قول السيد أبى الحسن فى قصيدة :

ألا لَيْتَ أياماً مَضى لى نعيمُها   تَــكِرُّ علينا بالوصــال فننعم

وصفراءَ تحكى الشمسَ من عهد قيصر   يَتُوقُ إليهــا كلُّ مَنْ يتكرم

إذا مُزِجَتْ فى الـكأس خِلْتَ لآلئاً   تنثر فى حافاتهــــا وتنظم

جمعنا بها الأشتاتَ مِنْ كل لذة   على أنه لم يغش فى ذاك محرم

فطابق بين « تنثر وتنظم » و بين « جمعنا والأشتات » أسهل طباق وألطفه من غير تعمل ولا استكراه ، وأتى فى البيت الأول من قوله « مضى وَتــكر » بأخفى مطابقة ، وَأظرف صنعة على مذهب من انتحله .

أمثلة مما يغلط فيه الناس

ومما يغلط فيه الناس كثيراً فى هذا الباب الجمال والقبح كقول بعض المحدثين .

وَجْهُهُ غايةُ الجمال ، ولكن فعله غايةٌ لكلٍّ قبيح

وليس ضده ، وإنما ضده الدمامة ، والقبح ضده الحسن . وقال الصُّولِىُّ أبو بكر يصف قلما :

ناحل الجسم ، ليس يعرف مذ كا ن نعيما ، وليس يعرفُ ضراً

وليس بينهما مضادة . وإنما ضد النعيم البؤس ، فأما قول أبى الطيب :

فالسِّلْمُ تَكْسِرُ من جناحَىْ مالِهِ بِنَوالِه ما تَجْبُرُ الْهَيْجاء

فإنه داخل فى الطباق المحض ؛ لأن المراد بالهيجاء الحرب ، وهى اسم من أسمائها ، فكأنه قال الحرب ، فأتى بضد السلم حقيقة .

(٤٧) — باب ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة

أسباب اختلاطهما

من ذلك أن يقع فى الكلام شىء مما يستعمل للضدين : كقولهم « جَلَلٌ » بمعنى صغير ، و « جلل » بمعنى عظيم ؛ فإن باطنه مطابقة ، وإن كان ظاهره تجنيساً ، وكذلك « الْجَوْنُ » الأبيض ، و « الجون » الأسود ، وما أشبه ذلك وكذلك إن دخل النفى كما قدمت ، قال البحترى :

يقَيض لى من حيث لا أعلم الهوى ويَسْرِى إلىَّ الشوقُ من حيث أعلم

فهذا مجانس فى ظاهره ، وهو فى باطنه مطابق ؛ لأن قوله « لا أعلم » كقوله أجهل ، ومثل ذلك قول الآخر :

لعمرى لئن طال الفُضَيْلُ بنُ دَيسم مع الظل ما إنْ رَأْيُهُ بطويل

كأنه قال : إنَّ رأيه قصير ، وقد جاء فى القرآن : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فأما قول الفرزدق :

لعمرى لئنْ قلّ الحصى فى عديدِكم بنى نَهْشَلٍ ما لؤمكم بقليـــل

ظاهرهُ تجنيس بالقلة ، و باطنه تطبيق بالـكثرة ؛ إذ كان معنى « قل الحصى فى عديدكم » أنـكم كثير ، ومعنى « مالؤمكم بقليل » أنه كثير أيضاً ، فخالف الأول ، وقد قال جلهمة بن أد بن مالك ــ وهو طيىء ــ لولده فى وصية « ولا تـكونوا كالجراد ، أ كَلَ ما وَجَد وأكله ما وجده » فهذا مجانس الظاهر مطابق الباطن ، ومما أنشده ثعلب :

أبَى حُبِّ سُلَيْمَى أنْ يَبيدَا وأمْسَى حَبْلُها خَلقاً جَدِيدا

الجديد ههنا : المجدود ، وهو المقطوع ، مثل قتيل وهزيل بمعنى مقتول [ومهزول]، كأنه قال مجدوداً ، أى : مقطوعا ، فليس بمطابق ، و إن كان كذلك فى الظاهر عند من لا يميز ، وأما المميز فيعلم أنه لا يكون خَلَقاً جديداً فى حال :

وقال العتابى يعاتب المأمون وقد حجب عنه وكان به حَفيا :

تَضْرِبُ النَاسَ بالُمهَنَّدَةِ البيضِ عَلى غَدْرِهِم وَ تنْسَى الْوَفاء

فأتى بالغدر والوفاء جميعاً ، وهما ضدان ، فطابق بينهما فى الظاهر ، و باطن كلامه مجانس ؛ لأن قوله « وتنسى الوفاء » كقوله تغدر .

وقال جرير أيضاً :

* أتَصْحُو أمْ فُؤَادكَ غَـيْرُ صَاحِ [(١)] *

فقوله « غير صاح » نقيض « أتصحو » لولا أنه استفهام لم تعلم حقيقة محصوله بعد ، إلا على مذهب مَنْ جعل « أم » بمعنى « بل » فـكأنه قال لنفسه : بل فؤادك غير صاح ، فناقص الصحو ، ودخل كلامه فى المطابقة . . وقال قَيْسُ بن الخَطِيم ، و يروى لعدى:

---

(١) تمامه * عشية هم صحبك بالرواح * وقد تـكرر فى هذا الـكتاب ذكر صدر هـذا البيت (انظر الجزء الأول ص ١٩) .

وإنى لأغنَى النّاسِ عن مُتَكلفٍ يرى النَّاسَ ضُلّالاً وليس بمهتدى

كأنه قال «وهو ضال» فجانس فى الباطن ، وإن كان قد طابق فى الظاهر.

ومن هذا الباب قولك فاعل ومفعول ، نحو « خالق ومخلوق » و « طالب ومطلوب » هما ضدان فى المعنى ، وإن تجانسا فى اللفظ ، وكذلك ما كان اسم الفاعل منه مُفْعِل[1] والمفعول مُفْعَل نحو « مكرِم ومكرَم » و « مُعْطٍ[2] ومُعْطًى » وما جرى هذا المجرى أو زاد عليه فى البناء ، وأما قولك « قضيت واقتضيت » فظاهره تجنيس وباطنه طباق ، إلا أنه طباق غير محض ، وكذلك قولك « أخذتُ وأعطيت » ؛ لأن الأخذ ضده الترك ، والإعطاء ضده المنع ، فهذا مما يظنه مَنْ لا يحسن طباقا وليس كما ظن ، ولكنه كثر جداً فى الكلام ، واستعمله الناس ، كما تقدم من قولنا فى الحلم والجهل والجمال والقبح .

ومما ظاهره تجنيس وباطنه طباق الوعد والوعيد كما قال الشاعر[3] :

وإنى وإن أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْته لمخلفُ إيعادِى ومُنجِزُ مَوْعِدى

وأول ما يعتد به فى هذا الباب قولُ امرىء القيس :

فإن تَدْفِنُوا الداء لا نُخْفِهِ وإن تبعثوا الحربَ لا نقعد

ويروى * فإن تكتموا الداء لانخفه * وقوله « لانخفه » أى : لنبدهْ من

---

(١) فى المصريتين « اسم الفاعل منه مفعول » وهو واضح الخطأ .

(٢) فى المصريتين « معطى ومعطى » بإثبات الياء فى الكلمتين ، والأول اسم فاعل والثانية اسم مفعول ، والصواب حذف الياء من الأول ما لم تقترن بأل كالمعطى أو يضاف كمعطى الدنانير أو يكون فى موضع نصب نحو اللهم أعط معطيا خلفا .

(٣) البيت لعامر بن الطفيل ، وقد روى فى ديوانه (ص ١٥٥ طبع أوربة) هكذا :

وإنى إن أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

قوله تعالى : (أكاد أخفيها) فكأن الشاعر قال : إن تدفنوا الداء ندعه دفيناً أو قال : إن تكتموا الداء نكتمه ، وكذلك قوله « لا نقعد » كأنه قال : إن تبعثوا الحرب نبعثها ، ومن كلام السيد أبي الحسن:

وأعلم أنَّ المجــد شَيْءٌ مخلدٌ وأن الفتى والمالَ غيرُ مخلد

والبيت من قصيدة شريفة أولها :

صَحَا القَلْبُ عن سُعْدَى وعن أم مَسْعد ولم يَشْجُنِي نَوْحُ الحمـــامِ المغرِّدِ

(٤٨) — باب المقابلة

حد المقابلة

[المقابلة : مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم ، هذا حد ما اتضح عندي[1]] المقابلة : بين التقسيم والطباق ، وهي تتصرف في أنواع كثيرة ، وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب ؛ فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا ، وآخره ما يليق به آخراً ، ويأتي في الموافق بما يوافقه ، وفي المخالف بما يخالفه .

أكثر ما تجيء فيه المقابلة

وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة مثال ذلك ما أنشده قدامة لبعض الشعراء ، وهو :

فيَا عَجَباً كَيْفَ اتَّفَقْنا ؛ فناصِحٌ وَفِيٌّ ، ومَطْوِيٌّ عَلَى الغِلِّ غَادِرُ ؟

فقابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر ، وهكذا يجب أن تكون المقابلة الصحيحة ، لكن قدامة لم يبال بالتقديم والتأخير في هذا الباب ، وأنشد للطِّرِمَّاح :

أسَرْنَاهُمْ وأنْعمْنَا عليهم وأسقينا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا

---

(١) هذه العبارة زائدة في المصريتين ، وقد كتب على حواشيهما : « ليس لهذه الجملة أثر في بعض نسخ الكتاب » اهـ وقد سبق التنبيه إلى مثل هذه العبارة في ص ٥ من هذا الجزء .

فما صبروا لبأسٍ عند حربٍ ولا أدَّوْا لحسنِ يدٍ ثَوَابَا

فقدم ذكر الإنعام على المأسورين ، وأخر ذكر القتل فى البيت الأول ؛ وأتى فى البيت الثانى بعكس الترتيب ، وذلك أنه قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب وأخر ذكر الثواب على حسن اليد ، اللهم إلا أن يريد بقوله * فما صبروا لبأس عند حرب * القوم المأسورين إذ[1] لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد ؛ فإن المقابلة حينئذ تصح وتترتب على ما شرطنا ، وهذه عندهم تسمى مقابلة الاستحقاق ، ويقرب منها قول أبى الطيب :

مقابلة الاستحقاق

* وَفِعْلُهُ ما تُرِيدُ الكَفُّ والقَدَمُ[2] *

لأن الكف من اليد بمنزلة القدم من الرجل ، فبينهما مناسبة وليست مضادة ، ولو طلبت المضادة لكان الرأس أو الناصية أولى ، كما قال تعالى : (فيؤخذُ بالنواصى والأقدام) .

من أمثلة المقابلة

ومن أناشيد المقابلة قول النابغة الجعدى :

فَتًى تَمَّ فيــه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ على أنَّ فيه ما يَسُوء الأعاديا

فقابل يسر بيسوء وصديقه بالأعادى ، وهذا جيد ؛ ولو كان كل مقابل على وزن مقابله فى هذا البيت والبيت الذى أنشده قدامة أولا لكان أجود . .

وقال عمرو بن معدى كرب الزبيدى :

ويبقى بعد حلم القومِ حِلمى ويفنى قبل زادِ القومِ زادِى

فقال « يبقى بعد » ثم قال « يفنى قبل » فهذا كما أردنا .

وقال الفرزدق :

وأنا لنمضى بالأكفِّ رماحنا إذا أرعشت أيديكم بالمعالق

---

(١) فى المصريتين « إن » ونراة تصحيفا .

(٢) صدره * رجلاه فى الركض رجل واليدان يد * يصف جواده بأنه يرفع رجليه معا فهما كرجل واحدة ويديه معا فهما كيد واحدة .

أشعر بيت قالته العرب

سأل أبو جعفر المنصور أبا دُلَامَةَ فقال : أيُّ بيتٍ قالته العرب أشعر؟ قال : بيت يلعب به الصبيان ، قال : وما هو ذلك ؟ قال : قول الشاعر :

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا   وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجل

أمثلة من المقابلة

وقال يزيد بن محمد المهلبي ، يقوله لسليمان بن وهب :

فمن كان للآثامِ والذلِّ أرضُهُ   فأرضُكُمُ للأجرِ والعزِّ مَعْقِلُ

وقال فى التغزل :

إن تغيبى عنى فسَقْياً ورَعْياً   أو تَحُلِّى فينا فأَهْلاً وسَهْلاً

والمعجز قولُ الله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبْصِراً ولتبتغوا من فضله) فقابل الليل بالسكون ، والنهار بابتغاء الفضل ، وجعل بعضُ المفسرين الليل والنهار بمعنى الزمان ، والأول أعجب إلى ، وقال تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلال مبين) .

من جيد المقابلة

ومن جيد المقابلة قول بكر بن النَّطَّاح الحنفى :

أذْكِى وأوقِدُ للعداوةِ والقِرَى   نارَيْنِ نارَ وَغًى ونار زِناد

وكذلك قوله :

لباسى حُسَامٌ أوْ إزارٌ مُعَصْفَرٌ   ودِرْعٌ حَديدٌ أو قميصٌ مُخَلَّق

إلا أنه لو كان الإزار رداء كان أجود ، لاسيما والسيف يسمى رداء ، ولكنا هكذا رويناه .

من خفى المقابلة

ومن خفى المقابلة والقسمة قول العباس بن الأحنف وأحْسَنَ ما شاء :

اليومُ مثلُ الحَوْل حتى أرى   وَجْهَكِ ، والساعةُ كالشهر

وهذا مليح ؛ لأن الساعة من اليوم كالشهر من الحول جزء من اثنى عشر .

وقال محمد بن أحمد العلوى :

لا تؤخِّرْ عنى الجوابَ فيومى   مثل دهر ، وساعتى مثل شهر

فلم يصنع شيئاً ، وكان يمكنه أن يجعل مكان دهر حولا ؛ فتكون قسمة مستوية ؛ ولكنا هكذا رويناه .

من جيد المقابلة في المنثور

ومن جيد ما وقع في المنثور من المقابلة قول بعض الكتاب «فإن أهل الرأى والنصح لايساويهم ذوو الأفن والغِش ، وليس من يجمع إلى الكفاية الأمانة كمن أضاف إلى العجز الخيانة » ومن كلام إبراهيم بن هلال الصابى « وأعدَّ لمحسنهم جنة وثوابا ، ولمسيئهم ناراً وعقابا » .

وقال أبو الفتح محمود بن حسين كُشاجم :

تريك الحسنَ والإحسانَ وقفا ... إذا بَرَزَتْ لنا وإذا تغيبُ

مما عيب من المقابلة

ومما عابه الجرجانى على ابن المعتز :

بياضٌ فى جوانبه احمرارٌ ... كما احمرت من الخجل الخدودُ

لأن الخدود متوسطة وليست جوانب ؛ فهذا من سوء المقابلة ، وإن عده الجرجانى غلطاً فى التشبيه ، وإنما العلة فى كونه غلطاً ما ذكرناه . .

ومن المأخوذ المعيب عندى قولُ الكميت يخاطب قضاعة :

رأيتكم من مالكٍ وادعائه ... كرائمةِ الأولادِ من عَدَمِ النسل

فوقع تشبيهه على الادعاء والرِّئمان خاصة ، لا على صحة المقابلة فى الشبهين ؛ لأن هؤلاء ـ فيما زعم ـ يدعون أبا ، والرائمة تدعى ولداً ، وهما ضدان .

والصواب قول الآخر يهجو كاتباً ، أنشده الجاحظ :

حمارٌ فى الكتابة يدَّعيها ... كدعوى آلِ حربٍ فى زياد

وقال أبو نواس :

أرى الفضل للدنيا وللدين جامعاً ... كما السهمُ فيه الفُوقُ والرِّيشُ والنَّصْلُ

فزاد فى المقابلة قسما ؛ لأنه قابل اثنين بثلاثة .

وكذلك قول أبى قيس ابن الأسلت :

الحزمُ والقوةُ خيرٌ من الـ ... إدهان والفَكَّةِ والهاع

فقابل الحزم بالإدهان ، والقوة بالفكة — وهى الضعف — ويروى « الفهة » وهى العى ، وزاد الماع ، وهو الجبن والخفة .

ومما سقط فيه عبد الكريم من جهة المقابلة وإن كان تمثيلا وتشبيها قوله يمدح نزار بن معدصاحب مصر :

إلى ملكٍ بين الملوك و بينه مسافةُ ما بين الكواكب والتُّرْبِ

لأنه لما أتى بالملوك أولا و بضمير الممدوح ـ وهو الهاء التى فى « بينه » ـ بعد ذلك ، ثم أتى بالكواكب وهى جماعة تقابل الملوك وبالترب وهو واحد يقابل الضمير باتحاده ؛ أوجب له بهذا الترتيب أن يكون هو الترب ، وتكون الملوك هم الكواكب ، ولم يرد إلا أن يجعله موضع الكواكب ، ويجعلهم موضع الترب ، ولكن حكم عليه ما حكم على ابن المعتز الذى إليه انتهى التشبيه وسر صناعة الشعر . . ويدلك على صحة ما طالبته به قولُ امرىء القيس بن حُجْر :

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابساً لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

قابل الرَّطْبَ أولا بالعُنَّاب مقدما ،وقابل اليابس ثانيا بالحَشَفِ تاليا . وكذلك قول الطِّرِمَّاح :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

فقابل يبدو بيسل ، وقابل تضمره البلاد بيغمد ، على ترتيب ، وكذلك كان يجب لهؤلاء أن يصنعوا ، وإلا كانوا مخطئين أو مقصرين.

من المقابلة نوع يختص باسم الموازنة

ومن المقابلة ما ليس مخالفا ولا موافقا كما شرطوا إلا فى الوزن والازدواج فقط ، فيسمى حينئذ موازنة نحو قول النابغة :

أخلاقُ مجدٍ تجلَّتْ مالها خَطَر فى البأس والجودِ بين الحلم والخبر

وعلى هذا الشعر حَبَا النعمانُ بن المنذر فَمَ النابغة دراً .

وينضاف إلى هذا النوع قول أبى الطيب:

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

فوازن قوله « فى حياتك » بقوله « فى مَنامكَ » وليس بصده ولا موافقه ، وكذلك صنع فى الموازنة بين حبيب وخيال ، وإن اختلف حرف اللين فيهما ، فإن تقطيعه فى العروض واحد.

فأما قول أبى تمام :

فكنت لناشيهم أباً ، ولكهلهم أخاً ، ولذى التقويس والكبرةِ ابْنَا

فإنه من أحكم المقابلة وأعدل القسمة.

وقد بينت فى أول هذا الباب أن المقابلة بين التقسيم والطباق ؛ فكلما توفر حظها منهما كانت أفضل .

من أملح الموازنة وتعديل الأقسام

ومن أملح ما رويناه فى الموازنة وتعديل الأقسام مما يجب أن نختم به هذا الباب قول ذى الرمة :

أستَحْدَثَ الركبُ عن أشياعهم خبراً أم راجعَ القلبَ من أطرابه طربُ ؟؟

لأن قوله « أستحدث الركب » مُوَازن لقوله « أم راجع القلب » وقوله «عن أشياعهم خبراً » موازن لقوله « من أطرابه طرب » وكذلك « الركب » موازن «القلب» وعن موازن لمن ، و« أشياعهم » موازن ا « أطرابه »وخبراً موازن لطرب.

وقال السيد أبو الحسن فى هذا النوع:

لكَفَّاك أندَى من غُيُوم سَوَاجم وَعَزْمُكَ أمضى من حُسَام مهند

فكل لفظة من القسيم الأول موازنة لأختها من القسيم الآخر موازنةَ عدلٍ وتحقيق.

(٤٩) — باب التقسيم

حد التقسيم

اختلف الناس فى التقسيم : فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به ، كقول بشار يصف هزيمة :

بضرب يذوق الموتَ من ذاق طَعْمَهُ ويدرك من نَجَّى الفرارُ مَثَالبه

فراح فريقٌ فى الأسارى، ومثلُه قتيلٌ، ومثلٌ لاَذَ بالبحر هارِبه

فالبيت الأول قسمان : إما موتٌ، وإماحياة تورث عاراً ومَثْلبة ، والبيت الثانى ثلاثة أقسام : أسير ، وقتيل ، وهارب ؛ فاستقصى جميعَ الأقسامِ ، ولايوجد فى ذكر الهزيمة زيادة على ما ذكر .

ومثل ذلك قول عمرو بن الأهتم إلا أنه أكثر إيجازاً :

أشْرَبَا ما شربتما فهذَيل من قتيل وهارب وأسير

فجمع الوجوه كلها فى مصراع واحد.

من جيد التقسيم

ومن التقسيم الجيد قول نُصَيْب :

فقال فريق القوم : لا، وفريقهم : نعم، وفريق قال : ويحك ماندرى[1]

فلم يبق جواب سائل إلا أتى به ؛ فاستوفى جميع الأقسام ، وزعم قوم أنه أفضل بيت وقع فيه تقسيم .

ومن أناشيد قدامة فى هذا الباب قول الشماخ يصف حمار وَحْش :

متى ماتقعْ أرساغهُ مطمئنةً على حجَرٍ يرفَضَّ أو يتدحرج

فلم يُبْقِ الشماخ قسما ثالثاً إلا أن يقول : يغوص فى الأرض ، وذلك لايلزم ؛ من جهة أن الحافر عند الجرى وسرعة المشى يقذف الحجر إلى وراء ، إلا أنه لو أتى به لـكان حسنا من أجل قوله « مطمئنة » .

من جيد التقسيم فى المنثور

ومن أشرف المنثور فى هذا الباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» فلم يبق عليه الصلاة والسلام قسما رابعاً لوطلب يوجد .. وقال نافع بن خليفة «يا بنى، اتقوا الله بطاعته، واتقوا السلطان بحقه، واتقوا الناس بالمعروف» فقال رجل منهم : ما بقى شىء من أمر الدين والدنيا إلا وقد أمرتنا به . . وقال أعرابى « إذا كان الرأى عند من لا يُقْبَلُ منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه

(١) حفظى «وفريق: ليمن الله ماندرى» واللام للابتداء، وايمن: مبتدأ حذف خبره.

ضاعت الأمور » وكان ثابت البُنَانى يقول « الحمد لله وأستغفر الله » فسئل : لم خصهما ؟ فقال : لأنى بين نعمة وذنب ؛ فأحمد الله على النعمة ، وأستغفره من الذنوب . . ووقف أعرابى على حلقة الحسن البصرى فقال : رحم الله من تصدق من فضل ، أو وَاسَى من كَفَاف ، أو آثر من قوت ، فقال الحسن : ماترك البدوى منكم أحداً إلا وقد سأله .

عود إلى جيد التقسيم فى الشعر

ثم نعود إلى الشعر ، قال عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

وهَبْهَا كشىء لم يكن، أو كنَازِح   به الدارُ ، أو مَنْ غَيَّبته المقابر

فلم يُبْقِ مما يعبر به عن إنسان مفقود قسما إلا أتى به فى هذا البيت .

وقال آخر ، وأحسبه أبا دِهْبَل الجمحى أو طريحاً :

لو قلت للسيل دَعْ طريقك والـ   ـموج عليه كالهَضْبِ يَعْتلج

لارتد ، أو ساخ ، أو لَكَانَ له   فى سائر الأرض عنك مُنْعَرَجُ

ولا يدع السيل طريقه إلا بأحد هذه الأشياء .

وقال أبو العتاهية :

وعلىّ من كَلَفِى بكم   قَيْدٌ وجامعة وغُلُّ

فأتى على جميع ما يتخذ للمأسور أو المجنون ولم يبق قسما .

هذا وأمثاله مما قدمت هو الجيد من التقسيم ؛ وأما ما كان فى بيتين أو ثلاثة فغير عاجز عنه كثير من الناس .

أصح تقسيم

وزعم الحاتمى أن أصح تقسيم وقع لشاعر قول الأسعر الجعفى يصف فرساً :

أما إذا استقبلته فكأنه   بَازٍ يكفكف أن يطير وقد رأى

أما إذا استدبرته فتسوقهُ   ساقٌ قَمُوصُ الوقع عارية النَّسَا

أما إذا استعرضته متمطراً   فتقول : هذا مثلُ سِرْحَانِ الغَضَا

واختاره أيضاً قدامة ، وليس عندى بأفضل من قول امرىء القيس إلا بشرف الصفات :

إذا أقبلَتْ قلت دُبَّاءة من الخُضرِ مغموسة فى الغُدُرْ(١)
وإن أدْبَرَتْ قلتُ أُثفِيّة ململمـــة ليس فيها أثر(٢)
وإن أعرضت قلت سُرْعُوفة لها ذَنَبٌ خلفها مُسْبَطر(٣)

ولو لم يكن إلا تنسيق هذا الكلام بعضه على بعض ، وانقطاع ذلك بعضه من بعض ، وقد صنعت على ضَعْف مَتْنِى(٤) وتأخر وقتى :

إذا أقبلت أقْعَتْ ، وإن أدبرت كَبَت وتعرض طولا فى العنان فتســـتوى
وكَلّفْتُ حاجاتى شـــبيهة طائر إذا انتشرت ظَلّتْ لها الأرضُ تنطوى

ومن التقسيم نوع هو هذا الأول إلا أن فيه زيادةً تدريجاً وترتيبا فصَعُبَ لذلك على متعاطيه وقل جداً . . فأحسَنُه قولُ زهير بن أبى سلمى :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضَارَبَ حتى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا

فأتى بجميع ما استعمل فى وقت الهياج ، وزاد ممدوحه رتبة ، وتقدم به خُطوة على أقرانه ، ولا أرى فى التقسيم عديل هذا البيت ، ويليه فى بابه قول عنترة :

إن يلحقوا أكْرُرْ ، وإن يستلحموا أشْدُدْ ، وإن يُلْفَوْا بضَنْكٍ أنزل

ويروى « وإن يقفوا » ومما ينضاف إليهما قول طَرِيح بن إسماعيل الثقفى:

---

(١) دباءه : هى فى الأصل القرعة ، ومثلها الدبة ــ بفتح الدال والباء مشددة ــ وكنى بذلك عن لينها وطراءتها وانطوائها ، وقوله « مغموسة فى الغدر » يريد به أنها ربى ، والغدر : جميع غدير ، وذلك مايدل على ما ذهبنا إليه من التكنية بالدباءة

(٢) الأثفية : الصخرة المستديرة المجتمعة ، ململمة : متداخلة مدورة صلبة ، الأثر : أراد به الخدش .

(٣) سرعوفة : هى الجرادة ، مسبطر : طويل ممتد .

(٤) لعل الاوفق « على ضعف معنى » .

إن يسمعوا الخير يُخْفُوه، و إن سمعوا شراً أذاعوا، و إن لم يسمعوا كذبوا

وقال الحصين بن الحمام :

دفعنا كُمُ بالحلم حتى بَطِرْتُمُ و بالكف حتى كان رفع الأصابع

فلما رأينا جَهْلَكم غيرَ مُنْتَهٍ وما قدمضى من حلمكم غيرَ راجع

مسسنا من الآباء شيئاً ، وكلنا إلى حَسَب فى قومه غير واضع

فلما بلغنا الأمهات وجدتُمُ بنى عمكم كانوا كرام المَضَاجِعِ

كأنه يقول : نحن أكرم منكم أمهاتٍ ، فهذا هو التدريج فى الشعر .

و بعضهم فى التقسيم على خلاف ما قدمت : زعم أبو العيناء أن خير تقسيم قيل قول ابن أبى ربيعة :

تهيم إلى نُعْمٍ ؛ فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول، ولا أنت مُقْصِرُ

ولا قربُ نعم إن دَنَتْ منك نافعٌ، ولا نَأْيُها يُسْلِى ، ولا أنت تَصْبِرُ

واختار قوم آخرون قولَ الحارثى :

فلا كدى يَفْنَى ، ولا لَكِ رقة ، ولا عَنْكِ إقصار ، ولا فيك مَطْمَع

وزعم الفرزدق أن أكمل بيت قالته العرب ــ أوقال : أجمع بيت ــ قول امرىء القيس .

له أيْطَلاَ ظبى ، وساقا نعامةٍ و إرخاء سِرْحَانٍ، و تَقْرِيب تَتْفُل

وقال الأعشى يصف فرساً :

سلس مُقَلَّدُهُ ، أسيلٌ خَدُّه ، مَرِعٌ جَنَابُهْ

وقال عمرو بن شأس :

مُدْمَجٌ سَابِغُ الضلوع طويلُ الشَّخصِ عَبْلُ الشَّوَى مُمَرُّ الأعالى

وقال أبو دؤاد الإيادى :

بعيدُ مَدَى الطَّرْفِ خَاظِي البَضِيعِ ... مُمَرُّ المَطَا سَمْهَرِيُّ القَصَبْ (١)

هذا وما قبله يسمى جمع الأوصاف ، وسماه بعض الحذاق من أهل الصناعة التعقيب ـ العين قبل القاف ـ وأما التقعيب (٢) فمكروه فى الكلام . جمع الأوصاف (أو التعقيب)

وكان محمد بن موسى المنجم يحب التقسيم فى الشعر ، وكان معجباً بقول العباس بن الأحنف :

وِصَالُكُمُ صَرْمٌ وَحُبُّكُمُ قِلًى ... وعَطْفُكم صَدٌّ ، وسلمكم حَرْبُ

و يقول : أحْسَنَ والله فيما قسم حين جعل كل شىء ضده ، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات إقليدس ، حكى ذلك الصولى . .

ومن مليح التقسيم قول داود بن سلم (٣) :

فى باعه طُولٌ ، وفى وَجهه ... نور ، وفى العِرْنِينِ منه شَمَمْ

فوصف بعض أحواله وقسمها كما فعل الأولون .

ومن أنواع التقسيم التقطيع ، أنشد الجرجانى للنابغة الذبيانى : من التقسيم التقطيع

لله عَيْنَا من رأى أهل قبة ... أضرَّ لمن عادى وأكثر نافعا

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً (٤) ... وأفضل مَشْفوعا إليه وشافعا

---

(١) فى عامة الأصول * . . . . خاطى البضع * وصوابه ما أثبتناه ، والخاظى ـ بالخاء والظاء المعجمتين ـ الكثير اللحم المكتنزه ، والبضيع ـ بفتح الباء وبعد الضاد ياء مثناة ـ هو اللحم ، وقد أنشد ابن برى لدختنوس بنة لقيط :

يعدو به خاظى البضيع كأنه سمع أزل

(٢) فى عامة الأصول التعقيب ـ بتقديم العين المهملة على القاف المثناة كالذى قبله ـ وهو خطأ وتصحيف ، والتقعيب فى الكلام مثل التقعير ، وتقول : قعب فلان كلامه وقعره ـ بتضعيف العين فيهما ـ وهما بمعنى واحد .

(٣) فى المطبوعات كلها «داود بن مسلم» والتصحيح عن الأغانى ١٥٣/٥ بولاق والبيت من خمسة أبيات مدح فيها قثم بن العباس وكان منقطعا إليه . والبيت فى الأغانى

فى وجهه بدر ، وفى كفه ... بحر ، وفى العرنين منه شمم

(٤) فى الديوان (ص ٧٤) * . . وأكثر سيدا * بالثاء المثلثة

وسماه قوم ـ منهم عبد الكريم ـ التفصيل ، وأنشد فى ذلك :

بيضٌ مفارقنا ، تغلى مَرَاجِلُنا نَأسُو بأموالنا آثار أيدينا

وقال البحترى :

قِفْ مَشُوقًا ،أو مُسْعِداً ، أو حَزِيناً أو مُعِيناً ، أو عاذراً [١] أو عذولا

فقطع وفصل كما تراه . وقال أبو الطيب :

فياشَوْقُ ماأبْقَى،ويَالِى من النوى، ويادَمْع ماأجْرَى،وياقلب ماأصْبَى

ففصل كما فعل أصحابه ،وجاء به على تقطيع الوزن ، كل لفظتين ربع بيت ..

وقال أيضاً :

لِلسَّبْيِ ما نَكَحُوا ،والْقَتْلِ ماولدوا، والنهب ماجمعوا ،والنار مازرعوا

الترصيع وإذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعا أو شبيها بالمسجوع فذلك هو الترصيع عند قدامة ، وقد فضله وأطنب فى وصفه إطنابا عظيما . . وأنشد أبيات أبى المثلم يرثى صَخْرَ الْغَيِّ :

لو كان للدهر مال عنـــد متلده لـكان دهر صخر مَالَ قنيان

آبِى الهضيمة ، نابٍ بالعظيمة ،متــلاف الـكريمة،لاسقطوَلاَ وان

حَامِى الحقيقة ، نَسَّالُ الوريقة ، معـــتاق الوسيقة ، جَلْد غَيْرُ ثُنْيَانِ [٢]

رَبَّاء مَرْقَبة ، منَّاع مغلبـه ركابُ سَلْهَبةٍ ، قطاع أقْرَانِ [٣]

---

(١) فى عامة الأصول « وغادرا » من الغدر ـ بالغين معجمة والدال مهملة ـ وهــذا تصحيف واضح ، وصوابه ما أثبتناه .

(٢) الحقيقة : الراية ، وما وجب على الرجل أن يدافع عنه ، والوريقة : أصلها الشجرة المورقة ، ولعله أراد القبيلة ، والوسيقة : الإبل ، والثنيان ـ بضم الثاء وسكون النون ـ ومثله الثنى ـ بكسر الثاء ـ ما تكون منزلته بعد منزلة السيد .

(٣) رباء : صيغة المبالغة من « ربأ » إذا أشرف وصعد ، والمرقبة : المنظرة فى رأس الجبل ، أوهى الحصن ، والأخير أولى بالمراد من البيت ، يريد أنه مقدم قومه =

هَبَّاط أودية ، حَمَّال ألوية شَهَّاد أندِية ، سِرْحان فتيانِ
يعطيك مالا تكاد النفس تُسْلِمه من التِّلادِ وَهوبٌ غير مَنَّانِ

وللقدماء من هذا النوع ، إلا أنهم لا يكثرون منه كراهة التكلف . قال[1] أبو دؤاد يصف فرسا ، وقيل : بل رجل من الأنصار :

فالْعَيْنُ قادحة ، والرِّجْلُ ضَارِحَة ، واليد سابحة ، واللوْنُ غِرْبِيب[2]
والشَّدُّ منهمر ، والماء مُنْحَدِر ، والقُصْبُ مُضطمر، والمتن مَلْحوب[3]

وقال الـكميت بن زيد فى ذلك :

كالنَّاطِقَاتِ الصَّادِقا تِ الْوَاسِقَاتِ مِنْ الذَّخَائِرْ

= فى لقاء العدو ، والغلابة : مصدر غلبه يغلبه غلبا وغلبة ومغلبا ومغلبة ، والسلهبة ـ ومثله السلهب بلاهاء ـ يقال للفرس الذكر إذا عظم وطال وطالت عظامه .

(١) نسب الجوهرى الشطر الرابع لامرىء القيس فى مادة (ق ص ب) ونقله عنه صاحب اللسان ، ثم نقل عن ابن برى أن الصواب أنه لإبراهيم بن عمران الأنصارى ، وذكر خمسة أبيات منها البيتان ، وهما مع هـذه الأبيات مما أثبته ناشر ديوان امرىء القيس المطبوع فى ١٩٣٠ (ص ٣٥) .

(٢) ضارحة ـ بالضاد المعجمة والحاء المهملة ـ يريد أنها تضرح الحصى ، أى : تنحيه وتبعده ، وقيل : معناه أنها واقعة إلى الأمام . سابحة : تسير بلطف وخفة كمن يسبح فى الماء ، أى : أنه لا يجهد راكبه ولا يتعبه ، وغربيب : أسود ، وجمعه غرابيب .

(٣) الشد : العدو والجرى ، والقصب ـ بضم القاف وسكون الصاد المهملة ـ المعى ، وقيل : هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء ، وقيل : المراد به ههنا الخصر وليس بعيداً مما قدمنا .

وإلى هذا ذهب أبو الطيب بقوله :

الناعماتِ القاتلات المحييـــــا ت المُبديات من الدَّلالِ غرائبا

وقال توبة بن الحُمَيِّر، وفيه التقسيم والترصيع :

لَطِيفات أقدامٍ ، نبيلات أسْوُقٍ لقيئات أفخاذ ، دِقَاقٌ خُصُورُهَا

وقال مسلم بن الوليد صريع الغوانى :

كأنه قمر ، أو ضَيْغَم هَصِر ، أو حَيَّة ذكر ، أو عارضٌ هَطِلُ

وقال أيضا :

يورى بزندك ، أو يسعى بجدك ، أو يَفْرى بحدك ، كلٌّ غَيْرُ مَحْدُود

ومن كلام أبى تمام ، وكان يجيد التصنيع :

تجلىَّ به رُشْدِى ، وأثْرَتْ به يدى ، وفاض به ثَمْدِى ، وأوْرَى به زَنْدِى

وقال أيضا وأحْسَنَ ماشاء :

تدبير معتصم ، بالله مُنْتَقِم ، لله مرتقب ، فى الله مرتغب

وقال أيضا فى غير هذا النمط :

عن ثامرٍ ضافٍ ، ونَبْتٍ قرارةٍ وَافٍ ، ونور كالمراجل خافى

المراجل : ثياب . . وقال كشاجم :

هلال فى إضاءته * حياء فى سماحته * شهاب فى اتِّقادِهْ

ومن جيد ما للمحدثين قول ديك الجن :

حُرُّ الإهاب وَسِيمُه ، بَرُّ الإيا ب كريمه ، مَحْض النصاب صَمِيمُه

فأكثر البيت ترصيع كيف ما أدَرْته[1] . .

وكان المذهب الأول وهو المحمود أن يؤتى ببيت من هذا أو ببعض بيت ، كما قال امرؤ القيس :

(١) فى عامة الأصول « كيفما أردته .

وأوتادُهُ ماذِيَّةٌ ، وعِمادُهُ رُدَيْنِيَّةٌ ، فيها أَسِنَّةُ قَعضَبِ[١]

وكما قال امرؤ القيس[٢] :

كحلاء فى بَرَجٍ ، صفراء فى نَعَجٍ ، كأنّها فِضَّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ[٣]

وأما ما هو شبيه بالمسجوع فقول امرىء القيس :

فَتُورُ القِيامِ ، قَطِيعُ الكلا م ، تَفْتَرُّ عَنْ ذِي غُرُوبٍ أَشِرْ[٤]

وقوله * أَلَصُّ الضُّرُوسِ ، حَنِيُّ الضُّلوع[٥] *

فجاء فتور فى وزن قطوع ، وكذلك الضروس والضلوع ، وألص وحنى .

---

(١) الأوتاد : جمع وتد ، وهو ما تشد به الخيمة . والماذية : هى الدروع البيض وقيل : السلاح كله . والعماد : الخشب التى ترفع عليها الخيام . والردينية : الرماح المنسوبة إلى ردينة . وقعضب : رجل كان يصنع الأسنة .

(٢) لم أجد فى شعر امرىء القيس هذا البيت ، ولا وجدته منسوبا إليه فيما بين يدى من المراجع ، وهذا البيت مشهور لذى الرمة ، وهو فى ديوانه (ص ١٢) من قصيدته التى أولها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

والعبارة المذكورة فى الأصل تفيد أنها من وضع النساخ ، فإن عادة مؤلف الكتاب أن يقول فى مثل هذا الموضع : « وكقوله أيضا » ؛ لأن الشاهد السابق لامرىء القيس ، فتنبه ، وسيستدل به المؤلف مرة أخرى فى باب الاشتراك وينسبه لذى الرمة على الصواب .

(٣) البرج – بفتح الباء والراء جميعا – تباعد ما بين الحاجبين ، والنعج – بفتحتين أيضا – حسن اللون ، قال الجوهرى : « نعِجَ ينعج نعجا مثل طلب يطلب طلبا وامرأة ناعجة حسنة اللون » اهـ وقيل النعج : الابيضاض الخالص ، ويبعد أن يراد هنا .

(٤) فتور القيام : متراخية متكاسلة غير وثابة . قطوع الكلام : قليلته ، تفتر : تبسم ، ذى غروب : فم حر الأسنان رقيق الماء ، أشر : روى فى مكانه خصر

(٥) تمامه * تبوع طلوب نشيط أشر *

ثم أدخل المولدون فى هذا الباب أشياء عدوها تقطيعاً وتقسيما ، وذلك نحو قول أبى العميثل الأعرابى :

فاصدق وعفّ وجد وأنصف واحتمل واصفح ودَارِ وكَافِ واحْلُمْ واْشجع

والطف ولِنْ وتأنَّ وارْفُقْ واتَّئِدْ واحزم وجِـــدّ وحَامِ واحمل وادفع

وكقول ديك الجن :

احْلُ وامْرُرْ ، وضُرَّ وانفع ولِنْ وَاخْـــشن وَرِشْ وَابْرِ وَانْتَدِبْ للمعالى

وقول أبى الطيب :

أَقِلْ أَنِلْ اقطع احمل عل سل أعد زِدْ هَشّ بَشّ تفضّلْ اُدْنُ سُرَّ صِلِ

ثم زاد فى هذا وتباغض حتى صنع :

عِشِ ابق اُسم سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهُ رِهْ فِهِ اُسْرِ نَلْ

غِظِ ارم صُبِ احم اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثن بل

فهذه رقية العقرب كما قال ابن وكيع ،ولا بد من شرحها . . قوله «عش ابق» دعاء له بالعيش والبقاء ، واسم : من السمو ، وسد : من السيادة : أى دم هكذا ، وقد : من قَوْد الخليل ، وجد : من الُجودِ والسماح ، أو من الجَوْدِ وهو المطر الغزير ، مرانه : من الأمر والنهى ، رِهْ : من الوَرْيِ تثبت الهاءفيه أظنه فى الخط دون اللفظ ، على أنه ليس موضع وقف ، ولا يجب أن يكتب بلا هاء لئلا يخالف العادة وتقع كلمة على حرف واحد ، والورى : داء فى الجوف :أى اُصنع ذلك بإعدائك وحسادك ، فه: من الوفاء ، واْسر : من سرى الليل، يصفه بالعزم والغارات ، ونل : من النيل والإدراك ، أى : نَلْ ماتحب ،وروى نُلْ [أى] أعط ،من النَّوْلِ ، و يقال: نُلْتُه إذا أعطيته ، وغظ : من غيظ الحسود ، و يروى « عظ» من الوعظ ، وارم : من رمى العدو بالمكايد وغيرها ، وصُب:من صاب المطرُ والسهمُ ، واحم : من حميت المكان ، واغز : من الغزو ، واسب : من السبى ، ورُعْ : من الروع ، وزع : من وزعت ، أى : كففت،وَدِ : من الدية ، ولِ :من الولاية للأمور ، وقد يكون من

من المطر الوَلِيّ ، واثن : من ثنى أضداده إذا رَدَّهم ، و بل : من الوابل ، وهذه غاية المقت والبغاضة وإن كان ولا بد فقوله أيضا :

دانٍ بعيدٌ ، مُحِبٌّ مبغض ، بهج أغر ، حلو ممر ، لَيِّنٌ شَرِسٌ
ندٍ أبيٌّ غرٍ واف أخو ثقة جعد سَرِيٌّ نَهٍ نَدْب رِضاً نَدُسُ

نَدٍ : من الندى ، وغَرٍ : من غرى به ، ونَهٍ : من النهى ، وأصل هذا كُلِّه من قول امرىء القيس :

أفادَ فَجادَ ، وسَادَ فزادَ وقادَ فذادَ ، وعادَ فأفْضَلْ

٥٠ — باب التسهيم

الاختلاف فى تسميته وأنواعه

وقدامة يسميه التوشيح . . وقيل : إن الذى سماه تسهيماً على بن هارون المنجم ، وأما ابن وكيع فسماه المطمع ، وهو أنواع : منه ما يشبه المقابلة ، وهو الذى اختاره الحاتمى ، نحو قول جَنُوبَ أختِ عَمْرٍو ذى الـكَلْبِ :

فأقسم يا عَمْرُو لو نَبَّهاك إذاً نَبَّهَا منك دَاءً عُضَالا
إذاً نَبَّهَا لَيْثَ عِرِّيسَةٍ مُفِيتاً مُفِيداً نُفُوساً ومالا (١)
وخرْقٍ تجاوزت مجهوله بوجْنَاء حرف تشَكَّى الكلالاَ (٢)

---

(١) العريسة — بكسر العين المهملة وتشديد الراء — الشجر الملتف ، وهو مأوى الأسد فى خيسه ، ومنه قولهم * كبتغى الصيد فى عريسة الأسد * ويقال « عريس » أيضا بلاتاء .

(٢) خرق — بفتح فسكون — المكان الواسع تتخرق فيه الرياح ، أرادت الفلاة . والوجناء : الناقة . والحرف : المهزولة ، ولا يقال جمل حرف ، وإنما يقال ناقة حرف ، شبهوها إذا كانت ضامرة من الهزال بالحرف من حروف الهجاء ، وهو الألف ، تشكى : أصله تتشكى ، فحذف إحدى تاءيه . والكلال : التعب والإعياء .

فكنتَ النهارَ به شَمْسَهُ وكنتَ دُجَى اللَّيْل فيه الهلاَلاَ

أردتُ قولها « مفيتاً نفوسًا ومفيداً مالا » فقابلت مفيتًا بالنفوس ومفيداً بالمال ، وكذلك قولها فى البيت الأخير لما ذكرت النهار جعلته شمسًا ولما ذكرت الليل جعلته هلالا لمكان القافية ، ولو كانت رائية لجعلته قمراً .

وسر الصنعة فى هذا الباب أن يكون معنى البيت مقتفيا قافيته ، وشاهدا بها دالا عليها كالذى اختاره قدامة للراعى ، وهو قوله :

وإن وُزِنَ الحَصَى فوزنتُ قومى وجدت حَصَى ضَرِيبتهم رَزِينا

فهذا النوع الثانى هو أجود من الأول للطف موقعه .

والنوع الثالث شبيه بالتصدير ، وهو دون صاحبيه ، إلا أن قدامة لم يجعل بينهما فرقا .. وأنشد للعباس بن مرداس :

هُمُ سَوَّدُوا هجناً وكلُّ قَبيلة يُبَيِّنُ عن أحْسابها مَنْ يَسُودُها

وقال نصيب الأكبر مولى بنى مروان :

وقد أيقنتُ أن ستبينُ لَيلى وتُحْجَبُ عنك إن نفع اليقينُ

وإن تأملت قوافى ما هذه سبيله لم تجد له من لطف الموقع ما لقافية الراعى وإنما اختير هذا النوع على ما ناسب المقابلة والتصدير لأن كل واحد منهما مدلول عليه من جهة اللفظ : إما بالترتيب ، وإما باشتراك المجانسة ، والقافية فى بيت الراعى دالة على نفسها بالمعنى وحده ، فصار استخراجها أعجب وأغرب ، وتمكنها أشد وأوكد .

وقد حكى أن ابن أبى ربيعة جلس إلى ابن عباس رضى الله عنه ، فابتدأ ينشده :

* تَشُطُّ غَداً دَارُ جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وَلَلدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أبْعَدُ *

فقال له عمر : هكذا صنعت ، فأنت ترى كيف طبق المَفْصِلَ ، وأصاب شاكلة الروى ، لما كان المعنى يقتضى زيادة البعد كلما طال العهد بأيام الموسم ، واجتنب « أشط » لأنه لا يتزن ولا يستعمل ، وعدا عن أن يقول « أبرح » وما شاكله رغبة فى قرب المأخذ ، وسلوكا لطريق الفصاحة ، وإتيانا بالمتعارف المعتاد المتعاهد .

و يحكى عن عَدِىِّ بن الرِّقَاع أنه أنشد فى صفة الظبية وولدها:

* تُزْجِي أغَنَّ كَأَنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ(١) *

فغفل الممدوح عنه، فسكت ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : يقول :

* قَلَمٌ أصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا *

وأقبل عليه الممدوح فأنشد كما قال جرير لم يُغادر حرفًا .. وقالت الخنساء :

ببيض الصِّفَاحِ وسُمْرِ الرما ح بالبيض ضربًا و بالسمر وَخْزَا

وقالت أيضًا فى نحو ذلك :

ونلبس فى الحرب نَسْجَ الحديد ونلبس فى السِّلْمِ خَزًّا وقزَّا

وقال حريث بن مُحَفِّض :

فإنْ يَكُ طَعْنٌ بالرُّدَيْنِى يَطْعَنُوا وإنْ يك ضَرْبٌ بالمهند يَضْرِبوا

وقال ابن الدمينة ـ واسمه عبد الله بن عبيد الله [أحد بنى عامر(٢)] الخثعمى:

وكُونِى على الواشين لَدَّاء شَغْبَةً كما أنا بالواشى ألَدُّ شَغُوبُ

---

(١) الروق ـ بفتح الراء وسكون الواو ـ القرن ، وإبرته : طرفه ، على التشبيه . (٢) فى الأصول « بن عبيد الله بن عبد الخثعمى »

وكونى إذا مالوا عليك صليبة كما أنا إن مالوا علىّ صليب

فالبيتان جميعًا مُسَهَّمان . وقال دعبل

وإذا عاندَنا ذو نَخْوة غَضِبَ الروحُ عليه فعرج

فعلى أيماننا يجرى الندى وعلى أسيافنا تجرى المُهَجْ

ليس يجهل أحد بعد معرفة البيت الأول من هذين البيتين قافية الآخر منهما.

من جيد التسهيم

ومن جيد التسهيم قولُ بعضهم :

لو أننى أُعْطِيتُ من دَهْرِىَ المنى وما كل من يعطى المنى بمسدد

لقلت لأيام مضين : ألا ارجعى وقلت لأيام أتين : ألا ابعَدِى

وكذلك قول الآخر وهو مليح :

حبيبى غداً لا شك فيه مودعُ فوالله ما أدرى به كيف أصنع

فيا يومُ لا أدبرت هل لك محْبس ويا غدُ لا أقبلت هل لكَ مَدْفَع

إذ لم أُشَيِّعْهُ تَقَطَّعْتُ حَسْرَةً ووا كبدى إن كنت ممن يشَيِّع

مأخذ التسهيم والتوشيح

أردت البيت الأخير .. وما أظن هذه التسمية إلا من تسهيم البرود ، وهو أن ترى ترتيب الألوان فتعلم إذا أتى أحدها ما يكون بعده . وأما تسميته توشيحًا فمن تَعَطُّفِ أثناء الوشاح بعضها على بعض وجمع طرفيه ، ويمكن أن يكون من وشاح اللؤلؤ والخرز ، وله فواصل معروفة الأماكن ، فلعلهم شبهوا هذا به ، ولا شك أن الموشَّحات من ترسيل البديع وغيره إنما هى من هذا ، وبعض الناس يقول : إن التوشيج بالجيم ، فإن صح ذلك فإنما يجىء من «وَشَجَتِ العروقُ» إذا اشتبكت ، فكأن الشاعر شبك بعض الكلام ببعض.. فأما تسميته المُطْمع فذلك لما فيه من سهولة الظاهر وقلة التكلف ، فإذا حُووِل امتنع وبَعُدَ مَرَامُه .

(٥١) ــ باب التفسير

حد التفسير

وهو : أن يستوفى الشاعر شرحَ ما ابتدأ به مجملا ، وقلّ ما يجىء هذا إلا فى أكثر من بيت واحد ، نحو قول الفرزدق واختاره قدامة :

لقد جئت قوما لَوْ لَجأت إليهمُ طريدَ دم أو حاملا ثقلَ مَغْرم

لألفيتَ منهم معطيًا ومُطَاعنا وراءك شَزْراً بالوشيج المقوّم

هذا جيد فى معناه ، إلا أنه غريب مريب ؛ لأنه فسر الآخر أولا والأول آخراً ؛ فجاء فيه بعض التقصير والإشكال ، على أن من العلماء من يرى أن رد الأقرب على الأقرب والأبعد على الأبعد أصح فى الكلام .

وأكثر ما فى التفسير عندى السلامة من سوء التضمين لا أنه هو بعينه ما لم يكن فى بيت واحد أو شبيه به كالذى أنشده سيبويه :

خَوَّى عَلَى مُسْتَوِياتٍ خَمْسِ كِرْكِرَةٍ وَثِفِناتٍ مُلْسِ [(١)]

لأن هذا وإن كان كالبيت المصرع فهو بيتان من مشطور الرجز

من جيد التفسير

ومن التفسير الجيد قول[(٢)] حاتم الطائى ، ويروى لعتيبة بن مرداس :

---

(١) يقال للناقة إذا بركت فتجافى بطنها فى بروكها لضمرها : قد خوت ــ بتشديد الواو ــ وقد كثر ذلك حتى صاروا يقولون للابل إذا خمصت بطونها وارتفعت : قد خوت ، والكركرة ــ بكسر الكافين بينهما راء مهملة ساكنة ــ رحى زور البعير والناقة ، وقيل : هو الصدر من كل ذى خف ، والثفنات : جمع ثفنة ، بفتح فكسر ــ وهى ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ كالركبتين ، وقيل : هو كل ماولى الأرض من كل ذى أربع إذا برك أو ربض ، وتعد الكركرة إحدى الثفنات ، وهن خمس .

(٢) ذكر صاحب اللسان (مادة ق س ب) عن ابن برى وقد أنشد البيت الثالث ، قال : « هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائى ، ولم أجده فى شعره » اهـ

متى ما يجىء يوما إلى المال وارثى يجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غيرِ مَلأَى ولا صِفْرِ
يجِدْ فرساً مثل العنان وصارماً حساماً إذا ما هُزَّ لم يرض بالهَبْرِ (١)
وأسمرَ خَطِّيًّا كأنَّ كُعُوبَهُ نوى القَسْبِ قدْ أَرْبَى ذِراعاً على العَشْرِ (٢)

فهذا هو التفسير الصحيح السالم من ضرورة التضمين ؛ لأنه لم يعلق كلامه بلو كما فعل الفرزدق ، ولا بما يقتضى الجواب اقتضاء كليا ؛ فلهذا حسن عندى . .

ومثله قول عروة بن الورد :

وإن امرأً يرجو تراثى وإنَّ ما يصيرُ له منه غداً لقليلُ
ومالىَ مال غير دِرْعٍ ومِغْفَرٍ وأبيضَ من ماء الحديدِ صقيلِ
وأسمرُ خَطِّىَّ القناةِ مُثَقَّفٌ وَأجردُ عريان السراة طويلُ

هكذا أنشدوه بالإقواء ، ويجوز أن يرفع على القطع والإضمار ، كأنه قال: هو صقيل، أو قال : ولى أبيض من ماء الحديد ، يعنى سيفه .

وقال ذو الرمة فى التفسير :

وليلٍ كجلباب العروس ادرعته بأربعة والشَّخْصُ فى العين واحد
أحمُّ علافى ، وأبيض صارم وأعيس مَهْرِىّ ، وأروع ماجد

ففسر الأربعة ما هى ، ورفع على شرط ما قدمت من الإضمار ، كأنه قيل له : ما الأربعة التى شخصها فى العين واحد ؟ فقال : كذا وكذا وكذا ...

ومن التفسير ما يفسر الأكثر فيه بالأقل ، وهو من باب الإيجاز والاختصار:

---

(٢) الهبر — بفتح الهاء وسكون الباء — اللحم ، يريد أن سيفه لايقنع بالضرب فى اللحم حتى يصل إلى العظم .

(٣) القسب — بفتح فسكون — التمر اليابس ، قال الليث : ومن قاله بالصاد فقد أخطأ ، ونوى القسب : أصلب النوى . والقسب : الصلب الشديد . وأربى كأرمى .

وذلك ما أتَتْ فيه الجملة بعد الشرح ، نحو قول أبى الطيب :

من مبلغُ الأعراب أنىَ بعدها جالست رَسْطَاليس والإسكندرا
ومللت نحْرَ عِشارها فأضافنى من ينحر البِدَرَ النُّضَار لمن قَرَى
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإلـه نفوسهم والأعصرا
نُسِقُوا لنا نَسْقَ الحساب مقدماً وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

فقوله * نسقوا لنا نسق الحساب مقدماً وأتى فذلك إذ أتيت * تفسير مليح قليل النظير فى أشعار الناس . .

وتعلقت به فى بعض مدح السيد أبى الحسن فقلت :

أتى بعد أهل العلى لجملة شىء شرح

وقد أتى به أبو الطيب فى بيت واحد فقال :

إذا عُدَّ الكرام فتلك عجل كما الأنواء حين تعد عام

فهذا الذى كنا نَرْغب فيه لكون المفسر والمفسر به فى بيت واحد .

ونظيرهُ قوله أيضاً :

مضى و بنوه وانفردتَ بفضلهم وألفٌ إذا ما جُمِّعَتْ واحِدٌ فَرْدُ

فجاء به أيضا فى بيت واحد .

وكذلك قول امرىء القيس :

فلو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ــ ولم أطلب ــ قليل من المال

ومن قول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

فأرسَلْنا رَبيئتنا فأوفىْ فقال : ألا أولى خمس رُتوعُ
رَبَاعية وقارحها وجحش وثالثة وهادية زَمُوعُ

ففسر ما هى ، وأنثها لغلبة التأنيث على اسم الدواب . .

وقال مالك بن حُرَيم ، وقيل : حزيم :

فإن يك شاب الرأس منى فإننى أَبَيْت على نفسى مناقبَ أربعا
فواحدة أن لا أبيت بغرة إذا ما سَوَام الحى حَوْلِي تضوعا
وثانية أن لا تُفزِّعَ جارتى إذا كان جار القوم فيهم مُفزَّعا
وثالثة أن لا أصمِّت كلبنا إذا نزل الأضياف حِرْصاً لنودعا
ورابعة أن لا أحجلَ قدرنا على لحمها حين الشتاء لنَشْبَعا

«أحجل» أستر، أجعلها فى حجلة لتخفى عن الجار رغبة أن نشبع، ولكن أبرزها

وكتب أحمد بن يوسف ـ وفى رواية النحاس : عمرو بن مسعدة ـ عن المأمون « أما بعد فقد أمر أمير المؤمنين من الاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان ؛ فإن فى ذلك أنساً للسابلة، وضياء للمجتهدين ، ونَفْياً لمكامن الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وَحْشَة الظلم » .

ومن جيد التفسير فى بيت واحد قول أبى الطيب :

فتى كالسحاب الجون يُخْشَى ويُرْتَجَى يُرَجَّى الحيا منه وتُخْشَى الصواعقُ

فإنه قد أحكمه أشدَّ إحكام ، وجاء به أحسن مجىء ، حتى أربى على البحترى إذ يقول :

بأروع من طيٍّ كأن قميصه يُزَرُّ على الشيخين زيد وحاتم
سماحًا وبأسًا كالصواعق والحيَا إذا اجتمعا فى العارض المتراكم

وقد رد الكلام جميعًا آخره على أوله . .

وأصل هذا من المعجز قول الله تعالى : (وهوَ الذى يريكمُ البرْقَ خَوْفًا وطمعًا).

وقال أبو الطيب أيضًا فى التفسير المستحسن :

إن كوتبوا أو لَقُوا أو حُورِبوا وُجِدُوا فى الخط واللفظ والهيجاء فُرْسانا

ففسر وقابل كلَّ نوع بما يليق به ، من غير تقديم ولا تأخير ، كالذى وقع أولا فى بيتى الفرزدق . .

ومن التفسير قول كشاجم ـ واسمه محمود بن الحسين :

فى فمها مسك ، ومشمولة صِرْف ، ومنظوم من الدر
فالمسك للنكهة والخمر للريـــقة واللؤلؤ للثغر

وهذا من مليح ما وقع للمحدثين .

وقال لقمان لابنه : إياك والكسل والضَّجَرَ ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق .

(٥٢)ـ باب الاستطراد

حد الاستطراد

وهو : أن يرى الشاعر أنه فى وصف شىء وهو إنما يريد غيره ، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد ، وإن تمادى فذلك خروج ، وأكثر الناس يسمى الجميع استطراداً ، والصواب ما بينته . .

أوضح الإستطراد وأول من قاله

وأوضح الاستطراد قول السموأل وهو أول من نطق به حيث يقول :

ونحن أناسٌ لا نرى القتل سُبَّةً إذا ما رأته عامر وســـلول
يُقَرِّب حبُّ الموت آجالَنَا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

واتبعه الناس ، فقال الفرزدق وأجاد :

كأنّ فقاح الأسد حول ابن مسمع إذا اجتمعوا[1] أفواه بكر بن وائل

ثم أتى جرير فأربى وزاد بقوله :

لما وضعت على الفرزدق مِيسَمِى وَضَغَا البَعِيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأخطل

فهجا واحداً واستطرد باثنين . .

وقال مخارق بن شهاب المازنى يصف مِعْزَى :

ترى ضَيْفها فيها يَبِيت بغبطة وضيف ابن قيس جائع يتَحَوَّبُ

فوفد ابن قيس هـذا على النعمان بن المنذر فقال : كيف المخارق بن شهاب

(١) فى نسخة « حول بيوتهم إذا حلبوا » .

فيكم؟ فقال : سيد شريف حَسْبُك من رجل يمدح تيسه ويهجو ابن عمه .

ومن جيد الاستطراد قول دعبل بن على الخزاعى ، ويروى لبشار بن برد وهو أصح :

خليليّ من كَعْب أعِينا أخا كما ... على دهره ، إن الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة ؛ إنه ... مَخَافَةَ أن يُرْجَى نَدَاه حزين
إذا جئته فى القَرْط أغْلَقَ بابه ... فلم تلقه إلا وأنت كمين

ويروى * فى حاجة سد بابه * وأنشد البحترى أبو تمام لنفسه فى صفة فرس واستطرد يهجو عثمان بن إدريس الشامى :

وسابح هَطِلِ التَّعْدَاء هَتَّان ... على الجِرَاء أمين غير خوان
أظمى الفصوص وما تظمى قوائمه ... فخل عينيك فى ظمآن ريان
فلو تراه مشيحاً والحصى زِيَمٌ ... تحت السنابك من مَثْنى ووُحْدَان
أيقنتَ إن لم تَثَبَّتْ أن حافره ... من صخر تدمر أو من وجه عثمان

فقال له : أتدرى ما هذا من الشعر؟ قال : لا أدرى ، قال : هذا الاستطراد ، أو قال : المستطرد .

قال الحاتمى : وقد يقع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم إلى مدح ، كقول زهير :

إن البخيل ملومٌ حيث كان ولكنّ الجواد على عِلاَّته هَرِمُ

فسمى الخروج استطراداً كما تراه اتساعاً ، وأنشد فى الخروج بالاستطراد من مدح إلى ذم قول بكر بن النطاح يمدح مالك بن طَوْق :

عرضتُ عليها ما أرادت من المنى ... لترضى ، فقالت : قم فجئنى بكوكبِ
فقلتُ لها : هذا التعنتُ كله ... كمن يتشهّى لحم عنقاء مُغْرِبِ
سَلِى كلَّ أمر يستقيمُ طِلاَبه ... ولا تسألى يا درّ فى كل مذهب
فأقسِمُ لو أصبحت فى عزّ مالك ... وقدرته أعيى بما رُمْتِ مطلبى

فـــتى شقيتْ أمواله بعُفَاتِهِ كما شقيت قيسٌ بأرماح تغلب

فهذا مليح : أوله خروج ، وآخِرُه استطرادٌ ، وملاحته أن مالكا من بني تغلب فصار الاستطراد زيادة فى مدحه ، وزعم قوم أنه يمدح مالك بن على الخزاعى ، ومما استطرد به أبو الطيب قوله فى هجاء كافور :

يموتُ به غَيْظاً على الدهر أهله كما مات غيظا فاتكٌ وشَبِيبُ

على أن هذا البيت قد يقع موقع غيره من أبيات هذا الباب ؛ إذ ليس القصد فيه مدحاً ولا هجاء للرجلين المذكورين ، ولكن التشبيه والحكاية لا غير .

وقيل : أصل الاستطراد أن يريك الفارس أنه فر ليكرّ ، وكذلك الشاعر يريد أنه فى شىء فعرض له شىء لم يقصد إليه فذكره ولم يقصد قصده حقيقة إلا إليه .

ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج ، وذلك نحو قول عبيد الله بن طاهر لعبد الله بن سليمان بن وهب حين وَزَرَ للمعتضد : من الاستطراد الإدماج

أبى الدهر من إسعافنا فى نفوسنا وأسعفنا فيمن نُحِبُّ ونكرم

فقلتُ له : نعماك فيهم أتمها ودَعْ أمرنا ؛ إنّ المهمّ المقدم

وحكى أحمد بن يوسف الكاتب أنه دخل على المأمون وفى يده كتاب من عَمْرو بن مَسْعَدة يردد فيه النظر ، فقال : لعلك فكرت فى ترديدى النظر فى هذا الكتاب ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : إنى عجبت من بلاغته واحتياله لمراده « كتبت كتابى إلى أمير المؤمنين أعزه الله ومَنْ قبلى مِنْ قواده وأجناده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم » ألا ترى يا أحمد إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفاءهُ سلطانه من

الإكثار ؟ ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر ، وهذا النوع أقل فى الكلام من الاستطراد المتعارف وأغرب .

٥٣ — باب التفريع

حد التفريع ومنزلته من الاستطراد

وهو من الاستطراد كالتدريج من التقسيم ، وذلك أن يقصد الشاعر وصفاً ما ثم يفرع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً ، نحو قول الكميت :

أحلامكم لسَقَام الجهل شافيةٌ ... كما دماؤكم يَشْفَى بها الكَلِبُ[1]

فوصف شيئاً ثم فرع شيئاً آخر لتشبيه شفاء هذا بشفاء هذا . وقال ابن المعتز :

كلامُهُ أخْدَعُ من لحظه ... ووَعْدُه أكْذَبُ من طيفه

فبينا هو يصف خدع كلامه فرّع منه خدع لحظه ، ويصف كذب وعده فرّع كذب طيفه وقال أيضا يصف ساقى كأس :

فكأنَّ حُمْرة لونها من خده ... وكأن طيبَ نسيمها من نَشْرِهِ

حتى إذا صبَّ المزاج تبسمت ... عن ثغرها فحسبته من ثغرهِ

مازال ينجزنى مواعدَ عينه ... فَمُهُ ، وأحسب ريقه من خمرهِ

البيتان الأولان من هذه الثلاثة تفريع ، والبيت الآخر ليس بتفريع جيد؛ لأن الخمرة نازلة عن رتبة الريق عند العاشق ، وحق التفريع أن يكون الآخر من الموصوفين زائداً على الأول درجة : فى الحسن إن قصَد المدح ، وفى القبح إن قصد الذم ، وهو نوع خفى إلا على الحاذق البصير بالصنعة .

ومثل بيت ابن المعتز قولُ البحترى :

---

(١) قال صاحب اللسان وأنشد هذا البيت : « قال اللحيانى : الرجل الكلب يعض إنسانا ، فيأتون رجلا شريفا فيقطر لهم من دم أصبعه فيسقون الكلب فيبرأ » اهـ .

وإذا تألق فى النَّدِىّ كلامُه الـمصقولُ خلتَ لسانه من عَضْبِهِ

لأن حق العَضْبِ فى باب المدح أن اللسان أمضى منه . .

ومن التفريع الجيد قول الصنوبرى :

ما أخطأت نوناته[1] من صُدْغه شيئاً ، ولا ألفاته من قـده
وكأنما أنفاسُه من شعـره وكأنما قرطاسُه من جلده

فانظر إليه كيف يزيده رتبة فى الجودة كلما فرع .

ووصف ابن شيرزاد جارية كاتبة : فقال كأن خطها أشكال صورتها ، وكأن بيانها سحر مقلتها ، وكأن سكينها غنج لحظها، وكأن مدادَها سواد شعرها ، وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قامتها بعض أناملها ، وكأن مِقَطّها قلب عاشقها .

وشتان ما بين هذا الوصف وقول الآخر يهجو كاتباً أنشده الصولى فى أبيات:

كأن دواته[2] من ريقِ فيه تُلاقُ فَنَشْرُها أبداً كَريهُ

وقال كشاجم :

شيخٌ لنا من مشايخ الكوفَهْ نسبته للعليـلِ موصوفه
لو بَدَّلَ الله قمـله غنما ما طمع الناس منه فى صوفه

ومن لطيف التفريع قول أبى الطيب يصف ليلا :

أقلبُ فيه أجفانى كأنى أعُدُّ بها عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبا

بينا هو يصف كثرة سهره وإدارة لحظه شبهها بكثرة ذنوب الدهر عنده . .

وقال فبرد :

ولو نقصْتُ كما قد زِدْتَ من شرف على الورى لرأونى مثل شانيكا

(١) فى عامة الأصول « نوباته » وهو تحريف شنيع .

(٢) فى المصريتين « ذواته » وما أقبحه من تحريف .

هذا التفريع الملعون . . وقال محمد بن وهب :

طللان طالَ عليهما الأمد   دَثَرا فلا عَلَمَ ولا نضد
لَبِسَا البلى فكأنما وَجَدَا   بعدَ الأحبة بعض ما أجد

ومن المستحسن قول الخوارزمى أبى بكر محمد بن العباس :

سَمِحُ البديهةِ ليس يُمْسِكُ لفظهُ   فكأنما ألفاظهُ من مالِهِ
وكأنما عــزماته وسيوفهُ   من حــدِّهن خلقن من إقباله
متبسمٌ فى الخطبِ تحسب أنه   تحت العجاج مُلَثَّمٌ بفعــاله

وأخبث ماسمعته فى هذا الباب قولُ ابن الرومى يهجو رجلا :

له سائسٌ ماهرٌ   يجولُ على مَتْنِه
ويطعنُ فى دبره   أفانينَ مِن طعنه
بأطولَ من قرنِهِ   وأغلظ من ذهنه

ومن التفريع أيضا قول أبى الطيب على غير هذا النظام :

أســير إلى أقطاعه فى ثيابه   على طِرْفه من داره بحُسَامه
وما مَطَرَتْنِيهِ من البيض والقنا   وروم العِبِدَّى[1] هاطلات غمامه

فهذا تفريع تناوله من قول أبى تمام :

فقالوا : فما أولاك ؟ صِفْ بَعْضَ نَيلْه   فقلت لهم : من عنده كلُّ ما عندى

وأصله من قول أبى نواس :

* فــكلُّ خَيْرٍ عِنْدَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ *

يصف كلب صيد .

(١) العبدى — بتشديد الدال مفتوحة — العبيد ، جمع عبد .

٥٤ — باب الالتفات

حد الالتفات والاختلاف فى تسميته

وهو الاعتراض عند قوم ، وسماهُ آخرون الاستدراك ، حكاه قدامــة ، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا فى معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثانى فيأتى به ، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل فى شىء مما يشد الأول ، كقول كُثَيِّر:

لَوَ اَنَّ الباخلينَ ، وأنتِ منهم، رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا منكِ المِطَالاَ

فقوله * وأنت منهم * اعتراض كلام فى كلام ، قال ذلك ابن المعتز ، وجعله بابا على حِدَتِه بعد باب الالتفات ، وسائر الناس يجمع بينهما .

قال النابغة الذبيانى :

ألا زَعَمَتْ بنو عبسٍ بأنِّى — ألا كَذَبُوا — كبيرُ السِّنِّ فَانِى

فقوله * ألا كذبوا * اعتراض ، ورواه آخرون للجعدى * ألا زعمت بنو كعب * وهو أشبه بالجعدى ؛ لأنه أعلى سنامنه ؛ فقوله * ألا كذبوا * اعتراض، وكذلك ما يجرى مجراه .

وأنشدوا فى الالتفات لبعض العرب :

فَظَلُّوا بيومٍ — دَعْ أخاكَ بمثله — على مشرع يروى ولما يصرَّد

فقولك * دع أخاك بمثله * التفات مليح .

وقال جرير يرثى امرأته أم حَزْرَةَ :

نعم القرينُ — وكُنْتِ عِلْقَ مَضِنَّةٍ — وَارَى بنعفِ بليةَ الأحجارُ

فقوله * وكنت علق مضنة * هو الالتفات .

وقال عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر :

إن الثمانينَ — وبُلِّغْتَهـا — قد أحوجتْ سمعى إلى ترجمان

فقوله * وبلغتها * التفات ، وقد عده جماعة من الناس تتميما ، والالتفات

أشكل وأولى بمعناه ، ومنزلة الالتفات فى وسط البيت كمنزلة الاستطراد فى آخر البيت ، و إن كان ضده فى التحصيل ؛ لأن الالتفات تأتى به عفواً وانتهازاً ، ولم يكن لك فى خَلَدٍ فتقطع له كلامك ، ثم تصله بعدُ إن شئت ، والاستطراد تقصده فى نفسك ، وأنت تحيد عنه فى لفظك حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره ، أو تلقيه إلقاء وتعود إلى ما كنت فيه .

مجىء الالتفات آخر البيت

وقد جاء الالتفاتُ فى آخر البيت نحو قول امرىء القيس :

أبعدَ الحارثِ الملكِ بن عَمْرو ... له ملكُ العراقِ إلى عمانِ
مُجَاوَرَةً بنى شَمَجَى بن جَرْمٍ ... هواناً ما أتيح من الهوان
و يمنحها بنو شَمَجَى بن جرمٍ ... مَعِيزَهُمُ ، حنانك ذا الحنان

فقوله * ما أتيح من الهوان * وقوله * حنانك ذا الحنان * الالتفات

وحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : قال لى الأصمعى : أتعرف التفات جرير؟ قلت : وما هو ؟ فأنشدنى

أتنسى إذْ تُوَدِّعُنا سليمى ... بعودِ بَشَامَة ، سُقِىَ البَشَامُ !

ثم قال : أما تراه مقبلا على شعره ، إذ التفت إلى البشام فدعا له ، وأنشد له عبد الله بن المعتز :

متى كانَ الخيامُ بذى طلوحٍ ... سُقيتِ الغَيْثَ أيتها الخيامُ.

وأنشد له أيضا ابن المعتز :

طَربَ الحمام بذى الأراكِ فهاجنى ... لا زلتَ فى غللٍ وأيكٍ نَاضِرِ

لم يعدّ ابن المعتز إلا ما كان من هذا النوع ، وإلا فهو اعتراض كلام فى كلام

وقد أحسن ابن المعتز فى العبارة عن الالتفات بقوله « هو انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة ، ومن المخاطبة إلى الإخبار » وتلا قوله تعالى : (حتى إذا كنتم فى الفلكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طيبةٍ) .

وأنشد غيره لأبى عطاء السندى يرثى يزيد بن عمر بن هُبَيرة :

وإنك لا تَبْعَدْ على متعهدٍ بلى كلُّ ما تحت التراب بعيد

وهذا هو الاستدراكُ، ومثله قول زهير :

حَيِّ الديارَ التى لم يبلها القدم بَلَى، وَغَيَّرَهَا الأرواحُ والدِّيَمُ

وكذلك قول جرير :

غداً بأجماع الحيِّ نَقْضِى لُبَانة فأقسم لا تُقْضَى لبانتنا غــداً

وأنشد ابن المعتز فى هذا النوع ، وهو لبشار :

نبئت فاضحَ قومه يغتابنى عندالأمير، وَهَلْ عليَّ أمير؟

ومن مليح ماسمعته قول نُصَيْب :

وددتُ ـ ولم أخلق من الطير ـ أننى أعارُ جَنَاحَىْ طائر فأطيرُ

فقوله * ولم أخلق من الطير * عجب ، ولما سمعتِ التى قيل فيها هذا البيت تنفست تنفساً شديداً ، فصاح ابن أبى عتيق : أوه قد والله أجبته بأحسن من شعره، والله لوسمعك لنَعَقَ وطار، لجعله غراباً لسواده .

وأنشد الصولى للعباس بن الأحنف:

قد كنت أبكى وأنتِ راضيةٌ حذارَ هذا الصدودِ والغضبِ

إن تم ذا الهجر يا ظلوم ، فلا تم ، فما فى العيش من أرَبِ

وقال : سمعت ثعلبا يقول : ما رأيت أحداً إلا وهو يستحسن هذا الشعر .

ومن المليح أيضا قول القحيف[1] بن سليمان العقيلى :

أمنكم يا حنيفُ ـ نعم لعمرى ـ لِحَىّ مخضوبةٌ ودمٌ سجال

يخاطب ابنه . . وقال عدى بن زيد العبادى وهو فى حبس النعمان يخاطب ابنه زيداً ويحرضه :

فلو كُنْتَ الأسيرَ، ولا تَـكُنْهُ، إذاً عَلِمَتْ مَعَــدٌّ ما أقول

---

(١) فى عامة الأصول « النحيف » بالنون ، وهو تحريف .

(٥٥)— باب الاستثناء

تسميته وحده

وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم ، وذلك نحو قول النابغة الذبيانى :

وَلاَ عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الكتائب

فجعل فلول السيف عيباً ، وهو أوكد فى المدح . .

وقال النابغة الجعدى :

فتى كَمُلَتْ أخلاقهُ غَيْرَ أنه جَوَادٌ فما يُبْقِى من المال باقيا

فاستثنى جوده الذى يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالكمال . وبهذا الاستثناء تم وزاد كمالا وتأكد حسنه . .

وكذلك قوله :

فتىً تم فيه ما يَسُرُّ صديقَه على أن فيه مايسوء الأعادِيَا

فكأنه لما كان فيه مايسوء أعاديه لم يطلق عليه أنه يسر فقط ، وذلك زيادة فى م‍دحه ، وليس هذا الاستثناء على ما رتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة ، وإنما سمى اصطلاحاً وتقريبا ، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمى وأصحابه ولم يسم حقيقة . .

من مليح هذا النوع

ومن مليح هذا النوع قول أبى هفان [و] قد تقدم به وَجَوَّدَ غاية التجويد :

ولا عيبَ فينا غير أن سَمَاحنا أضرَّ بنا ، والبأس من كل جانب

فأفنَى الردى أرواحنا غيرَ ظالم وأفْنَى النَّدَى أموالنا غيرَ عائب

فقوله إن السماح والبأس أضر بهم ليس بعيب على الحقيقة ، ولكن توكيد مدح ، والمليح كل المليح قوله « غير ظالم ، وغير عائب » فهذا الثانى أعجب من الأول وألطف موقعاً . . وقال آخر :

ولا عيبَ فينا غيرُ عِرقٍ لمعشر كِرامٍ ، وأنا لا نخطُّ على النمل[(١)]

فقصر من جهة قوله * غير عرق لمعشر كرام * لأن سبيل هذا الباب أن يؤتى فيه بما يظن أنه عيب أو تقصير ، وإن كان على التحصيل فخراً وفضلا ، كالفُلُول فى سيوف النابغة الذبيانى ، وإتلاف المال فى شعر الجعدى ، وترك الخط على النمل فى شعر الآخر وأنهم لا يشفون صاحبها ، وهى داء واحدتها النملة ، وأما ذكر الكرم فلا وجه له ههنا .

ومن هذا الباب قول ابن الرومى :

لَيْسَ له عيبٌ سوى أنه لا تقع العين على شِبْهِهِ

فجعل انفراده فى الدنيا بالحسن دون أن يكون له قرين يؤنسه عيباً ؛ فهو يزيد توكيد حسنه .

وقال حاتم الطائى :

وما تَتَشَكَّى جارتى غيرَ أننى إذا غاب عنها بَعْلُها لا أزورها

---

(١) قال ابن منظور : « النمل : قروح فى الجنب وغيره ، ودواؤه أن يرقى بريق ابن المجوسى من أخته ، تقول المجوس ذلك . . . ثم أنشد هذا البيت . . أى : لسنا بمجوس ننكح الأخوات . قال أبو العباس : وأنشدنا ابن الأعرابى هذا البيت ، وفسره أنا كرام ولا نأتى بيوت النمل فى الجدب لنحفر على ما جمع لنأكله . . . وقال الجوهرى : النملة : بثور صغار مع ورم يسير ثم يتقرح فيسعى ويتسع ، ويسميها الأطباء الذباب ، وتقول المجوس : إن ولد الرجل إذا كان من أخته ثم خط على النملة شفى صاحبها . وفى الحديث : « لا رقية إلا فى ثلاث : النملة والحمة والنفس » اهـ كلامه بحروفه . والتفسير الذى ذكره أولا ثم نقله بعد عن الجوهرى هو المطابق لما ذكره المؤلف هنا ، وهو الموافق لقول الشاعر * غير عرق لمعشر كرام * فإنهم كانوا يعدون غير العرب ليسوا من الكرام فى شىء ، ومنه تعلم أن اعتبار المؤلف ذكر الكرم مما لا وجه له فى الكلام غير سديد ، هذا ، وفى رواية ابن منظور للبيت * غير نسل لمعشر * ورواية المؤلف أقرب .

سيبلغها خيرى ويرجع أهلها إليها ولم تُقصر على ستورها

لما كان فى ترك الزيارة إشكال بيّن مراده .

ومن أصحاب التآليف من يعد فى هذا الباب ما ناسب قول الشاعر :

فأصبحتُ مما كان بينى وبينها سوى ذكرها كالقابضِ الماء باليَدِ

وقال الربيع بن ضبيع الفزارى :

فنيتُ وما يفنى صنيعى ومنطقى وكلّ امرىء إلا أحاديثه فانِى

وليس من هذا الباب عندى ، وإنما هو من باب الاحتراس والاحتياط؛ فلو أدخلنا فى هذا الباب كل ما وقع فيه استثناء لطال ، ولخرجنا فيه عن قصده وغرضه ولكل نوع موضع .

(٥٦) — باب التتميم

وهو التمام أيضاً ، وبعضهم يسمى ضرباً منه احتراساً واحتياطاً .

حد التتميم

ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به: إما مبالغة ، وإما احتياطاً واحتراسا من التقصير، وينشدون بيت[1] طرفة:

فسَقى ديارَكَ غيرَ مُفسِدِها صَوْبُ الرّبيع وَدِيمةٌ تَهْمِى

لأن قوله «غير مفسدها» تتميم للمعنى، واحتراس للديار من الفساد بكثرة المطر .

ومثله قول جرير :

(١) من قصيدة له يهدد فيها المسيب بن علس الشاعر، ويمدح قتادة بن مسلمة الحنفى ، وقبله بأربعة أبيات :

أبلغ قتادة غير سائله منى الثواب وعاجل الشكم

والشكم : العوض والجزاء ، وقتادة هذا من أجواد العرب، وكان يقال له: غيث الضريك ، وكان قوم لمرقة قد أصابتهم سنة فأتوه فأحسن عطيتهم .

فسقاكِ – حيث حللت غير فقيدة –   هَـزِجُ الرواح وَدِيمةٌ لا تُقلِعُ

فقوله * غير فقيدة * تتميم لما أراد من دنوها وسقياها غير راحلة ولا ميتة إذ كانت العادة أن يدعى للغائب الميت بالسقى ؛ فاحترس من ذلك .

وقد عاب قدامة على ذى الرمة قوله:

ألا يا اسْلَمِي يا دَارَ مَيَّ على البِلَى   ولا زَال مُنْهَلاً بجرْعائِكِ القطر

فإنه لم يحترس كما احترس طرفة ، فرد ذلك عليه بأن الشاعر قدم الدعاء بالسلامة للدار فى أول البيت ، وهذا هو الصواب . . وقال زهير :

من يَلْقَ يَوْماً عَلَى عِلاّته هَرِما   يَلْقَ السَّماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقا

قوله * على علاته * مبالغة وتتميم عجيب .

من التتميم فى القرآن الكريم

والأصل فى هذا قول الله عز وجل : (ويطعمونَ الطعامَ على حبهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً) فقوله (على حبه) هو التتميم والمبالغة فى قول مَنْ قال إن الهاء ضمير الطعام ، وإن كان كناية عن الله تعالى خرج المعنى عن هذا الباب ، وقال الله جل اسمه : (مَن عملَ صالحا من ذكرٍ أوْ أنثى وَهُوَ مؤمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ) فتمم بقوله — (وهو مؤمنٌ) — .

من أمثلة التتميم فى الشعر

ومن أناشيد قدامة والحاتمى وغيرهما قول نافع بن خليفة الغنوى :

رجالٌ إذا لم يُقْبَلِ الحقُّ منهمُ   ويعطوه عادوا بالسيوف القواضبِ

قال الحاتمى : فإن المعنى تم بقوله « ويعطوه » وإلا كان ناقصا .

ويجرى مجراه عندى قول عنترة العبسى :

أَثْنِي عَلَيَّ كما علمتِ فإننى   سَهْلٌ مُخَالقتى إذا لم أُظْلَمِ

فقوله * إذا لم أظلم * تتميم حسن .

وقال آخر :

فلا تبْعَدَنْ إلا من السوء ؛ إننى   إليكَ – وإن شطّت بك الدارُ – نازع

فاستثناؤه « السوء » تتميم واحتراس جيد .

وقال أبو الطيب بن الوشاء :

لئن كان باقي عيشنا مثلَ ما مَضَى ... فَلَلمَوْتُ إنْ لم ندخل النارَ أروحُ

وقال سُرَاقة البارقي يهجو رهط جرير :

صغارٌ مقاريهم عِظَامٌ جُعُورهم ... بِطاءٌ عن الدّاعي، إذا لم يكن أكْلا[1]

كأنه قال إذا لم يكن المدعو إليه أكلا .

وقال مريع بن وعوعة الكلابي وقد قتل رجلا نَهْشَليا :

وقلتُ لأصحابي : النَّجَاء ؛ فإنما ... مع الصبح – إن لم تَسْبِقُوا – جَمْعُ نَهْشَلِ

ويجرى على هذه الأناشيد قول ابن محكان السعدي حين قدم للقتل :

ولستُ وإن كانت إليّ حبيبةً ... بباكٍ على الدنيا إذا ما تَوَلّتِ

فاستثنى * وإن كانت إلى حبيبة * استثناء مليحا ، ونوى التقديم والتأخير ؛ فلذلك جاز له أن يأتي بالضمير مقدما على مُظْهَره ، هكذا قال فيه أبو العباس المبرد ،

ومن التتميم الحسن قول امرىء القيس :

على هيكل يعطيكَ قَبْلَ سؤاله ... أفانينَ جَرْيٍ غير كزٍّ ولا وانى

فقوله * قبل سؤاله * تتميم حسن لقوله « أفانين جرى » وقول أعشى باهلة[2] :

* وكل أمر سوى الفحشاء يأتمر[3] *

يقول : هو يُدَبِّرُ كل شيء سوى الفحشاء فإنه لا يدبرها .

---

(١) المقارى : جمع مقرى – بكسر الميم وسكون القاف وبعد الراء ألف مقصورة – وهو إناء يقرى فيه الضيف ، ويقال للجفنة مقراة . وقال ابن الأعرابي : المقارى : القدور ، وجعورهم : أراد أستاههم ، وعظم الاست مما يتهاجى به العرب .

(٢) يرثى أخاه لأمه المنتشر بن وهب الباهلي ، وكان بنو نفيل قد قتلوه .

(٣) صدره * لا يصعب الأمر إلا ريث يركبه * ولا يصعب الأمر : لا يجده صعبا .

(٥٧) — باب المبالغة

آراء الناس في المبالغة

وهى ضروب كثيرة . والناس فيها مختلفون : منهم من يُؤْثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القُصْوَى فى الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان ، وهو القائل : أشعر الناس من استجيد كذبه ، وضحك من رديئه ، هكذا أعرفه ، ورأيت بخط جماعة — منهم عبد الكريم والباغانى — من استجيد جيده ومطابقه وضحك من رديئه . وروى قوم من حديث النابغة ومطالبته حَسَّانَ ابن ثابت بالمبالغة ونسبته إياه إلى التقصير فى قوله :

لنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى وَأَسْيَافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

ما هو مشهور عندهم مشهور فى كتبهم ، ومنهم من يعيبها وينكرها ، ويراها عيباً وهُجْنَة فى الكلام ، قال بعض الحذاق بنقد الشعر : المبالغة ربما أحالت المعنى ، ولَبَّسته على السامع ؛ فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لاتقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ؛ لأنه ينبغى أن يكون من أهم أغراض الشاعر والمتكلم أيضا الإبانَةُ والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ؛ فإن العرب إنما فُضِّلَتْ بالبيان والفصاحة ، وحلا منطقها فى الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة ، وإشارات لطيفة ، تكسبه بيانا وتصوره فى القلوب تصويراً ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قربوه من فَهْم السامع بالاستعارات والمجازات التى استعملوها ، وبالتشكك فى الشبهين ، كما قال ذو الرمة :

فياظبيةَ الوَعْساَء بينَ جلاجِلٍ وَبَيْنَ النّقا آ أَنْتِ أَمْ أَمّ سالم

فلو أنه قال * أنت أم سالم * على نفى الشك بل لو قال « أنت أحسن من الظبية » لما حل من القلوب محل التشكك . وكما قال جرير :

فإنَّكَ لوْ رأيتَ عَبيدَ تَيْمٍ ... وَتَيْماً قلتَ : أيُّهمُ العبيدُ

فلو قال « عبيدهم » أو « خير منهم » لما ظن به الصدق ، فاحتال فى تقريب المشابهة ؛ لأن فى قربها لطافة تقع فى القلوب وتدعو إلى التصديق .

وكذلك قول أبى النجم يصف عرق الخيل :

كأنه من عَرَقٍ يُسَرْبَلُهْ ... كَكُرْسفِ النَّدَّافِ لولا بَلَّلُهْ[(١)]

فإنه لو قال « إنه الكرسف » لم يكن فى حسن هذا ؛ لأنه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع فى الشك . . والمبالغة فى صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنًى حسن بالغ فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام أن تمكنه ، ولا يتعذر عليه ، وتنجذب كلما أرادها إليه ، انقضى كلامه .

وفيه كفاية وبلاغ، إلا أنه - فيما يظهر من فحواه - لم يرد إلا ما كان فيه بُعْد، وليس كل مبالغة كذلك ، ألا ترى أن التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضرباً من المبالغة وإن ظهر أنه من أنواع الحشو المستحسن،وقد مرّ ذكره . وكذلك ماناسب قول ابن المعتز يصف خيلا :

صَبَبْنا عليها ظالمينَ سِياطَنا ... وطَارَتْ بها أيْدٍ سِرَاعٌ وأرْجُلُ[(٢)]

وهذا عند جميع الناس من باب الحشو ، وهو عندى مبالغة ، وكذلك الإيغال ، وسيرد فى بابه إن شاء الله .

---

(١) الكرسف - بضم الكاف والسين بينهما راء مهملة ساكنة - القطن ، وهو الكرسوف أيضا ، وواحدته كرسفة . والنداف : الذى يضرب القطن بالمندف

(٢) انظر ص ٦٩ الآتية .

التقصى من المبالغة وحده

فمن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق : التقصِّى ، وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشىء ، كقول عمرو بن الأيهم التغلبى :

وُنـكْرِمُ جارَنا ما دام فينا وُنتْبِعه الـكَرامةَ حيث كانا

فتقصَّى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه .

ترادف الصفات

ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات ، وفى ذلك تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى ، كقول الله تعالى : (أو كظلماتٍ فى بحرٍ لجىّ يغشاهُ موجٌ من فوقهِ موجٌ من فوقه سحابٌ ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ) .

الغلو

فأما الغُلوُّ فهو الذى ينـكره مَنْ ينكر المبالغة من سائر أنواعها ، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة ، إلى كثير من محاسن الـكلام : فمن أبيات المبالغة قول امرىء القيس :

كأن المدامَ وصوبَ الغمام وريحَ الخزامى ونَشْرَ القُطُرْ(١)

يُعَلُّ به بردُ أنيابهـــــا إذا غرّد الطائرُ المستحر

فوصف فاها بهذه الصفة سَحَراً عند تغير الأفواه بعد النوم ، فـكيف تظنها فى أول الليل ؟! ومثل ذلك قوله يصف ناراً و إن كان فيه إغراق:

نظرتُ إليها ، والنجومُ كأنها مصابيحُ رُهْبَانٍ ، تُشَبُّ لِقُفَّالِ

يقول : نَظَرْتُ إلى نار هذه المرأة تشب لقفال والنجوم كأنها مصابيح رُهْبان ، وقد قال :

---

(١) فى عامة الأصول « نشر العطر » بالعين المهملة ، وهو تصحيف دعا إليه ذكر النشر ، وإنما هو « نشر القطر » بقاف مثناة . والقطر ـ بضم فسكون وبضمتين ـ العود الذى يتبخر به ، وقد قطر ثوبه ـ بتضعيف الطاء ـ وقطرت الجارية

تَنَوَّرْتها مِنْ أَذْرِعَاتٍ وأهلها ... بِيَثْرِبَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ[(١)]

و بين المكانين بُعْدُ أيامٍ ، و إنما يرجع القُفَّال من الغزو والغارات وَجْهَ الصباح ؛ فإذا رأوها من مسافة أيام وجه الصباح وقد خمد سَنَاها وكَلَّ موقدها فكيف كانت أول الليل ؟ ! ! وشبه النجوم بمصابيح الرهبان ؛ لأنها فى السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع ، لاسيما مصابيح الرهبان ؛ لأنهم يكلون من سهر الليل فربما نعسوا ذلك الوقت ، وهذا مما أورده شيخنا أبو عبد الله .

وقال امرؤ القيس يصف فرسًا :

لها ذَنَبٌ مثلُ ذَيْلِ العَرُوسِ ... تَسُدُّ به فرجَها من دُبُرْ

أراد طوله ؛ لأن العروس تجر ذيلها إما من الحياء و إما من الخيلاء .

وزعم الجاحظ أن قول غيلان ذى الرمة :

وَلَيْلٍ كجلْبابِ العَرُوسِ ادَّرَعْتُهُ ... بأَرْبعةٍ والشخصُ فى العين واحد

أراد به سُبُوغه لا لونه ، وأكثر الناس على خلاف قوله ، وأنا أرى أن هذا كقول عوف بن عطية بن الخَرِع التيمى من تيم الرباب يصف خيلا :

وَجَلَّلْنَ دَمْخًا قِناعَ العرو ... س تُدْنِى على حاجِبَيْها الخِمَارا

«دَمْخٌ » : جبل بعينه ، فأراد أن الخيل كسونه قناعا من الغبار هذه صفته .

ومن مُعْجِزِ المبالغة قول الله عز وجل : (سواء منكم مَنْ أَسَرَّ القولَ ومن جهرَ به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار) فجعل من يُسِر القول كمن يجهر به ، والمستخفى بالليل كالسارب بالنهار ، وكل واحد منهما أشد مبالغة فى معناه وأتم صفة .

---

(١) انظر ص ٦٢ الآتية .

(٥٨) — باب الإيغال

حد الإيغال

وهو ضرب من المبالغة كما قدمت ، إلا أنه فى القوافى خاصة لا يَعْدُوها ، والحاتمى وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ، ويدل على ما رتبته .

صفة أشعر الناس

وحكى الحاتمى عن عبد الله بن جعفر عن محمد بن يزيد المبرد قال : حدثنى التوزى قال : قلت للأصمعى : مَنْ أشعر الناس ؟ قال: الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً ، أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : نحو الأعشى إذ يقول :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يوما ليفلقها فلم يَضِرْهَا وأوهى قَرْنَه الْوَعِلُ

فقد تم المثل بقوله : وأوهى قرنه ، فلما احتاج إلى القافية قال « الوعل » قال : قلت : وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح ؟ قال : لأنه ينحط من قُنَّة الجبل على قرنه فلا يضيره ، قال : قلت : ثم نحو من ؟ قال :[نحو]ذى الرمة بقوله :

قِفِ الْعِيسَ فى أطلالِ ميَّةَ واسأَلِ رُسُوماً كأَخلاَقِ الرِّدَاء الْمُسَلْسَلِ

فتمم كلامه، ثم احتاج إلى القافية فقال « المسلسل» فزاد شيئاً ، وقوله :

أظنُّ الذى يجدى عليك سؤالها دموعا كتبديدِ الجمانِ المُفَصَّلِ

فتمم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال « المفصل » فزاد شيئاً أيضًا .

أول من ابتكر هذا النوع

وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هـذا المعنى بقوله يصف الفرس :

إذا ما جَرَى شَأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطْفُه تَقُولُ هزيزَ الريحِ مَرَّتْ بأَثأَبِ

فبالغ فى صفته ، وجعـله على هذه الصفة بعـد أن يجرى شأوين ويبتلّ عطفه

بالعَرَقِ ، ثم زاد إيغالا فى صفته بذكر الأثأب ، وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيفٌ عظيم وشدة صوت ، ومثل ذلك قوله :

كأنَّ عُيُونَ الطَّيْرِ حَوْلَ خِبائنا وأرحُلِنا الجزعُ الذى لم يُثقَّبِ

فقوله « لم يثقب » إيغال فى التشبيه ، واتبعه زهير فقال :

كأنَّ فُتَاتَ العِهنِ فى كلِّ منزل نزلْنَ به حَبُّ الْفَنَا لم يُحَطَّمِ

فأوغل فى التشبيه إيغالا بتشبيهه ما يَتناثر من فُتَاتِ الأرجوان بحب الْفَنَا الذى لم يحطم ؛ لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياض البتة ، وكان خالص الحمرة ، وتبعهما الأعشى فقال يصف امرأة :

غرَّاء فَرْعَاء مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الوحِلُ

فأوغل بقوله « الوحل » بعد أن قال « الوجى » وكذلك قوله « الوعل[1] »

وكان الرشيد كثير العجب بقول صريع الغوانى:

إذا ما عَلَتْ مِنَّا ذؤابة شاربٍ تمشَّتْ بهِ مَشْىَ المقيد فى الوحْلِ

و يقول : قاتله الله! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله فى وحل، وأنا أقول: إنه بيت الأعشى[1] بعينه .

ومن الإيغال قول الطِّرِمَّاح العقيلى يصف فرسًا بسعة المنخر :

لا يكتمُ الرَّبْوَ إلا رَيْثَ يخرجه من مَنْخِرٍ كوجَارِ الثعلبِ الْخَرِبِ

فكونه كوجار الثعلب غاية فى المبالغة ، فكيف إذا كان خربا ؟ .

ومن الإيغال الحسن قول الخنساء :

وإنَّ صَخْراً لتأْتمُّ الْهُدَاةُ به كأنَّهُ عَلمٌ فى رأسهِ نارُ

فبالغت فى الوصف أشد مبالغة ، وأوغلت إيغالا شديداً بقولها « فى رأسه نار » بعد أن جعلته علمًا ، وهو الجبل العظيم .

وأنشد الجاحظ :

ألوِّى حيازيمى بهنَّ صبابةً كما تَتَلَوَّى الحية الْمُتَشَرِّقُ

---

(١) فى البيت الذى أنشده المؤلف أول التمثيل لهذا النوع .

فقوله « الحية المتشرق » إيغال ؛ لأنه أشد لتلوّيه .

وكذلك قول جرير :

بات الفــرزدق عائراً وكأنه   قَعْوٌ تعاوره السقاةُ معار

وإذا كان مُعَاراً كان أشد لاستعماله وأقل للتحفظ عليه .

وقال النجاشي يذكر عبدَ الرحمن بن حسان :

لمـا أتانى ما يقول ودونه   مسيرةُ شهرٍ للمطى المُقَرَّدِ

فأوغل بقوله « المفرد » إيغالا عجيباً ؛ لأنه أشبَرَ من المحمل .

وقال جميل :

إنى لأكتمُ حبها إذ بَعْضُهُمْ   فيمنْ يحبُّ كناشدِ الأغفال

« الناشد » طالب الضالة ، وإذا كانت غُفْلاً ليس فيها سِمَة كان أشد للبحث عليها ، وأكثر للسؤال والذكر .

ومن أحسن إيغال المحدثين قول مروان بن أبى حفصة :

هم القوم: إن قالوا أصابوا ، وإن دُعوا   أجابوا ، وإن أعْطَوْا أطابوا وأجزلوا

فقوله « وأجزلوا » قد أتى به فى نهاية الحسن .

وكذلك قول بشار بن برد :

وغَـيْرَان من دون النساء كأنه   أسامة ذو الشِّبْلَيْنِ حين يجوع

فقوله « حين يجوع » إيغال حسن .

وقال ابن المعتز :

وداع دعا والليلُ بينى وبينه   فـكنتُ مكان الظن منه وأعجلا

فقوله « وأعجل » زيادة وصف ، وإيغال ظاهر .

وقال أبو الطيب فى رثاء أم سيف الدولة :

مَشَى الأمراء حَوْلَيْهـــا حُفَاة   كأنَّ المروَ من زِفٍّ الرئال

« فالزف » : أصغر الريش وألينه ، ولا سيا ريش النعام ، ولم يرض بذلك حتى جعله زف الرئال ، شبه به المرو ـ وهو ما صغر من الحصى وحد ـ فهذا فوق كل مبالغة وإيغال .

من الإيغال الاستظهار

ومن هـذا نوع يسمى الاستظهار ، وهو قول ابن المعتز لابن طَبَاطَبَا العلوى أو غيره :

فأنتم بَنُو بِنْتِهِ دوننا ونحن بنو عمه المُسْلِمِ

فقوله « المسلم » استظهار ؛ لأن العلوية من بنى عم النبى عليه الصلاة والسلام أيضا أعنى أبا طالب ومات جاهليا، فكأن ابن المعتز أشار بحذقه إلى ميراث الخلافة.

وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرق ؛ إلا أن هذا فى القافية لايعدوها ، وذلك فى حشو البيت .

اشتقاق الإيغال

واشتقاق الإيغال من الإبعاد ، يقال : أوغل فى الأرض ، إذا أبْعَدَ ، فيما حكاه ابن دريد ، وقال : وكل داخل فى شىء دخولَ مستعجل فقد أوغل فيه وقال الأصمعى فى شرح قول ذى الرمة :

كأن أصْوَاتَ من إيغَالِهِنَّ بنا أواخرِ الميس أصواتُ الفراريجِ

الإيغال : سرعة الدخول فى الشىء ، يقال : أوغل فى الأمر ، إذا دخل فيه بسرعة ، فعلى القول الأول كأن الشاعر أبعد فى المبالغة وذهب فيها كل الذهاب، وعلى القول الثانى كأنه أسرع الدخول فى المبالغة بمبادرته هـذه القافية .

وكلما [أ] كثرت من الشواهد فى باب فإنما أريد بذلك تأنيس المتعلم وتجسيره على الأشياء الرائعة. ولأريه كيف تصرّف الناس فى ذلك الفن، وقلّبوا تلك المعانى والألفاظ

(٥٩) — باب الغلو

أسماؤه وميزته

ومن أسمائه أيضا الإغراق ، والإفراط ، ومن الناس من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هى فى معرفته بوجوه الإغراق والغلو ، ولاأرى ذلك إلا مُحالا؛ لمخالفته الحقيقة ، وخروجه عن الواجب والمتعارف . . وقد قال الحذاق : خير الكلام الحقائق ، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها ، وأنشد المبرد قول الأعشى :

فَلَوْ أنَّ مَا أبْقَـيْنَ منى مُعَلَّقٌ بعــودِ ثُمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودُهَا

فقال : هذا متجاوز ، وأحسنُ الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه ، انقضى كلامه .

أصح الكلام

وأصح الـكلام عندى ما قام عليه الدليل ، وثبت فيه الشاهد من كتاب الله تعالى ، ونحن نجده قد قرن الغلو فيه بالخروج عن الحق ؛ فقال جل من قائل : (يا أهل الـكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم غيرَ الحقّ) .

تعريف الغلو لقدامة

والغلو عند قدامة : تجاوز فى نعت ما للشيء أن يكون عليه، وليس خارجا عن طباعه ، كقول النمر بن تَوْلَبٍ فى صفة سيف شبه به نفسه :

تظلُّ تحفِرُ عنه إنْ ضَرَبْتَ به بعد الذراعين والساقين والهادى

إذ ليس خارجا عن طباع السيف أن يقطع الشيء العظيم ثم يغوص بعد ذلك فى الأرض ، ولأن مخارج الغلو عنده على « تكاد » وعلى هذا تأول أصحاب التفسير قولَ الله تعالى : (وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ) أى : كادت .

اختلاف الناس فى الإفراط

وقال الجرجانى فى كتاب الوساطة: والإفراطُ مذهب عام فى المحدثين، وموجود كثير فى الأوائل، والناس فيه مختلفون : من مستحسِنٍ قابل ، ومستقبح رادّ ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز بالوصف حدها سَلِمَ ، ومتى تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، و إنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق .

قول الحاتمى فى الغلو

وقال الحاتمى : وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلو والإغراق ، ويختلفون فى استحسانها واستهجانها ، ويعجب بعض منهم بها ، وذلك على حسب ما يوافق طباعه واختياره ، ويرى أنها من إبداع الشاعر الذى يُوجِبُ الفضيلة له ، فيقولون : أحْسَنُ الشعر أكْذَبُهُ ، وأن الغلو إنما يراد به المبالغة والإفراط ، وقالوا : إذا أتى الشاعر من الغلو بما يخرج عن

الموجود ويدخل فى باب المعدوم فإنما يريد به المثل وبلوغ الغاية فى النعت ، واحتجوا بقول النابغة ــ وقد سئل : مَنْ أشعر الناس ــ فقال : من استجيد كذبه وأضحك رديئه ، وقد طعن قوم على هذا المذهب بمنافاته الحقيقة ، وأنه لا يصح عند التأمل والفكرة ، انقضى كلامه .

من أبيات الغلو

ومن أبيات الغلو للقدماء قول مهلهل :

فَلَوْلاَ الريحُ أُسْمِعَ من بحُجْرٍ صَليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذُّكور

وقد قيل : إنه أكذب بيت قالته العرب ، وبين حُجْرٍ ــ وهى قصبة اليمامة ــ وبين مكان الوقعة عشرةُ أيامٍ ، وهــذا أشد غلواً من [قول] امرىء القيس[1] فى النار ؛ لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد إدراكا . »

ومنها قول النابغة فى صفة السيوف :

تَقدُّ السَّلُوقِىَّ المضاعَفَ نَسْجُه ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نار الحباحب

وهو دون بيت امرىء القيس[1] فى تَنَوُّر صاحبة النار إفراطاً، ودون بيت النابغة قولُ النمر بن تَوْلَب فى صفة السيف أيضاً ، وقد أنشدته فيما مضى من هذا الباب[2]

واختار قوم على بيتى النابغة والنمر قولَ أبى تمام :

ويهتز مثل السيفِ لو لم تَسُلَّهُ يَدَانِ لَسَلَّته ظُباه من الْغِمْدِ

ومن الغلو قولُ جرير :

فلو وُضِعَتْ فِقَاحُ بنى نُمَيرٍ على خَبَثِ الحديدِ إذا لذابا

لأنه شىء لايذوب أبداً » . وقد نعى على أبى نواس قوله :

وأَخَفْتَ أهْلَ الشِّرْكِ حتى إنه لتخافك النُّطَفُ الَّتى لم تُخْلَقِ

---

(١) هو قوله الذى أنشده من قبل (ص ٥٦ من هذا الجزء) :

تنورتها من أذرعات، وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظر عال

(٢) انظر ص ٦١ السابقة .

إذ جعل ما لم يخلق يخافه . . وكذلك قوله :

حتى الذى فى الرَّحْم لم يَكُ صُورَةً   لِفُؤَادِهِ من خَوْفِهِ خَفَقَانُ

وزعم بعض المتعقبين أن الذى كثر هذا الباب أبو تمام ، وتبعه الناس بعد، من غلو المتنبي وأين أبو تمام مما نحن فيه ؟ فإذا صرت إلى أبى الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً ، وأبعدهم فيه همة ، حتى لو قَدَرَ ما أخْلى منه بيتاً واحدا ، وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غنى ، وله فى غيره مَنْدُوحة ، كقوله :

يترشَّفْنَ من فمى رشفاتٍ   هُنَّ فيهِ أحْلَى من التَّوْحيدِ

و إن كان له فى هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيدَ غايةَ المثلِ فى الحلاوة بفيه .

وقوله :

لو كان ذو القرنين أعملَ رأيه   لَمَّا أتى الظلماتِ صِرْنَ شمُوسا

أو كان صادف رأسَ عازرَ سيفُهُ   فى يوم معركةٍ لأعْيا عيسى

أو كان لجُّ البحر مثلَ يمينه   ما انشقَّ حتى جاز فيه موسى

فما دعاه إلى هذا وفى الكلام عوضٌ منه بلا تعلق عليه ؟ فكيف إذا قال :

كأنِّى دَحَوْتُ الأَرْضَ من خِبْرَتى بها   كأنى بَنَى الإسكندَرُ السدَّ من عزمى

فشبه نفسه بالخالق ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ثم انحط إلى الإسكندر ، وربما أفسد أبو الطيب إغراقَهُ هكذا ونقص منه بما يظنه إصلاحا له وزيادة فيه ، نحو قوله يصف شعره :

إذا قلته لم يمتنعْ من وصولهِ   جِدَارٌ مُعَلًّى أو خِباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المطنب بعد الجدار المنيف ؟ بينا هو فى الثريا صار فى الثرى !

و إنما أراد الحاضرة والبادية ، وكذلك قوله :

تَصُدُّ الرياحُ الهُوجُ عنها مخَافَةً   ويفزعُ منها الطيرُ أن يلقطَ الحَبا

فكم بين خوف الرياح الموج وصدودها ، و بين فزع الطير أن تلقط الحب؟ ولاسيما وأفزعُ الطير بهائمه التى تلقط الحب لضعفها وعدمها السلاح ، وأقل خيال أو تمثال يحمى مزروعات جمة ، وقد رجح صاحب الوساطة هذا البيتَ على قول أبى تمام :

فقد بثّ عبدُ اللهِ خوفَ انتقامِهِ على الليلِ حتى ما تَدِبُّ عقاربه

فاعتبروا يا أولى الأبصار .

ومما يشاكل قول أبى الطيب فى ألفاظه قول نصر الخابز أرزى[1] :

ذبتُ من الشوقِ فلو زُجَّ بى فى مقلةِ النائم لم ينتبه
وكانَ لى فيما مضى خاتم فالآن لو شئتُ تمنطقتُ بِهْ

فبين الإغراق والإغراق بَوْنٌ بعيد واختلاف شديد .

و إذا لم يجد الشاعر بداً من الإغراق ــ لحبه ذلك، ونزوع طبعه إليه ــ فليكن ذلك منه فى الندرة، و بيتا فى القصيدة إن أفرط ، ولا يجعل هِجِّيراه كما يفعل أبو الطيب .

أحسن الإغراق

وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بكادَ أو ما شاكلها ، نحو كأنَّ ولو ولولا ، وما أشبه ذلك مما لم يناسب أبيات أبى الطيب المتقدم ذكرها فى البشاعة ، ألا ترى ما أعجب قول زهير :

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمسِ من كرم قَوْمٌ بأحسابهم أو مجدِهم قَعَدُوا

فبلغ ما أراد من الإفراط ، و بنى كلامه عَلَى صحة .

ومما استحسنه الرواة ونص عليه العلماء قولُ امرىء القيس يصف سنانًا :

حملتُ رُدَيْنِيًّا كأنَّ شَبَاتَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ[2]

---

(١) المشهور فى هذه النسبة « الخبزرزى » أو « الخبز أرزى » .

(٢) فى الديوان « كأن سنانه » وهو المحفوظ ، وهو الموافق لقول المؤلف « يصف سنانا » .

وإذا نظرت إلى قول أبي صخر:

تكاد يدى تَنْدَى إذَا مَا لَمَسْتُهَا ... وَيَنْبُتُ فى أطرافها الوَرَقُ النَّضْرُ

وقول أبى الطيب:

عجبتُ من أرضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ ... مِنْ فَوْقِهَا وصُخُورُهَا لاَ تُورِقُ

لم يخف عنك وجه الحكم فيهما، على أن فى قول أبى الطيب بعض الملاحة والمخالفة لطبعه فى حب الإفراط وقلة المبالاة فيه؛ إذ كان ممكنا أن يقول: إن الصخور أورقت، ولغة القرآن أفصحُ اللغاتِ، وأنت تسمع قول الله تعالى: (يكادُ البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم) وقوله: (إذا أخرجَ يدَه لم يكدْ يراها) وقوله: (يكادُ زيتُها يضيء ولولم تمسسه نارٌ)

اشتقاق الغلو

واشتقاق الغلو [من] المغالاة، ومن غَلْوة السهم، وهى مَدَى رَمْيته، يقال: غاليت فلانا مغالاة وغِلاَء، إذا اختبرتما أيكما أبعد غَلْوة سهم، ومنه قول النبى عليه الصلاة والسلام: « جَرْىُ المُذْكِيات[1] غِلاء » وقد جاء فى حديث داحس « غلاء » و « غلاب » بالباء أيضا، وإذا قلت: غَلاَ السعر غَلاَء، فإنما تريد أنه ارتفع وزاد على ما كان، وكذلك غَلَتِ القدر غَلْياً أو غَلَيَاناً، إنما هو أن يَجِيش ماؤها ويرتفع، والإغراق أيضا أصله فى الرَّمْيِ، وذلك أن تجذب السهم فى الوتَرِ عند النَّزْع حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس، وإنما تفعل ذلك لبعد الغرض الذى ترميه، وهذه التسمية تدل على ما نحوتُ إليه وأشرتُ نحوه.

الإغراق

---

(٢) المشهور فى رواية هذا المثل: « جرى المذكيات غلاب » كما أشار المؤلف إليه، والمذكية من الخيل: التى قد أتى عليها بعد قروحها سنة أوسنتان، والغلاب: المغالبة. ومن رواه كالمؤلف أولا « غلاء » بالهمز فى آخره فإنما هو جمع غلوة، يعنى أن جريها يكون غلوات، ويكون شأوها بعيدا، لا كالجذعان.

(٦٠) — باب التشكك

فائدة التشكك

وهو من مُلَح الشعر وطُرَفِ الكلام ، وله فى النفس حلاوة وحُسْنُ موقع ، بخلافُ ما للغلو والإغراق .

وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ، ولا يميز أحدهما من الآخر ، وذلك نحو قول زهير :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاء
فإن تكن النساء مُخبَّآتٍ فَحُقٌّ لِكلّ مُحْصَنَةٍ هِدَاء

فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء ، وهذا أملح من أن يقول : هم نساء ، وأقرب إلى التصديق ؛ ولهذه العلة اختاروه كما تقدم القول فى بيت ذى الرمة :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساء بين جلاَجِلٍ وبين النَّقَا آأنت أم أمُّ سالم[1]

وبيت جرير

* فإنَّكَ لو رأيْتَ عبيدَ تَيْمٍ[1] *

وبيت أبى النجم فى صفة عرق الخيل[1] .

وقال العَرْجِى[2] :

باللهِ يا ظَبياتِ القَاعِ قُلْنَ لنَا لَيْلاَىَ مِنكُنَّ أَمْ لَيْلَى منَ البشر[2]

---

(١) انظر (ص ٥٣ و ٥٤) من هذا الجزء .

(٢) اضطرب العلماء فى نسبة هذا البيت ؛ فزعم قوم أنه لمجنون ليلى ، وكأنهم اغتروا بذكر ليلى فيه ، وقد بحثت جميع ديوانه فلم أجده ، وقد نسبه العينى كالمؤلف إلى العرجى ، ونسبه العباسى لأعرابى ولم يسمه ، ونسبه الباخرزى لبدوى سماه كاهلا الثقفى ، ونسبه قوم للحسين بن عبد الله (وانظر حواشينا الممتعة على شرح الأشمونى ج ١ ص ٢١٣) .

وإنما سلك طريق ذى الرمة .

وقال سَلْم بن عمرو الخاسر :

تَبَدَّتْ فَقُلْتُ الشَّمسُ عِنْدَ طُلُوعِها ... بِجِلْدٍ غَنِيٍّ اللَّوْنِ عن أثَرِ الْوَرْسِ

فَلَمَّا كَرَرْتُ الطَّرْفَ قُلْتُ لصاحِبي ... عَلَى مِرْيَةٍ : مَا هَا هُنَا مَطْلَعُ الشَّمْسِ

فأنت ترى كيف موقع هذا الشك من اليقين ؟ وكيف حلاوته فى الصدر وقبوله ؟ ؟ فإنه لو كان يقيناً ما بلغ هذا المبلغ .

وتناول هذا المعنى أبو زيد الوضاح بن محمد الثقفى فقال يمدح المستعين بالله :

وقائلة والليلُ قد نَشَرَ الدُّجى ... فَغَطَّى بِهَا ما بين سَهْلٍ وقَرْدَدِ

أرى بارِقاً يَبدو من الجَوْسَقِ الذى ... به حَـلَّ مِيرَاثُ النبيِّ مُحَمَّدِ

فَظَلَّ عَذَارَى الحىِّ ينظِمْنَ تحته ... ظَفَارِيَةَ الجزعِ الذى لَمْ يُسَرَّدِ

أضاءتْ به الآفاقُ حتى كأنَّمَا ... رأينا بِنِصْفِ الليل نورَ ضُحَى الْغَدِ

فقلتُ : هو البدرُ الذى تَعرِفينَهُ ... وإلا يكنْ فالنورُ من وجهِ أحمد

وأما قول أبى تمـام حين قصد عبد الله بن طاهر إلى خراسان يذكر شك رفقائه واستبعادهم الطريق :

يَقُولُ فى قُومِسٍ صَحْبِي وَقَدْ أخَذَتْ ... مِنَّا السُّرَى وخُطَا الْمَهْرِيَّةِ القُودِ :

أَمَطْلَعَ الشمسِ تَبْغِي أنْ تَؤُمَّ بنا ؟ ... فقلت : كَلَّا ولـكنْ مَطْلَعَ الجودِ

فقد صرف المعنى فيه عن وجهه ، وخالف فيه قصده ، ونسب ا[illegible]ـت إلى غيره ، وهو بعيد من قول سَلْم ، وليس ذكرهما جميعاً مطلع الشمس [illegible]وة ، ولا عليه مُعَوَّل . . وقال ابن مَيَّادة :

وَأُشْفِقُ مِنْ وَشْكِ الْفِرَاقِ وإننى ... أظُنُّ ـ لَمَحْمُولٌ عَلَيْه فرا كبه

فوالله ما أدرى : أيغلبنى الهوى ... إذا جدَّ جِدُّ البين أم أنا غالبه ؟ !

فقوله فى البيت الأول « أظن » مليح جداً ، وكذلك قوله فى البيت الثانى

« ما أدرى أيغلبنى الهوى أم أنا غالبه » .

وأخذ هذا المعنى ابن أبى مية وزاده ملاحة فقال :

فديتكَ لم تشبع ولم ترومن هَجْرِى أيُسْتَحْسَنُ الهجرانُ أكثرَ من شهر
أرانى سأسلو عنك إن دام ما أرى بلا ثقة ، لكن أظن ولا أدرى

وقد أحسن أبو الطيب فى قوله :

أرِيقُكِ أمْ ماء الغَمامةِ أم خَمْرُ ؟؟ بِفِيَّ بَرُودٌ وَهْوَ فى كبدى جَمْرُ

لولا أنه كدر صفوه ومرر حلوه بما أضاف إليه من قوله :

أذَا الغُصْنُ أمْ ذَا الدِّعْصُ أمْ أنْتِ فِتْنَةٌ وَهذَا الَّذِى قَبَّلْتُه البَرْقُ أمْ ثَغْرُ ؟

ولله در أبى نُوَاس إذ يقول :

ألا لا أرى مثلى امترى اليَوْمَ فِى رَسْمِ تَغَصُّ به عَيْنِى وَيَلْفِظُهُ وَهْمِى
أتَتْ صُوَرُ الأشياء بَيْنِى وبَيْنَهُ فَظَنِّى كَلَا ظَنٍّ وَعِلْمِى كلا عِلْمِ

ويروى « وجهلى كلا جهل » .

أول من نطق بهذا المعنى

وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس :

لمن طللٌ دَارِسٌ آيُهُ أضرَّ بِهِ سالِفُ الأَحْرُسِ (١)
تنكّرُهُ العَيْنُ من جانبٍ ويعرفه شَغَفُ الأنْفُسِ

وقال أعرابى فى معنى أبيات الوَضَّاح بن محمد :

أقولُ والنجم قد مالَتْ مَيَاسِرُه إلى الغروبِ : تأمَّلْ نظرةً حارِ
ألمحةً من سَنَا بَرْقٍ رأى بصرى وَوَجْهُ نُعْم بدا لى أم سَنَا نَارِ
بل وجه نُعْمٍ بدا والليل مُعْتَكِرٌ فلاحَ من بَيْنِ حُجَّابٍ وأسْتَارِ

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار ، دارس : عاف ، آيه : جمع آية ، والهاء ضمير الطلل ، وارتفاعه على أنه فاعل بدارس ، سالف : ماضى ، الأحرس : جمع حرس وهو الدهر .

٦١ ـ باب الحشو وفضول الكلام

أسماؤه وحده

وسماه قوم الاتكاء ، وذلك أن يكون فى داخل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى ، وإنما أدخله الشاعر لإقامة الوزن ، فإن كان ذلك فى القافية فهو استدعاء ، وقد يأتى فى حَشْو البيت ما هو زيادة فى حسنه وتقوية لمعناه : كالذى تقدم من التتميم ، والالتفات ، والاستثناء ، وغير ذلك ، مما ذكرته آنفاً .

أمثلة من الحشو

من ذلك قول عبد الله بن المعتز[1] يصف خيلا :

صَبَبْنَا عليها ظالمين سِياطَنَا ... فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأَرْجُلُ[1]

وقد مرّ ذكره فى باب[1] المبالغة ، فقوله « ظالمين » حشو أقام به الوزن ، وبالغ فى المعنى أشدَّ مبالغة من جهته ، حتى علمنا ضرورة أن إتيانه بهذه اللفظة التى هى حشو فى ظاهر الأمر أفضل من تركها ، وهذا شبيه بالتتميم ..

وقال الفرزدق :

ستأتيك مِنّى ـ إنْ بَقيتُ ـ قصائدٌ ... يُقَصِّرُ عن تحبيرها كلُّ قائل

فقوله « إن بقيت » حشو فى ظاهر لفظه ، وقد أفاد به معنى زائداً ، وهو شبيه بالالتفات من جهة ، وبالاحتراس من جهة أخرى ، فما كان هكذا فهو الجيد ، وليس بحشو إلاَّ على المجاز ، أو بعد أن يُنْعَتَ بالجودة والحسن ، أو يضافا إليه ، وإنما يطلق اسم الحشو على ما قدمت ذكره مما لا فائدة فيه .

وقد أتى العَتَّابى بما فيه كفاية حيث يقول :

إنَّ حَشْوَ الكلام من لُكْنَةِ المر ... ء وإيجازَهُ مِنَ التَّقْويم

فجعل الحشو لكنة ، وليس كل ما يحشى به الكلام لزيادة فائدة لكنه ،

---

(١) انظر (ص ٥٤) من هذا الجزء .

وإنما أراد ما لا حاجة إليه ولا منفعة ، كقول أبى صفوان الأسدى يذكر بازياً :

ترى الطَّيْرَ والوحشَ من خوفه حَوَاجِرَ منه إذا ما اغْتَـــدَى

فقوله « منه » بعد قوله « من خوفه » حشو لا فائدة فيه ، ولا معنى له ، وكذلك قول أبى تمام يصف قصيدة :

خذها ابْنةَ الفِـكرِ المهذبِ فى الدجى واللَّيْلُ أســـودُ حَالِكُ الجلباب

فقوله « الدجى » حشو ؛ لأن فى القسيم الثانى ما يدل عليه من زيادة استعارتين مليحتين ، فإن لم يكن فى القسيم الأول حشو كان القسيم الثانى بأثره فضلة.

وقال أبو الطيب فى نحو من ذلك :

إذا اعتلَّ سيفُ الدَّولةِ اعْتَلَّتِ الأرض

وَمَنْ فَوْقَهَا والبأسُ والـكَرَمُ المَحْض

فقوله « والبأس » حشو ؛ لأن قوله « ومن فوقها » دال على الإنس والجن جميعاً ، والبأس والـكرم جميعا ، اللهم إلا أن يحمله على تأويلهم فى قول الله تعالى : (فيهما فاكهة ونخل ورمان) فأعادَ ذكْرَهما وهما من الفاكهة لفضلهما، وقوله تعالى: (مَن كانَ عَدُوًّا لله وملائـكتِه ورُسله وجبريلَ وميكالَ) فإن هذا سائغ وليس بحشو حينئذ .

ومن الحشو قول الكَلْحَبة اليربوعى :

إذا المرء لم يَغْشَ الـكريهةَ أوْشَكَتْ حِبالُ الْهُوَيْنَا بالْفَتَى أنْ تَقَطَّعَا

فقوله « بالفتى » حشو ، وكان الواجب أن يقول « به » لأن ذكر المرء قد تقدم ، إلا أن يريد فى قوله بالفتى الزراية والأطنوزة[1] فإنه يحتمل .

وقال زيد الخيل يخاطب كعب بن زهير :

(١) الأطنوزة : من الطنز ـ بفتح الطاء وسكون النون ، وفى آخره زاى ـ وهو السخرية ، وباب فعله نصر ، والرجل طناز ـ بالفتح وتشديد النون ـ قال صاحب المختار : « وأظنه مولدا أو معربا » اهـ .

يقُولُ : أرى زيداً وقد كان معدماً أراه لَعَمْرِى قَدْ تمَوَّلَ واقتَنى

فقوله « أراه لعمرى » حشو واستراحة يُسْتَغْنَى عنها بقوله « أرى زيداً »

من الكلمات التى يكثر بها الحشو

ومما يكثر به حشو الكلام « أضحى، وبات ، وظل ، وغدا ، وقد ، ويوماً » وأشباهها ، وكان أبو تمام كثيراً ما يأتى بهما ، ويكره للشاعر استعمال « ذا ، وذى ، والذى ، وهو ، وهذا ، وهذى » وكان أبو الطيب مولعاً بها ، مكثراً منها فى شعره ، حتى حمله حبه فيها على استعمال الشاذ وركوب الضرورة فى قوله:

لَوْ لم تكن مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هو عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِها حَوَّاءُ

وكذلك يكره للشاعر قوله فى شعره « حقاً » إلا أن تقع له موقعها فى قول الأخطل :

فأَقْسَمَ المجدُ حقاً لا يُحَالفهم حتّى يُحَالفَ بطنَ الرَّاحةِ الشَّعَرُ

فإن قوله ههنا « حقاً » زاد المعنى حسناً وتوكيداً ظاهراً .

ولقد أحسن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى قوله لابن المعتز :

ولو قُبِلَتْ فى حادث الدهر فدية لَقُلْنا على التحقيق نحنُ فداؤه

فقوله « على التحقيق » حشو مليح فيه زيادة فائدة .

ومن الناس من يسمى هذا النوع من الكلام ارتفاداً ، وأنشد بعض العلماء قول قيس بن الخطيم :

قَضَى لها الله حينَ صَوَّرَهَا الـخَالِقُ أن لا يُكِنَّهَا سَدَفُ

والاتكاء عنده والارتفاد هو قول الشاعر « صورها الخالق » لأن اسم الله تعالى قد تقدم .

ووجدت الحذاق يعيبون قول ابن الحدادية – وهى أمه ، واسمه قيس بن منقذ:

إنَّ الفؤَاد قَدَ امْسَى هائِماً كَلِفاً قَدْ شَفَّهُ ذِكْرُ سلمى اليومَ فانتكسا

لحشوه بـ« قد » فى موضعين من البيت ثم بـ« أمسى » وبـ« اليوم » على تناقضهما.

وعاب الحاتمى على الأعشى قوله :

فرميت غفلةَ قلبه عن شاته فأصبت حبةَ قلبها وطحالها

لأن تكرير « القلب » عنده حشو لا فائدة فيه ، وهذا تعسف من الحاتمى لأن قلبه غير قلبها ؛ فإنما كرر اللفظ دون المعنى ، ورأيت روايته فى أكثر النسخ « حبة قلبه وطحالها » وهو غلط ، ومن ههنا عابه فيما أظن ، ومن الناس من روى « فرميت غفلة عينه عن شاته » وهى رواية مشهورة صحيحة .

ونعَوْا على أبى العِيَالِ الهذلى قوله:

ذكرتُ أخى فعاودنى صُداعُ الرأْسِ والْوَصَبُ

لأن « الصداع » من أدواء الرأس خاصة ، فليس لذكر الرأس معه معنى ؛ وعلى جميل قوله :

وماَ ذَكَّرَتْكِ النَّفسُ ياَ بُثْنَ مَرَّةً مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ كادَتِ النَّفْسُ تَتْلَفُ

فتكرير « النفس » ليس له وجه ههنا ، وللتكرير موضع يحسن فيه ، وسيرد إن شاء الله فى بابه .

من الحشو التفصيل

ومن الحشو نوع سماه قدامة التفصيل — بالفاء — وزعم قوم أنه بالعين كأنهم يجعلونه اعوجاجاً من قولهم : ناب أعْصَلُ ، وجعله آخرون بالعين وضاد معجمة ، كأن عندهم من : تعضل الولد ، إذا عَسُرَ خروجه واعترض فى الرحم ، وظاهر البيت الذى أنشده قدامة يدل على أنه التفصيل -بالفاء— وهو قول دريد ابن الصمة :

وَبلِّغْ نميراً -إنْ عَرَضْتَ- ابْنَ عَامِرٍ وأَىُّ أخٍ فى النائبات وطالب

ويجرى هذا المجرى قول أبى الطيب، بل هو أقبح منه :

حَمَلْتُ إليه من لسانى حَدِيقَةً سَقَاهَا الحِياسَقْيَ الرياضَ السحائِبِ

لأن التفرقة بين النعت والمنعوت أسهل من التفرقة بين المضاف والمضاف إليه، وهما بمنزلة اسم واحد ، فإذا شئت أن تجعل بيت ابن الخطيم « حين صورها الخالق » من هذا النوع جاز لك ؛ فيكون التقدير قضى لها الله الخالق حين صورها .

٦٢— باب الاستدعاء

حد الاستدعاء

وهو ألاّ يكون للقافية فائدة إلا كونها قافية فقط ، فتخلو حينئذ من المعنى كقول عدى القرشى ، أنشده قدامة:

وَوُقيتَ الحتوفَ مِنْ وَارِثٍ وا لِ ، وَأَبقاكَ صَالِحًا رَبُّ هُودِ

فإنه لم يأت لهود النبي عليه السلام ههنا معنى إلا كونه قافية .

وما أعجب السيد الحميرى فى قوله :

أقسم بالفجر و بالعشرِ والشفع والوتر ورب لقمان

فى منزلٍ محكم ناطق بنور آياتٍ و برهان

فالفجرُ فجر الصبح والعشرعشـــرُ النحر . والشفعُ نجيان

محمـــدٌ وابن أبى طالب والوتر رب العزة البانى

بانِى سَمٰواتٍ بنـاها بِلاَ تقدير إنس ولا جان

فانظر إلى قوله « رب لقمان » ما أكثر قَلَقَه وأشدَّ ركاكته ! ! ! وأما قوله « البانى » فقد خرج فيه من حد اللين والبرد ، وتجاوز فيه الغاية فى ثقل الروح ، والله حسبه .

ومن أناشيد قدامة قول على بن محمد صاحب البصرة :

وسابغة الأذيال زَغْفٍ مفاضةٍ تـكنَّفَهَا مـنى نجـادٌ مخطط

فلا أدرى معنى هذا الشاعر فى تخطيط النجاد ، وهذا أقل مافى تكلف القوافى الشارده إذا ركبها غير فارسها ، وراضها غيرُ سائسها .

٦٣ — باب التـكرار

متى يحسن؟ ومتى يقبح؟

وللتـكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ، فأكثر مايقع التـكرار فى الألفاظ دون المعانى ، وهو فى المعـانى دون الألفاظ أقل ، فإذا تـكرر

اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلانُ بعينه ، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب ، إذا كان فى تغزل أو نسيب . . كقول امرىء القيس ، ولم يتخلص أحد تخلصه فيما ذكر عبد الكريم وغيره ، ولا سَلِمَ سلامته فى هذا الباب :

دِيارٌ لسَلْمى عافياتٌ بذِى الخال ... ألحَّ عليها كلُّ أسْحَمَ هَطّالِ
وتَحْسِبُ سلمى لاَ تَزَالُ كعهدنا ... بوَادِى الخُزَامَى أو على رَأْسِ أوعال
وتحسِبُ سلمى لاتزالُ تَرَى طَلاً ... مِنَ الوحش أو بَيْضاً بميثاء مِحْلاَلِ
ليَالِيَ سَلْمى إذْ تُرِيكَ مُنَصَّداً[1] ... وَجِيداً كجيدِ الرِّيم لِيْسَ بِمِعْطالِ

وكقول قيس بن ذريح :

ألا لَيْتَ لُبْنَى لم تكن لىَ خُلَّةً ... ولم تَلْقَنِى لُبْنَى ولَمْ أدْرِ ماهِيَا

أو على سبيل التنويه به ، والإشارة إليه بذكر ، إن كان فى مدح كقول أبى الأسد :

ولائمةٍ لامَتْكَ يا فَيْضُ فى النـــدى ... فقلتُ لها : هَلْ يَقْدَحُ اللَّوْمُ فى البحر ؟
أرادت لتثنى الفيضَ عن عادة الندى ... وَمَنْ ذَا الذى يَثْنِى السَّحَابَ عن القَطْرِ ؟!
كأنَّ وفودَ الفيض يوم تحمَّـلوا ... إلى الفيض لاقَوْا عنده ليـــلة القدر
مواقعُ جـــودِ الفيض فى كل بلدة ... مواقعُ ماء المزن فى البلد القَفْرِ

فتكرير اسم الممدوح ههنا تنويه به ، وإشارة بذكره ، وتفخيم له فى القلوب والأسماع . وكذلك قول الخنساء :

وإنَّ صَخْراً لمولانا وَسَيِّدُنا ... وإنْ صَخْراً إذا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وإنَّ صَخْراً لتأتمُّ الهُدَاة به ... كأنه عَلَمٌ فى رأســـه نار

---

(١) فى إحدى روايات الديوان « إذ تريك منصبا » وأراد ثغرا متسقا مستويا

أو على سبيل التقرير والتوبيخ . كقول بعضهم :

إلى كم وكم أشياءِ مِنْـكمْ تَرِيبُنِى أُغَمِّضُ عنها لست عنها بذى عمى

فأما قول محمد بن مُنَاذر الصُّبَيْرِى (١) فى معنى التكثير :

كم وكم كم كم كم و كم كم كم و كم قالَ لى : أَنْجِزَ حُرٌّ مَاوَعَدْ

فقد زاد على الواجب ، وتجاوز الحد .

ولما أنشدوا للصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد قول أبى الطيب :

عَظُمْتَ فلما لم تُكَلَّمْ مَهَابَةً تواضعتَ،وهو المعظم عظما عن العظم

قال : ما أكثر عظام هذا البيت مع أنه من قول الطائى :

تَعَظَّمْتَ عَنْ ذاكَ التَعَظُّم فيهمُ وأوْصَاكَ عظمُ القدر أن تَتَنَبَّلاَ

ومن المعجز فى هذا النوع قول الله تعالى فى سورة الرحمن : (فبأَىِّ آلاء ربكما تكذِّبان) كلما عدّد منة أو ذكّر بنعمة كرَّرَ هــذا . وقد كرر أبو كبير الهذلى قوله :

فإذا وذلك لَيْسَ إلا ذِكْرُهُ وإذا مضى شىء كأنْ لم يفعل

على بعض الروايات فى سبعة مواضع من قصيدته التى أولها :

أزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شيبة من مَعْدَل أم لا سبيلَ إلى الشبابِ الأول؟؟

كلما وصف فصلا وأتمه كرر هذا البيت .

أو على سبيل التعظيم للمحكى عنه، أنشد سيبويه :

لا أرَى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَىْء نَغَّصَ المَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

أو على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاب موجع ، كقول الأعشى ليزيد ابن مسهر الشيبانى :

أبا ثَابِتٍ لا تَعْلَقَنْكَ رِمَاحُنَا أبا ثابت أقْصِرْ وَعِرْضُكَ سَالِمُ

وَذَرْنَا وقَوْماً إن هُمُ عمدوا لنا أبا ثابتٍ وَاقْعُدْ فإنكَ طاعمُ !!

(١) فى عامة أصول هـذا الكتاب « البصيرى » بتقديم الباء ، وإنما هو « الصبيرى » بتقديم الصاد على الباء ـ نسبة إلى مواليه بنى صبير بن يربوع

أو على وجه التوجع إن كان رثاء وتأبيناً ، نحو قول متمم بن نويرة :

وقالوا : أتبكى كلَّ قبر رأيتَهُ لقبرٍ ثَوَى بين اللوَى فالدكادك ؟؟
فقلت لهم : إن الأسى يَبْعَثُ الأسى دَعُونى فهـذا كله قبرُ مالك

وأوْلىٰ ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء ؛ لمكان الفجيعة وشدة القرحة التى يجدها المتفجع ، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد .

أو على سبيل الاستغاثة وهى فى باب المديح ، نحو قول العديل بن الفرخ :

بَنى مِسْمَعٍ لَولا الإلٰهُ وأنتمُ بَنِى مِسْمَعٍ لم يُنْكِرِ الناسُ مُنْكَرَا

ويقع التكرار فى الهجاء على سبيل الشهرة ، وشدة التوضيع بالمهجو ، كقول ذى الرمة يهجو المرئِىَّ :

تسمى امرأ القيس بن سَعْدٍ إذا اعتزت وتأبى السبالُ الصُّهْبُ والآنُفُ الحُمْرُ
ولكنَّا أصلُ امرىء القيس مَعْشَرٌ يَحِلُّ لهم لحم الخنـازير وَالخَمْرُ
نصاب امرىء القيس العبيد وأرضُهم مجر[(١)] المساحى لا فلاةٌ ولا مصر
تَخَطّى[(٢)] إلى الفقر امرؤُ القيس؛ إنه سَوَاءٌ عَلَى الضَّيْفِ امْرُؤُ القيس والفقرُ
تحب امرؤُ القيس القِرَى أن تنَاله وتأبى مقاريها إذا طلع الفجر[(٣)] .
هل الناسُ إلا يا امرأ القيس غادرٌ ووافٍ وما فيكم وفاء ولا غـدر ؟

وكذلك صنع جرير فى قصيدته الدَّمَّاغة التى هجا بها راعى الإبل ؛ فإنه كرر « بنى نمير » فى كثير من أبياتها .

ويقع أيضاً على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص ، كقول حماد عَجْرَد لابن نوح ، وكان يتعرب :

---

(١) فى الديوان « مجر المساحى » .

(٢) فى عامة الأصول « تخلى إلى الفقر » بتقديم المثناة على الموحدة ، وكذا فى قافية البيت ، وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن الديوان .

(٣) فى نسخة « إذا طلع النسر » .

يابْنَ نُوحٍ يا أخا الْـــحِلْسِ ويا ٱبْنَ القَتَبِ (١)
ومن نَشَــــا والدُهُ بين الربا والـكُتُبِ
يا عــــربى يا عـربى يا عــــربى يا عـربى

ومن المعيب فى التكرار قولُ ابن الزيات :

أتعزِفُ أم تقيم على التصابى ؟ فقد كثرتْ مُنَاقلة العتاب
إذا ذكر السـلوُّ عن التصـابى نفرت من اسمـه نفر الصـعاب
وكيف يُلاَمُ مثلكَ فى التصابى وأنتَ فتى المجانَةِ والشَّبَاب ؟!!
سأعزف إن عزفت عن التصابى إذا مالاح شيـــب بالغُراب
ألم ترنى عَدَلْتُ عن التصابى فأغرتْنى الملامةُ بالتصابى ؟!!

فملأ الدنيا بالتصابى ، على التصابى لعنة الله من أجله ، فقد برد به الشعرُ ، ولا سيما وقد جاء به كله على معنى واحد من الوزن،لم يعدُ به عروض البيت،وأين هذا من تكريره على جهة التفخيم فى قوله للحسن بن سهل من قصيدة :

إلى الأميرِ الحسن استجدتُها أىّ مَزَارٍ وَمُنَـــاخٍ ومَحَلْ
أىّ مَزَارٍ ومُنَــاخٍ ومحـلٍ لخائفٍ وَمُسْتَرِيشٍ ذِى أَمَلْ

وهذا كقول امرىء القيس :

تَقَطَّعُ أسْبَابُ اللُّبَانة وَالْهَوَى عَشِيَّةَ جاوَزْنَا حَمَاةَ وَشَيْزَرَا
عَشية جاوزنا حمـــاة وشيزرا أخو الجهدلايلْوِى على مَنْ تعذَّرا (٢)

من تكرير المعانى

ومن تكرير المعانى قول امرىء القيس ، وما رأيت أحداً نبه عليه :

(١) هذه الأبيات من الرجز المجزو ، وقد حذف من صدر أولها سبب خفيف

(٢) يروى هـذا البيت هـكذا :

بسير يضج العود منه يمنه أخو الجهد لا يلوى على تعذرا

وحماة وشيزر : مدينتان من مدن الشام،والعود: المسن من الإبل ، يمنه : يضعفه أخوالجهد:السائق المجدوأرادبه نفسه، لا يلوى :لايلتفت أولا يبقى،تعذرا :قدم عذرا.

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل

فالبيت الأول يغني عن الثاني ، والثاني يغني عن الأول ، ومعناهما واحد ؛ لأن النجوم تشتمل على الثريا ، كما أن يذبل يشتمل على صم الجندل ، وقوله « شدت بكل مغار الفتل » مثل قوله « علقت بأمراس كتان »

ويقرب من ذلك وليس به قول كثير :

وإني وتهيامي بعزة بعدما ... تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت
كأني وإياها سحابة ممحل ... رجاها فلما جاوزته استهلت

إلا أن كثيراً تصرف ، فجعل رجاء الأول ظل الغمامة ليقيل تحتها من حرارة الشمس فاضمحلت وتركته ضاحياً ، وجعل الممحل في البيت الثاني يرجو سحابة ذات ماء فأمطرت بعد ما جاوزته .

ومن مليح هذا الباب ما أنشدنيه شيخنا أبو عبد الله محمد بن جعفر لابن المعتز ، وهو قوله :

لساني لسري كتوم كتوم ... ودمعي بحبي نموم نموم
ولي مالك شفني حبه ... بديع الجمال وسيم وسيم
له مقلتا شادن أحور ... ولفظ سحور رخيم رخيم
فدمعي عليه سجوم سجوم ... وجسمي عليه سقيم سقيم

باب منه

ذكر ابن المعتز أن الجاحظ سمى هذا النوع المذهب الكلامي .

قال ابن المعتز: وهذا باب ما علمت أني وجدت منه في القرآن شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال صاحب الكتاب : غير أن ابن المعتز قد ختم بهذا الباب أبواب البديع الخمسة التي خصها بهذه التسمية ، وقدمها على غيرها ، وأنشد للفرزدق :

لكل امرىء نَفْسَانِ : نَفْسٌ كريمة وَأُخْرَى يُعاصيها الفتى ويُطيعُها
ونفسك من نفسيك تَشْفع للندى إذا قلّ من أحرارهن شَفِيعُها

وأنشد لآخر ، ولا أظنه إلا إبراهيم بن العباس :

وَعَلَّمْتِنِي كَيْفَ الهوى وجَهِلْتِهِ وعلَّمكُم صَبْرِى على ظلمكم ظلمى
فأعلم مالِى عندكم فيميلُ بي هواى إلى جهلى وأُعْرِضُ عن علمى

وعاب على أبى تمام قوله :

فالمَجْدُ لا يرضى بأن ترضى بأن يَرْضَى المُؤَملُ منك إلاّ بالرضا

وحكى أن إسحاق الموصلى سمع الطائى ينشد ويكثر من هذا الباب وأمثاله عند الحسن بن وهب ، فقال : يا هذا ، لقد شددت على نفسك .

وأنشد ابن المعتز لنفسه :

أسرفت فى الكتمان وذاك منى دهانى
كتمت حبك حتى كتمته كتمانى
فلم يكن لِىَ بُدٌّ من ذكره بلسانى

وهذه الملاحة نفسها ، والظَّرْفُ بعينه .

ومن هذا الباب نوع آخر هو أولى بهذه التسمية من كثير مما ذكره المؤلفون ، نحو قول إبراهيم بن المهدى يعتذر إلى المأمون من وثوبه على الخلافة :

البرمنك وطّاه العذر عندكَ لى فيما فعلتُ ، فلم تعذل ولم تَلُمِ
وقام علمك بى فاحتجّ عندكَ لى مقامَ شاهدِ عدلٍ غيرِ مُتَّهَمِ

وكذلك قول أبى عبد الرحمن العطوى :

فوحقّ البيانِ يعضُدُه البُرْ هانُ فى مأْقِطِ ألدِّ الخصامِ
ما رأينا سوى الحبيبة شيئاً جمعَ الحسنَ كله فى نظامِ
هى تجرى مجرى الإصابةِ فى الرأ ى ومجرَى الأرواحِ فى الأجسام

وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله بن المعتز ، إلا ما لاخفاء به عن أحد من أهل التمييز ، واضطرنى إلى ذلك قلة الشواهد فيه ، إلاّ ما ناسب قول أبى نُوَاس :

سَخُنْتَ من شدة البرودةِ حتَّـــى صِرْتَ عندى كأنك النَّارُ
لا يعجبُ السامعون من صفتى كذلكَ الثلجُ باردٌ حار

فهذا مذهب كلامى فلسفى . . وقوله أيضاً :

فيك خلافٌ لخلافِ الذى فيه خلافٌ لخلافِ الجميل

وأشباه ذلك مما فى هذا غِنًى عنه ودلالة عليه .

(٦٤) — باب نفى الشىء بإيجابه

هو من المبالغة ولايختص بها

وهذا الباب من المبالغة ، وليس بها مختصاً ، إلا أنه من محاسن الكلام ، فإذا تأملته وجدت باطنه نفياً ، وظاهره إيجاباً . . قال امرؤ القيس :

عَلَى لاَحِبٍ لا يُهتَدَى بمناره إذا سافَه العَوْدُ النباطِىُّ جَرْجَرا[1]

فقوله « لا يهتدى بمناره » لم يرد أن له مناراً لايهتدى به ، ولـكن أراد أنه لامنار له فيهتدى بذلك المنار .

وكذلك قول زهير :

(١) لاحب :هو الطريق الواضح . مناره : هو العلامة توضع على الطريق للهداية، وفى الحديث : «إن للدين صوى ومنارا كمنار الطريق » سافه: شمه، والسوف الشم، والعود : المسن من الإبل . النباطى : الضخم ، جرجر : رغا وضج ، وأخرج جرته .

بأرض خَلَاءٍ لا يُسَدُّ وَصيدُها ... عليَّ، وَمَعْرُوفى بها غيرُ مُنْكَرِ (١)

فأثبت لها فى اللفظ وصيداً، و إنمـا أراد ليس لها وصيد فيسد على.

و يتّصل بهذا قول الزبير بن عبدالمطلب يذكر عميلة بن السباق بن عبدالدار، وكان نديماً له وصاحباً:

صَبَحْتُ بهم طَلْقًا يَرَاحُ إلى الندى ... إذا ما انتشى لم تحتضره مفاقرُه

ضَعِيفًا بحثِّ الكأس قَبْضُ بنانِهِ ... كليلاً على وجهِ النديمِ أظافرُه

فظاهر كلامه أنه يَخْمِشُ وجه النديم، إلا أن أظفاره كَليلة، و إنما أراد فى الحقيقة أنه لا يظفر وجه النديم ولا يفعل شيئاً من ذلك، وكذلك قوله «لم تحتضره مفاقره» أى: ليس له مفاقر فتحتضره.

وقال أبو كبير الهذلى يصف هضبة:

وَعَلَوْتُ مُرْتَقباً (٢) على مَرْهُوبَةٍ ... حَصّاء لَيْسَ رقيبها فى مثمل

عيطاء مُعْنِقَة يكون أنيسها ... وُرْقَ الحمام جميمُها لم يؤكل

يريد أنه ليس بها جميم فيؤكل، يدل على ذلك قوله فى البيت الأول «حصّاء» وهى التى لا نبت فيها.

وقال أبو ذؤيب يصف فرساً:

متفلقٌ أنساؤها عن قانىء ... كالقرطِ صاوٍ غُبْرُهُ لا يُرْضَعُ

فلم يرد أن هناك بقية لبن لا يرضع، لـكن أراد أنها لا لبن لها فيرضع.

والشاهد على جميع ما قلته فى شرح هذه الأشياء ما جاء فى تفسير قول الله عز وجل:

---

(١) الوصيد فى الأصل: فناء الدار والبيت، ومنه قوله تعالى: (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) والأصيد لغة فيه حـكاها الفراء.

(٢) المرتقب: اسم المـكان من الارتقاب، وهو الصعود فى رأس جبل أو حصن، وضبطه فى اللسان على أنه اسم فاعل بكسر القاف، وهو وجه، والمثمل: الملجأ. والجميم: النبت الذى طال بعض الطول ولم يتم.

(لا يَسألونَ النّاسَ إلحافاً) قالوا : ليس يقع منهم سؤال فيقع إلحافا : أى هم لايسألون البتة .

المعيب من هذا الباب

والمعيب من هذا الباب قول كثير يرثى عزة صاحبته :

فَهَلاَّ وَقَاكِ الموتَ مَنْ أنتِ زَيْنُهُ ومَنْ هُوَ أسوا منك دَلاًّ وأقْبَحُ ؟

لأنه قد أوهم السامع أن لها دلا سيئاً ، ولـكن غيره أسوأ منه وأقبح ، فـكيف إن كان القبح راجعاً عليها لا على دلها ، وليس هـذا فى شىء من قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) لأن هذا لا إشكال فيه

(٦٥) — باب الاطراد

حده ومنزلته

ومن حسن الصنعة أن تطرد الأسماء من غير كلفة ، ولا حشو فارغ ؛ فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر ، وقلة كلفته ومبالاته بالشعر .

أمثلته

وذلك نحو قول الأعشى :

أَقَيْسَ بْنَ مَسْعُود بنِ قَيْسِ بنِ خَالِدٍ وأَنْتَ امْرُؤٌ ترجو شبابَك وائلُ

فأتى كالماء الجارى اطراداً وقلة كلفة ، و بين النسب حتى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة . .

ولما سمع عبد الملك بن مروان قول دريد بن الصمة :

قتلنا بعبد الله خيرَ لِدَاته ذُؤَابَ بنَ أسماءَ بنِ زيدِ بنِ قارب

قال كالمتعجب : لولا القافية لبلغ به آدم ، ورواه قوم « أبأت بعبد الله » .

وقال أبو تمام :

عبد المليك بن صالح بن علـــى بن قَسِيم النبى فى نَسَبِهْ

فهذا سهل العِنان ، خفيف على اللسان ، و إن كانت الياء فى «المليك» ضرورة وتـكلفاً .

وقال الحارث بن دوس الإيادى :

وَشَبَابٌ حَسَنٌ أَوْجُهُهُمْ   من إيادِ بنِ نزار بن مَعَد

فاطردت ثلاثة أسماء لا كلفة فيها .

وقال أبو تمام في قالب بيت الأعشى ، وإن نقص عنه اسما واحداً :

بنصر بن منصور بن بسام انفرى   لنا شَظَفُ الأيامِ عن عيشة رغد

فأما من أتى بأكثر من هذا ومن الأول فقد قال بعضهم :

من يكنْ رَامَ حاجةً بَعُدَتْ عَنْـــهُ وَأَعْيَتْ عليه كلَّ العَيَاء

فلها أحمدُ المرجَّى بنُ يحيي بْـــنِ معاذِ بنِ مسلمِ بنِ رَجاء

فجاء كلامه نَسَقاً واحداً ، إلاّ أنه قد شغل البيت وفصل بين الكلام بقوله « الْمُرَجَّى » غير أن مجانسة رجاء هَوَّنَتْ خطيئته وغفرت ذنبه .

وقال الطائي :

عمرو بن كلثوم بنِ مالك بن عَتَّـــاب بن سهم سهمكم لا يسهم

فخاطب بذلك بنى عمرو بن غنم التغلبيين ، وهم بنو عم مالك بن طَوْق ، فانتظم له ما أراد من الأسماء ، إلا أنه ظاهر التكلف ، وقال فأتى بستة :

مناسبٌ تحسب من ضوئها   منازلا للقمـــر الطالع

كالدلو والحوتِ وأشراطه   والبطن والنجم إلى البالع

نوح بن عمرو بن حوّى بن عمـــرٍ و بن حوّى بن الفتى مانع

فأحكم التصنيع وقابل ستة بستة ؛ لان الأشراط منزلة ، وإن جمعها ، إلا أن « الفتى » ههنا غَضَّة مع بَرْدلفظ ورَكَاكة ، ما أحسن أبا هؤلاء كلهم يقال له الفتى وإن كنا نعلم أنه لم يرد فتاء السن ، ولكن الفتوة .

وجاء أبو الطيب فجاءك بالتعسف فى قوله لسيف الدولة :

فأنت أبو الهيجا ابن حَمْدَان يا ابنه   تَشَابه مولودٌ كريم ووالدُ

وحمدان حمدونٌ وحمدون حارثٌ   وحارث لقمانٌ ولقمان راشـــد

فني هذا المعنى من التقصير أنه جاء به فى بيتين وأنه جعلهم أنياب الخلافة بقوله :

أولئك أنياب الخلافة كلها   وسائر أملاك البلاد الزوائد

وهم سبعة بالممدوح ، والأنياب فى المتعارف أربعة ، إلا أن تكون الخلافة تمساح نيل أو كلب بحر ؛ فإن أنياب كل واحد منهما ثمانية ، اللهم إلا أن يريد أن كل واحد منهم ناب الخلافة فى زمانه خاصة ؛ فإنه يصح ، وفيه من الزيادة على ما قبله أنه زاد واحداً فى العدد ، فإنه جعل كل ابن هو أبوه فى الخلافة إلى أن بلغ راشداً ، ولم يقصد إلى ذلك أحد من أصحابه ، وإنما مقت سعره هذا تكريره كل اسم مرتين فى بيت واحد ، وهى أربعة أسماء .

٦٦ — باب التضمين والإجازة

وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى العلم ولا حذق بالصناعة ، كجماعة ممن وسم فى بَلَدِنا بالمعرفة ، وينسب إليها مكذوبا عليه فيها ، كاذباً فيما ادعاه منها ، ولتعرفنهم فى لحن القول .

حد التضمين فأما التضمين فهو قَصْدُك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتى به فى آخر شعرك او فى وسطه كالمتمثل ، نحو قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب :

يا خاضبَ الشيبِ والأيامُ تظهره   هذا شبابٌ لعمرُ الله مصنوع

أذكرتَنِي قولَ ذى لُبٍّ وتجربةٍ   فى مثله لك تأديبٌ وتقريع

إن الجديدَ إذا ما زيد فى خَلَقٍ   تبين الناسُ أن الثوبَ مرقوعٍ

فهذا جيد فى بابه ، وأجود منه أن لو لم يكن بين البيت الأول والآخر واسطة ؛ لأن الشاعر قد دل بذلك على أنه متهم بالسَّرَقِ ، أو على أن هذا البيت غير مشهور ، وليس كذلك ، بل هو كالشمس اشتهاراً ، ولو أسقط البيت الأوسط

لكان تضميناً عجيباً؛ لأن ذكر الثوب قد أخرج الثانى من باب الأول إلا فى المعنى، وهذا عند الحُذَّاقِ أفضلُ التضمين، فإنما احتذى كشاجم قول ابن المعتز فى أبيات له :

ولا ذنب لى إن ساء ظنك بعدما وفَيْتُ لكم ، ربِّى بذلك عالم
وها أنا ذا مُسْتَعْتِبٌ متنصلٌ كما قال عباسٌ وأنفِىَ راغم:
تحمَّلْ عظيمَ الذنب ممن تحبه وإن كنتَ مظلوماً فقل : أنا ظالم

وأبيات العباس بن الأحنف التى منها البيت المضمن هى قوله :

وصبٍّ أصاب الحُبُّ سَوْدَاءَ قلبه فأنحله ، والحبُّ داءٌ ملازم
فقلتُ له إذ مات وجداً بحبه مَقَالةَ نُصْحٍ جانبتها المآثم:
تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنتَ مظلوماً فقل: أنا ظالم
فإنك إن لم تحمل الذنب فى الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

غير أن شيخنا أبا عبد الله روى هذه الأبيات أيضاً لابن المعتز .

فهذا النوع من التضمين جيد ، وهو الذى أردنا من قبل ؛ وأجود منه أن يصرف الشاعر المضمنُ وجهَ البيت المضمَّنِ عن معنى قائله إلى معناه ، نحو قول بعض المحدثين ، ونسبه قوم إلى ابن الرومى :

يا سائلى عن خالد ، عَهْدِى به رَطْب العِجَانِ وكفه كالجلمدِ
كالأقحوانِ غداةَ غبٍّ سمائه جَفَّتْ أعاليه وأسفلُه نَدِى

هكذا أعرفه ، وروى « عن جعفر » فصرفَ الشاعر قول النابغة فى صفة الثغر[1] :

---

(١) القادمة : ريشة فى مقدم الجناح ، وهى أربع قوادم ، أسف لثاته بالإثمد : أى : ذرت بالإثمد ، وكانوا نغرزون اللثة بالإبرة ثم يذرون عليها الإثمد ، والأقحوان : نبت له نواصٍ أصفر، وحواليه ورق أبيض ، شبه الأسنان ببياض ورقه.

تجلو بقادِمَتَىْ حمامةِ أيكةٍ ... بَرَداً أُسِفَّ لِثَاته بالإِثمدِ
كالأقحوانِ غداة غِبّ سمائه ... جفت أعاليه وأسفله ندِى

إلى معناه الذى أراد .

ومن هذا المعنى أيضًا قول ابن الرومى بلا محالة :

وسائلةٍ عَنِ الحسنِ بن وهبٍ ... وعما فيه من كرمٍ وخِيرِ
فقلتُ : هو المهذبُ غير أنى ... أراه كثير إرخاء الستور
وأكثر ما يُغَنِّيهِ فتاه ... حُسَيْنٌ حين يخلو بالسرير
فلولا الريحُ أُسمِعَ من بحُجْرٍ ... صَلِيلَ البيض تقرعُ بالذكور

فالبيت الأخير لمهلهل ، فجاء قرع البيض بالذكور ههنا عجيبًا ، وإن كانت اللفظتان فى المعنى غير اللفظتين .

ومن الشعراء من يضمن قسيما نحو قول بعضهم ، أظنه الصولى :

خُلِقتُ على باب الأمير كأننى ... قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
إذا جئتُ أشكو طولَ ضيقٍ وفاقة ... يقولون : لا تَهْلِكْ أسى وتجمل
ففاضتْ دموعُ العين من سوءِ رَدِّهم ... على النحر حتى بَلَّ دمعىَ محملى
لقد طال ترددى وقصدى إليكم ... فَهَلْ عند رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

ومنهم من يقلب البيت فيضمنه معكوسا ، نحو قول العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان لمسلمة بن عبد الملك :

لقد أنكرتنى إنكارَ خَوْفٍ ... يضم حشاك عن شتمى وذَحْلِي
كقولِ المرء عمرو فى القوافى ... لقيسٍ حين خالف كل عذل
عذيرَكَ من خليلك من مُرَادٍ ... أريد حياته ويريد قتلى

والبيت المضمن لعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، يقوله لابن أخته قيس ابن زهير بن هبيرة بن مكشوح المرادى ، وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة ، وحقيقته فى شعر عمرو :

أريد حياته ويريد قتلي عَذِيرَكَ من خليلكَ من مراد

وكان على بن أبي طالب رضى الله عنه إذا رأى ابن مُلْجَم تمثل بهذا البيت.

ومن التضمين ما يجمع فيه الشاعر قسمين من وزنين كقول على بن الجهم يُعَرِّضُ بفضل الشاعرة جارية المتوكل وبنان المغنى وكانا يتعاشقان فإذا غَنَّى بنان :

اسمعى أو خبرينا يا ديار الظاعنينا

غنت هى كالمجاوبة له عما يقول :

ألاَ حييتِ عَنّا يامدينا وهل بأسٌ بقول مسلمينا

فقال على منبهاً عليهما فى ذلك :

كلما غنّى بنانٌ اسمعى أو خبرينا

أنشدتْ فضل ألاَ حُيِّيتِ عنا يا مدينا

عارضَتْ مَغْنًى بمغنًى والندامى غافلونا

أحسنَتْ إذ لم تجاوِبْهُمْ ديارُ الظاعنينا

لو أجابتهم لَصِرْنَا آيةً للسائلينا

واستعاد الصوتَ مولا ها وحثَّ الشاربينا

قلتُ للمولى وقدْ دَا رَتْ حُمَيَّا الكاس فينا:

رُبَّ صَوْتٍ حسنٍ يُنْبِتُ فى الرأسِ قرونا

وأنشد ابن المعتز فى باب التضمين للأخطل :

ولَقدْ سما لِلْخُرَّمِىِّ فلم يقل يومَ الوغى لكن تضايقَ مُقْدَمِى

إشارة إلى قول عنترة العبسى :

إذ يَتّقونَ بىَ الأسنة لم أخِمْ عنهاولكنى تَضَايَقَ مُقْدَمِى

وهذا تضمين أنت ترى كيف هو ، وأنشد لآخر :

عَوَّذَ لمَّا بتُّ ضيفاً له أقْرَاصَه منِّى بياسِين

فبتُّ والأرضُ فِرَاشِي وقد غنَّتْ «قفانبك» مَصارِينى

ومن التضمين ما يحيل الشاعر فيه إحالة ، ويشير به إشارة ، فيأتى به كأنه نظم الأخبار أو شبيه به ، وذلك نحو قول بعضهم فى معنى قول ابن المعتز * كما قال عباس وأنفى راغم * إنه لم يرد الأبيات المقدم ذكرها ، وإنما أراد قوله للرشيد حين هجرته ماردة :

لا بد للعاشق من وَقفَةٍ تكونُ بين الوصلِ والصرم

حتى إذا الهجرُ تمادى به راجعَ من يهوى على رغم

فهذا النوع أبعد التضمينات كلها ، وأقلها وجوداً ، وذلك نحو قول أبى تمام :

لعمرٌو مع الرَّمْضَاء والنارُ تلتظى أرقُّ وأحْمَى منك فى ساعة الكرب

أراد البيتَ المضروبَ به المثلُ :

المستَجيرُ بعمرو عند كُرْبَتِهِ كالمستَجِيرِ من الرَّمْضاَء بالنارِ

وقد صنعتُ أنا فى معنى الهجاء :

عِرْسُهُ من غير ضير عرسُ زيد بن عمير

أبداً تَزْنِي فإن حاضَتْ تَقُدْ حبًا لأير

ولها رجلان من نا قَةِ كَعْبِ بن زهير

هكذا تبنى المعالى ليس إلاَّ كل خير

« زيد بن عمير » هو الذى يقول فى زوجته :

تقود إذا حاضت، وإن طَهُرَتْ زَنَتْ فَهِي أبداً يُزْنَى بها وتَقُودُ

و « كعب بن زهير » يقول فى وصف ناقته :

تهوى على يسرات وهى لاهية ذوابل وَقعُهُن الأرضَ تحليل

فكانت هذه المرأة فى حاليها لاتقع رجلاها بالأرض : إما لكثرة مباضعة أو شدة مشى فى فساد .

ومن أنواع التضمين تعليق القافية بأول البيت الذى بعدها ، وقد تقدم ذكره .

حد الإجازة وأنواعها

وأما الإجازة فإنها بناء الشاعر بيتا أو قسيما يزيده على ما قبله ، وربما أجاز بيتاً أو قسيماً بأبيات كثيرة ، فأما ما أجيز فيه قسيم بقسيم فقول بعضهم لأبى العتاهية : أجز :

* بَرَدَ للمـــاء وطابا *

فقال :

* حَبَّذَا المـــاء شرابا *

وأما ما أجيز فيه بيت ببيت فقول حسان بن ثابت وقد أرِقَ ذاتَ ليـلة فقال :

مَتَارِيك أذْنَابِ الأمورِ إذا اعترت ... أخذنا الفروع واجتنبنا أصولَهَا

وأحْبَل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجيز عنك ، فقال : أو عندك ذاك ؟ قالت : بلى ، قال : فافعلى ، فقالت :

مَقَاوِيل للمعروف خُرْسٌ عن الخنا ... كِرَامٌ يعاطون العشـــيرة سُولَهَا

قال : فحمى الشيخ عند ذاك ، فقال .

وقافية مثلِ السـنانِ ردفتها ... تناولتُ من جوِّ السماءِ نُزُولَهَا

فقالت ابنته :

يَرَاهَا الذى لاينطقُ الشعرُ عنده ... ويعجز عن أمثالها أن يقولهـا

وذكر أن العباس بن الأحنف دخـل على الذلفاء فقال : أجيزى عنى هذا البيت :

أهدى له أحْبَابُهُ أتْرجَّةً ... فبكى وأشفق من عيافة زاجرِ

فقالت غير مفـكرة :

خافَ التلوّنَ إذ أتته لأنها   لونان باطِنُها خلافُ الظاهرِ

فحلف لها بكل الأيمان ، وكانت تعزه ، لئن ظهر البيت إن دخلت منزلكم أبداً ، وأضافه إلى بيته .

وأما ما أجيز فيه قسيم بيت ببيت ونصف فقول الرشيد للشعراء : أجيزوا :

* الملكُ للهِ وَحْدَهْ *

[ف] قال الجماز :

* وللخليفة بَعْدَهْ *

وللمُحِبِّ إذا ما   حبيبُه بات عِنْدَهْ

واستجاز سيف الدولة أبا الطيب قول عباس بن الأحنف :

أمِنّى تخافُ انتشارَ الحديثِ   وحَظِّىَ فى سَتْرِهِ أوْفَرُ ؟

فصنع القصيدة المشهورة :

هواكَ هوايَ الذى أضمرُ   وسِرُّكَ سِرِّى فما أظهر

إلا أنه خرج فيها عن المقصد .

اشتقاق الإجازة

والإجازة فى هذا الموضع مشتقة المعنى من الإجازة فى السَّقْيِ ، يقال : أجاز فلان فلاناً ، إذا سقى له أو سقاه ، الشك منى ، وأما اللفظة فصحيحة فصيحة .

وقال ابن السكيت : يقال للذى يَرِدُ على أهل الماء فيستقى : مُسْتَجِيز ، قال القطامى :

وقالوا فُقَيْمٌ قَيِّمُ الماء فاستجز   عبادةَ ؛ إن المستجيزَ على قُتْرِ (١)

---

(١) قال شارح ديوانه : استجز : اطلب أن تسق إبلك ، يقال : أجزنا ، أى اسقنا ، ونجيزك : نسقيك . والجواز : الذى تشربه من ماء قوم ثم تمر . وعلى قتر : أى على خوف ، ويقال : على خطر وحذر من ألا يسقى .

ويجوز أن يكون من « أجزت عن فلان الكأس » إذا تركْتَهُ وسَقَيْتَ غيره ، فجازت عنه دون أن يشربها ، قال أبو نُوَاس :

وقلتُ لساقينا أجِزْنا فلم أكن ليأبَى أميرُ المؤمنين وأشربا
فَجَوَّزَهَا عنى عُقَاراً ترى لها إلى الشَّرَفِ الأعلى شُعَاعا مُطنبا

وقد تقدم ذكر الإجازة التى فيها عيوب القوافى ، وذكرت اشتقاقها .

التمليط

ومن هذا الباب نوع يسمى التمليط ، وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيما وهذا قسيما لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه ، وفى الحكاية أن امرأ القيس[1] قال للتوأم اليشكُرى : إن كنت شاعراً كما تقول فملط أنصاف ما أقول وأجزها ، قال : نعم ، قال امرؤ القيس :

* أحارِ تَرَى بُرَيْقاً هَبَّ وَهْنَا *

فقالَ التوأم : * كنارِ مجوسَ تستعر استعارا *

فقال امرؤ القيس : * أرقت له ونام أبو شريح *

فقال التوأم : * إذا ما قلت قَدْ هدَأ استطَارا *

ولا يزالان هكذا ، يصنع هذا قسيما وهذا قسيما إلى آخر الأبيات .

وقد تقدم[1] إنشادها فى باب أدب الشاعر من هذا الكتاب .

وربما ملّط الأبياتَ شعراءُ جماعةٌ ، كما يحكى أن أبا نواس والعباس بن الأحنف والحسين بن الضحاك الخليع ومُسْلم بن الوليد الصريع خرجوا فى متنزه لهم ومعهم يحيى بن المعلى ، فقام يصلى بهم ، فنسى الحمد وقرأ (قل هوَ الله أحدٌ) فأُرْتِجَ عليه فى نصفها ، فقال أبو نواس : أجيزوا :

أكثر يحيى غَلَطاً فى قل هو الله أحَدْ

---

(١) انظر الجزء الأول (ص ٢٠٢) .

فقال عباس :

قام طويلا ساهيا حتى إذا أعْيا سجدْ

فقال مسلم بن الوليد :

يَزْحَرُ فى محرابه زَحِيرَ حُبْلَى بِوَلَدْ

فقال الخليع :

كأنمـــا لسانُهُ شُدَّ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَدْ

وأنشدنى بعض أصحابنا هذه الأبيات على طريق الاستملاح لها والاستظراف بها ، وقال : هذا الذى يعجز الناس عنه ، فقلت : فما بال عباس وأبى نواس لم يقولا بعد البيت الأول :

وَنَسِىَ الحمــدَ فما مَرَّتْ له على خَلَدْ

ولا سيما وقد كان ذلك حقيقة ، وكذلك جَرَتِ الحكاية ، فقال : ولمن البيت ؟ فقلت : لابن وقته .

اشتقاق التمليط

واشتقاق التمليط من أحد شيئين : أولها أن يكون من المِلاطَيْنِ ، وهما جانبا السنام فى مرد الكتفين ، قال جرير :

ظللن حَوَالَىْ خِدْرِ أسماء ، وانتحى بأسماء مَوَّارُ المِلاَطَيْن أرْوَحُ

فكأن كل قسيم مِلاَطٌ ، أى : جانبٌ من البيت ، وهما عند ابن السكيت العضدان . والآخر ــ وهو الأجود ــ أن يكون اشتقاقه من الملاط وهو الطين يدخل فى البناء تملط به الحائط مَلْطاً ، أى : يدخل بين اللبِنِ حتى يصير شيئاً واحداً . وأما المِلطُ ــ وهو الذى لا يبالى ما صنع ــ والأملط الذى لا شَعْرَ عليه فى جسده ؛ فليس لاشتقاقه منهما وَجْه .

(٦٧) — باب الاتساع

حد الاتساع وسببه

وذلك أن يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل ؛ فيأتى كل واحد بمعنى ، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ ، وقوته ، واتساع المعنى .

أمثلته

من ذلك قول امرىءالقيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر ، ويحسن مقبلا مدبرا ، ثم قال « معاً » أى : جميعُ ذلك فيه ، وشبهه فى سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطه السيلُ من أعلى الجبل ؛ فإذا انحط من عال كان شديد السرعة ، فكيف إذا أعانته قوة السيل من ورائه ؟ ؟

وذهب قوم — منهم عبد الكريم — إلى أن معنى قوله * كجلمود صخر حطه السَّيْلُ من عَلِ * إنما هو الصلابة ؛ لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والريح كان أصلب .

وقال بعضُ مَنْ فسره من المحدَثِينَ : إنما أراد الإفراط ، فزعم أنه يرى مقبلا ومدبرا فى حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته ، واعترض على نفسه ، واحتج بما يوجد عياناً ؛ فمثله بالجلمود المنحدر من قُنَّةِ الجبل ، فإنك ترى ظهره فى النصبة على الحال التى ترى فيها بطنه وهو مقبل إليك ، ولعل هـذا ما مر قط ببال امرىء القيس ، ولا خَطَرَ فى وَهْمه ، ولا وقع فى خَلَدِه ، ولا رُوعِهِ .

ومثله قول أبى نواس :

* ألا فَاسقِنِى خمراً وقل لى هى الخمر *

فزعم مَنْ فسره أنه إنما قال « وقل لى هى الخمر » ليلتذ السمعُ بذكرها كما التذت العينُ برؤيتها ، والأنفُ بشمها ، واليدُ بلمسها ، والفمُ بذوقها ، وأبو نواس ما أظنه ذهب هذا المذهب ، ولا سلك هذا الشعب ، ولا أراه

أراد إلا الخَلاَعة والعَبَث الذى بنى عليه القصيدة ، ودليلُ ذلك أنه قال فى تمام البيت :

* وَلاَ تَسْقِنِى سِرًّا إذا أمكن الجهر *

ويروى « فقد أمكن الجهر » فذهب إلى المجاهرة ، وقلة المبالاة بالناس ، والمداراة لهم فى شرب الخمر بعينها التى لا اختلاف بين المسلمين فيها .

وقد ثبت أن المأمون ذم أخاه الأمين على المنابر ، وذكر فى مذامه أنه صحب شاعراً من أمره ومن قصته أنه يجاهر بالمعاصى ، ويقول فى قصيدة أولها كذا وأنشد البيت :

فَبِتْنَا يرانا اللهُ شَرَّ عصابةٍ نجر[1] بأذيالِ الفسوقِ ولا فخرُ

ومثل ذلك قول المفضل الضبي بين يدى الرشيد والكسائى حاضر فى معنى قول الفرزدق :

أَخَذْنا بآفاق السَّماء عَلَيْكُمُ لنا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالعُ

وقد سأل الأمين والمأمون : ما معناه ؟ فقالا : معناه فى قوله « قمراها » تغليب المستعمل عندهم ؛ لأن القمر أكثر استعمالا عند العرب من الشمس ، وكذلك قولهم « العمران » لما كان عُمَرُ أطول أياماً وأكثر تأثيراً ، فقال الرشيد : هكذا أخبرنا هذا الشيخ ، وأشار إلى الكسائى ، فقال المفضل : بل مراده بالقمرين جَدَّاكَ إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما ، وبالنجوم الطوالع أنت وآباؤك الطيبون ، فأعجب الرشيد بذلك ووَصَله ، والفرزدق ما قصد إلى شيء من ذلك [و] لا أراده ، ولا علم أن الرشيد بعده يكون أمير المؤمنين ، وإنما أراد أن كل مشهورٍ فاضلٍ فهو لنا عليكم ، ومنا لا منكم ، فنحن أشرف

(١) يروى * نجرر أذيال . . . .

بيتا ، وأظهر فضلا ، وأبعد صوتاً ؛ إلا أن التى جاء بها المفضل مُلْحَة أفادت مالا .

و يتعلق بهذا قول أبى الطيب يذكر الروم :

وَقَدْ بَرَدَتْ فَوْقَ اللُّقَانِ دِمَاؤُهُمْ ونحن أناسٌ نُتْبِعُ البارد السُّخنا(١)

أراد أنَّا نُتْبِع البارد من الدماء سخنا ، كأنه يتوعدهم بقتل آخر ، فيكون قد أخذه من قول سُوَيْد بن كراع ـ وهى أمه ـ يصف كلاباً وثوراً :

فهزَّ عليه الموتُ والموتُ دُونه على رَوْقِهِ منه مُذَابٌ وجَامِدُ(٢)

وقال الأصمعى : يعنى بالمذاب الحار ، وبالجامد البارد ، ويجوز أن يكون أبو الطيب أراد: ونحن أناس نتبع البارد من الطعام سخنا ، وكذلك أيضاً عادتنا فى الدماء ؛ فيكون قد فرع .

وزعم قوم فى قوله يشفع لبنى كلاب إلى سيف الدولة :

وتملكُ أنفسَ الثقلين طراً فكيف تحوزُ أنفُسَها كلاب

أنه لم يرد القبيلة ، وإنما أراد أن يجعلهم كلاباً على باب التحقير لقدرهم ، والتلطف لهم ، كما جعلهم فى البيت الأول ذئاباً سُرَّاقاً ، ولا أظن ذلك ، بل لا أحققه ؛ لأن فى القصيدة :

ولو غيرُ الأمير غزا كلاباً ثَنَاهُ عَنْ شموسهم ضَبَابُ

---

(١) اللقان : موضع ببلاد الروم . يريد أن دماء الروم التى أسالها سيف الدولة باللقان قد بردت ، وأراد بهذا الكناية عن تقادم عهده بغزوهم ، ثم ذكر أن عادته إتباع البارد من الدماء بالساخن

(٢) روقه : قرنه .

ولاقى دونَ ثأيهم طِعــانا يُلاقى عِنْدَهَا الذِّئبَ الغُرابُ(١)

إلا أن يحملوا على الشاعر التناقض ، وينسبوه إلى قلة التحصيل ؛ فذلك إليهم، على أن هذه القصيدة قليلة التظير فى شعره : تناسباً ، وطبعاً ، وصنعة ، ومثلها الرائية فى وزنها وذكر القصة بعينها .

(٦٨) — باب الاشتراك

أنواع الاشتراك

وهو أنواع : منها ما يكون فى اللفظ ، ومنها مايكون فى المعنى ؛ فالذى يكون فى اللفظ ثلاثة أشياء : فأحدها : أن يكون اللفظان راجعين إلى حد واحد ومأخوذين من حد واحد ، فذلك اشتراك محمود ، وهو التجنيس ، وقد تقدم القول فيه ، والنوع الثانى : أن يكون اللفظ يحتمل تأويلين أحدهما يلائم المعنى الذى أنت فيه والآخر لا يلائمه ولا دليل فيه على المراد ، كقول الفرزدق :

وَمَا مِثْلُهُ فِى النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً أبُو أُمِّهِ حَىٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

فقوله « حى » يحتمل القبيلة ، ويحتمل الواحدَ الحىّ ، وهــذا الاشتراك مذموم قبيح ، والمليح [الذى] يحفظ لـكُثير فى قوله يشبب :

لعمرى لقد حَبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ إلىَّ ، ومَا تَدْرِى بِذَاكِ الْقَصَائرُ

(١) الثأى : جمع ثأية ، كراى وراية ، وهى حجارة تجعل حول البيوت يأوى إليها الراعى ليلا وفيها مبارك الإبل ومرابض الغنم . يقول : لو غزا كلابا غير الأمير لثناه ضباب عن شموسهم ، وكأنه يريد وصفهم بالقوة وشدة الذود عن حياضهم ، ولوجد دون وصوله إلى بيوتهم حربا عوانا يتفانى فيها جيشه حتى يجتمع على جثث صرعاه الوحوش وهى المراد بالذئاب والطيور وهى المعبر عنها بالغراب؛ فأما الوحوش فتأكل عظامهم وأما الطيور فتأكل لحومهم كما قال عنترة :

لى النفوس ، وللطير اللحوم ، وللوحش العظام ، وللخيالة السلب

عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجالِ ولم أُرِدْ قِصَارَ الخُطا؛شرُّ النِّساءِالبَحاتِرُ

فأنت ترى فطنته لما أحسَّ باشتراكِ كيف نفاه ، وأعرب عن معناه الذى نحا إليه .

ومن نوع قول الفرزدق قول كشاجم يذكر الميدان :

عَمَرْتُهُ بِفِتْيَةٍ صِبَاحِ سُمْحٍ ، بأَعْرَاضِهِمْ شِحَاحِ

فنحن نعلم أنه أراد سمحٍ شحاحٍ بأعراضهم ، ولكن فيه من اللبس ماهو أولى من التأويل .

والنوع الثالث ليس من هذا فى شىء ، وهو سائر الألفاظ المبتذلة للتكلم بها ، لا يسمى تناولها سرقة ، ولاتداولها اتباعاً ؛ لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر ، فهى مباحة غير محظورة ، إلا أن تدخلها استعارة ، أو تصحبها قرينة تُحْدِثُ فيهامعنى ، أو تفيد فائدة ، فهناك يتميز الناس ، ويسقط اسم الاشتراك الذى يقوم به العذر ، ولو غيرت اللفظة وأتِيَ بما يقوم مقامها كقول ابن أحمر :

بمقلّصٍ دَرَكِ الطريدَةِ ، مَتْنُهُ كَصفَا الخَلِيقَةِ بالفَضاء المُلْبِدِ[1]

فقوله « دَرَكُ الطريدة » وقول الأسود بن يَعْفُر :

بمقلّصٍ عَتِدٍ جَهِيرٍ شَدُّهُ قَيْدِ الأوابد والرهان جَوَادِ[2]

---

(١) قال فى اللسان : « وصخرة خلقاء بينه الخلق : ليس فيها وصم ولا كسر وأنشد البيت » اهـ .

(٢) فرس عتد ــ بكسر التاء المثناة أو فتحها ــ شديد تام الخلق سريع الوثبة معد للجرى ليس فيه اضطراب ولا رخاوة .

جميعاً كقول امرىء القيس : * بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ *

وكذلك قول أبي الطيب : * أُجَلِ الظَّلِيمِ ورِبقَةَ السِّرْحَانِ *

فأما ما ناسب قول الأبيرد اليربوعي يرثى أخاه :

وَقَدْ كُنْتُ أستعفى الإلهَ إذا اشتكى   من الأجرِ لي فيه ، وإن عَظُمَ الأجْرُ

وقول أبى نواس فى صفة الخمر :

تَرَى الْعَيْنَ تَسْتَعْفِيكَ مِنْ لمعانها   وتحسِر حتى ما تُقِلُّ جُفُونَها

فهو من المشترك الذى لا يعد سرقة .

وقد نص عليه القاضى الجرجانى أنه من المنقول المتداول المبتذل .

الاشتراك فى المعانى وأنواعه

وأما الاشتراك فى المعانى فنوعان : أحدهما : أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما ، فيتباعد اللفظان ، وذلك هو الجيد المستحسن ، نحو قول امرىء القيس :

كبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضَ بِصُفْرَةٍ   غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاء غَيْرَ محلل(١)

وقول غيلان ذى الرمة :

نَجْلاَءُ فِي بَرَجٍ صَفْرَاءُ فِي نَعَجٍ   كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ(٢)

فوصفا(٣) جميعاً لوناً بعينه : فشبهه الأول بلون بيضة النعام ، وشبهه الثانى بلون

(١) البكر : أول بيض النعامة ، والمقاناة : المخالطة ، يقال : مايقانينى خلق فلان ، أى : ما يشاكل خلقى ويخالط نفسى ، والبياض : مفعول للمقاناة ، ونائب الفاعل ــ وهو المفعول الأول ــ ضمير مستتر ، والنمير من الماء : الذى ينجع فى الشاربة وإن لم يكن عذبا ، وغير محلل : لم يحلل عليه فيكدر .

(٢) رواية الديوان « كحلاء فى دعج » وقد سبقت المؤلف « كحلاء فى برج » وذلك فى (ص ٢٩) من هذا الجزء .

(٣) فى المطبوعتين « فوصفها » وليس بشىء .

الفضة قد خالطها الذهب يسيراً ولذلك قال «قد مسها»

ونحو قول عَبْدَةَ بن الطبيب يصف ثوراً وحشياً :

مُجْتَابُ نِصْعٍ جَدِيدٍ فَوْقَ نُقْبَتِهِ ... وَفِي الْقَوَائِمِ مِنْ خَالٍ سَرَاوِيلُ(١)

وقال الطِّرِمَّاح يصف ظَلِيا :

مُجْتَابُ شَمْلَةِ بُرْجُدٍ لِسَرَاتِهِ ... قَدْراً فَأَسْلَمَ مَا سِوَاهُ الْبُرْجُدُ(٢)

فوصف الأول بياض الثور وسَوَادَ قوائمه وتخطيطها فشبه ظهره كأن عليه نِصْعاً جديداً ، وهو الثوب الأبيض ، وشبه ما فى قوائمه من السواد والتخطيط بسراويل من الخال ، وهو ضرب من الوَشْيِ .

وقال الثانى : إنه مجتاب شملة برجد ، يريد ماعلى الظَّليم من قرونه ، والبرجد: كساء أسود مُخَمَّل ، وجعل الشملة قدراً لسَرَاته دون رجليه وعنقه ؛ فدل على بياضهن

وقال عنترة :

صَعْلٍ يَعُودُ بِذِى الْعُشَيْرَةِ بَيْضَهُ ... كَالْعَبْدِ ذِى الْفَرْوِ الطَّوِيلِ الأَصْلَمِ(٣)

---

(١) نصع ـ بكسر فسكون ـ ضرب من الثياب شديد البياض ، وعم بعضهم به كل جلد أبيض أوثوب أبيض ، قاله فى اللسان .

(٢) انظر (ج١ ص٢٩١و٢٩٨) من هذا الكتاب ، وقول المؤلف « وجعل الشمله قدراً لسراته » يدل على أنه بالراء المهملة من المقدار ، وقد فسرناه هناك على أنه قدد بدالين ، وهـذا الذى ذكرناه هناك رواية الأغانى ، وهى أولى .

(٣) الصعل : الصغير الرأس الدقيق العنق ، يعود : يأتى إلى بيضه ، كما تقول : عدت المريض . وذو العشيرة : موضع ، والأصلم : المقطوع الأذنين ، والظلمان كلها لا آذان لهـا ، قاله الخطيب ؛ وانظره مع كلام المؤلف .

فشبهه بعبد طويل عليه فرو أصلم ، أى : قصير الذيول ، وإنما خص الفرو لأنهم كانوا يلبسونه مقلوباً ، وجعله عبداً لبياض ساقيه وعنقه وإشرابهما الحمرة يعنى صفات الروم ، ولم تكن العبيد فى ذلك الوقت إلا بيضاً ؛ فهذا اشتراك فى وصف الظهر والقوائم واختلاف فى اللفظ والعبارة .

والنوع الثانى على ضربين : أحدهما : ما يوجد فى الطِّباع من تشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والحسن بالشمس والقمر ، والشجاع بالأسد وما شابهه ، والسخىّ بالغيث والبحر ، والعزيمة بالسيف والسيل ، ونحو ذلك ؛ لأن الناس كلهم ــ الفصيحَ والأعجم والناطقَ والأبكم ــ فيه سواء ؛ لأنا نجده مركبا فى الخليقة أولاً .

والآخر ضرب كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخراً عن أول ، نحو قولهم فى صفة الخد « كالورد » وفى القد « كالغصن » وفى العين « كعين المَهَاة من الوحش » وفى العنق « كعنق الظبى ، وكإبريق الفضة أو الذهب » فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعاً ، ثم تساوى الناس فيه ، إلا أن يولِّدَ أحدٌ منهم فيه زيادة ، أو يخصه بقرينة ؛ فيستوجب بها الانفراد من بينهم ، ومثل ذلك تشبيه العزم بهبوب الريح ، والذكاء بشُوَاظ النار ، وسيرد عليك من قوافى باب السرقات وما ناسبها كثير ، إن شاء الله تعالى .

(٦٩) ــ باب التغاير

حد التغاير وسببه

وهو أن يتضاد المذهبان فى المعنى حتى يتقاوما ، ثم يصحا جميعاً ، وذلك من افتنان الشعراء وتصرفهم وغَوْص أفكارهم .

أمثلة من التغاير

من ذلك قول بعض العرب المتقدمين يذكر قوماً بأنهم لا يأخذون إلا القَوَدَ دون الدِّية :

لاَ يَشرَبُونَ دِمَاءَهُمْ بِأَكُفِّهِمْ   إِنّ الدماء الشافياتِ تُكَالُ

وقال آخر وقد أخذ بثأره إلا أنه فيما زعم قَتل دون من قُتل له ، ويروى لامرأة حارثية :

فيقتل خير بامرئ لم يكن له بَوَاءٍ ، ولكن لا تَكَايُلَ بالدم

ويروى « فى فتى لم يكن له وفاء » فالأول يقول : لا آخذ بالدم لبناً ، لكن آخذ دما بقدره ، فكان ذلك مكايلة ، والثانى يزعم أن قتيله قليلُ المثلِ والنظير ، فتى لم يقتل به إلا نظيره بَعْدَ انتقامه ، وعَسُرَ إدراكه الثأرَ فقال : إن الدماء ليست مما يكايل به فى الحقيقة ، وقيل : إنما يعنى بذلك أن الإسلام لما جاء أزال المكايلة بالدم ؛ فكانوا لا يقتلون بالرئيس إلا رئيساً مثله .

ومن هذا الباب قولُ أبى تمام فى التكرم يفضله على الكرم المطبوع :

قَدْ بَلَوْنَا أبا سَعِيدٍ حَدِيثاً وبَلونا أبا سَعِيدٍ قديماً
وَوردناه سَائحاً وقليباً وَرَعَيْناه بَارِضاً وَجميماً [(١)]
فعلمنا أنْ ليس إلاّ بشِقِّ النَّفْسِ صارَ الكَرِيمُ يُدْعى كَرِيماً

وقال أبو الطيب فى خلافه :

لوْ كَفَرَ العَالَمُونَ نِعْمَتَهُ لَمَا عَدَتْ نَفْسُه سَجَايَاهَا
كالشَّمْسِ لا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ تَكْرِمَةً عِنْدَهُمْ وَلاَ جَاهَا

وإلى هذا المذهب نحا السيد أبو الحسن فى قوله :

جَبْرُ الكَسِيرِ إذَا يُهَاضُ جَنَاحُه لجأُ المُطَرَّدِ مُسْتَغَاثُ المُمْلِقِ

(١) أراد بالسائح : النهر ، والقليب : البئر . والبارض : أول ما يظهر من نبت الأرض ، وقيل : هو أول ما يعرف من النبات وتتناوله النعم ، وقال الأصمعى : أول ما يظهر من البهمى بارض ؛ فإذا تحرك قليلا فهو جميم .

جَمَعَ الفضائلَ والمحامدَ والعُلاَ خُلُقٌ لعمرُ أبيكَ غيرُ تخلُّقِ

وأصلُ معنى قول أبى الطيب من قول بشار :

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجاءِ وَلِلْخَوْ فِ وَلَـكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ العطاء

وقال البحترى فى نحو ذلك :

لا يتعبُ النائلُ المبْذُولُ هِمَّتَهُ وَكَيْفَ يُتْعِبُ عَيْنَ النَّاظِرِ النَّظَرُ؟!

وكان أبو الطيب لقدرته واتساعه فى المعانى كثيراً ما يخالف الشعراء ويغاير مذاهبهم ، ألا ترى إلى قول على بن العباس النوبختى — وهو فى رواية الجرجانى لابن الرومى — يصف القلم ويفضله على السيف ، وكتب بذلك إلى على بن مقلة فى قصيدة :

إنْ يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الذى خَضَعتْ لهُ الرقابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الأُمَمُ

كذَا قضى اللهُ للأقلامِ مذ بُرِيَتْ أنّ السُّيُوفَ لها مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

فالموتُ — والمَوْتُ لا شَىْءٌ يُعادِلُهُ — مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِى بِهِ القَلَمُ

وهذا كلام مُتْقَن البنية ، صحيح المعنى ، لا مَطْعَن فيه ، فجاء أبو الطيب فخالفه وذهب مذهباً آخر يشهد بصحته العيانُ ، ويصححه البرهان ، فقال :

حتّى رَجَعْتُ وأقْلاَمِى قَوَائِلُ لى : المجدُ للسيفِ ليسَ المجدُ للقلمِ

اكتب بذا أبداً قبل الـكتاب بها(١) فإنما نحنُ للأسيافِ كالخدمِ

ومن التغاير قول الفرزدق يصف إبله ويفخر :

ألم تَسْمَعَا يا ابْنَىْ حَكيمٍ حنينَها إلى السَّيْفِ تَسْتَبْكى إذا لم تعقر

(١) بذا : اسم الإشارة عائد إلى السيف ، بها : الضمير عائد إلى الأقلام . ورواية الديوان * اكتب بنا أبدا بعد الـكتاب به * وهى التى تتفق مع البيت السابق (انظر الديوان : ج ٢ ص ٤١٣) .

فجعلها إذا لم تعقر حنت إلى السيف واستبكت ؛ لكثرة عادتها ، وهذا غُلُو مُفْرِط ، وكان فى مكان آخر يصفها بالجزع إذا رأت الضيف لعلها أنها تنحر له :

تَرَى النِّيبَ مِنْ ضَيْفِي إذَا مَا رَأَيْنَهُ ضُمُوراً عَلى جِرَّاتِهَا مَا تُجِيزُهَا

فزعم أنها تخفى حِسَّها حتى إنها لا تجتر خوفا من النحر ، وهذا المعنى مأخوذ من بيتين مُدح بهما النبى صلى الله عليه وسلم ، وهما :

وأبيكَ حَقًّا إنَّ إبْلَ مُحَمَّدٍ عُزْلٌ نَوائحُ أنْ تَهُبَّ شمالُ

وإذا رأَيْنَ لدى الفِناء غَرِيبةً فَدُمُوعُهنَّ على الخدودِ سِجَالُ(١)

يقول : إذا هبت الشَّمالُ — وهى من رياح الشتاء ، وعلامات المَحْل — أيقنَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحرهن للضيفان والجيران ؛ فهى نوائح لذلك ، وقوله * وإذا رأَيْنَ لدى الفناء غريبة * أى : يعرفن بذلك أنها ناقة ضيف فتُذْرِى كلٌّ واحدة دمعهَا ، لاتدرى هل هى المنحورة ، وهذا من مليح الشعر ولطيف المدح ، وقَلَّ كل مديح لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن مليح التغاير قولُ أبى الشِّيصِ :

أجدُ الملامةَ فى هَوَاكِ لذيذةً حُبًّا لِذِكْرِكِ ؛ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

وقول أبى الطيب فى عكس هذا :

أأحبه وأحبُّ فيه ملامةً ؟ إن الملامةَ فيه من أعدائه

وهذا عند الجرجانى هو النظر والملاحظة ، وهو يعده فى باب السرقات،قال : وأصله من قول أبى نُوَاس :

إذا غَادَيْتَنِى بِصَبُوحِ عَذْلٍ فَمَمْزُوجاً بِتَسْمِيَةِ الحبيبِ

ولأبى العلاء المعرى مثله من غير التزام :

(١) غريبة : أرادناقةغريبة كماقال المؤلف ، أوطائفة ، أونسمة ، أوماأشبه ذلك.

لم يَبقَ غَـيْرُ المذْلِ من أسبابهم ... فأَحَبُّ من يدنو إلىَّ عَذُولُ
يغدو فلا مُسْتَخْبِرٌ عن حالهم ... غَـيْرِى ، ولا مُسْتَخْبَرٌ مســئول

(٧٠) — باب فى التصرف ، ونَقْد الشعر

متى يحوز الشاعر قصب السبق ؟

يجب للشاعر أن يكون متصرفاً فى أنواع الشعر : من جد وهَزْل ، وحلو وجَزْل ، وأن لا يكون فى النسيب أبرع منه فى الرثاء ، ولا فى المديح أنفذ منه فى الهجاء ، ولا فى الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ، ولا فى واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً فى سائرها ؛ فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم ، وحاز قَصَبَ السَّبْقِ ، كما حازها بشار بن برد ، وأبو نواس بعده .

موازنة بين مسلم وأبى نواس

حكى الصاحب بن عباد فى صدر رسالة صنعها على أبى الطيب ، قال: حدثنى محمد بن يوسف الحمادى ، قال : حضرت بمجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحترى ، فقال : يا أبا عُبَادة ، أَمُسْلم أشعر أم أبو نُوَاس ؟ فقال : بل أبو نواس ؛ لأنه يتصرف فى كل طريق ، ويبرع فى كل مذهب : إن شاء جدّ ، وإن شاء هَزَلَ ، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه فقال له عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا ، فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ؛ فإنما يعرف الشعر من دُفع إلى مَضايقه ، فقال : وَرِيَتْ بك زِنَادى يا أبا عُبَادة ، إن حكمك فى عميك أبى نواس ومسلم وافق حكم أبى نواس فى عميه جرير والفرزدق ؛ فإنه سئل عنهما ففضل جريراً ، فقيل : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة ؛ فإنما يعرفه من دفع إلى مَضَايق الشعر ، وقد خالف البحترى أبا نواس فى الحكم بين جرير والفرزدق ، فقدم الفرزدق ، قيل له : كيف تقدمه وجرير أشبه طبعاً بك منه ؟ فقال : إنما يزعم هذا من لا علم له بالشعر ، جرير

وبين جرير والفرزدق

لا يعدو فى هجائه الفرزدقَ ذِكْرَ القين وجعثن وقتل الزبير، والفرزدق يرميه فى كل قصيدة بآبدة ، حكى ذلك غير واحد من المؤلفين .

فإذا كان هذا فقد حكم له بالتصرف ، وبهذا أقول أنا ، وإياه أعتقد فيهما، وإذا لم يكن شعر الشاعر نمطاً واحداً لم يمله السامع ، حتى إن حبيباً ادعى ذلك لنفسه فى القصيدة الواحدة فقال :

الجِدُّ والهزْلُ فى تَوْشِيعِ لُحْمَتِهَا
والنبلُ والسخفُ، والأشْجَانوالطربُ[1]

وقد قال إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية :

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذ كانت مُصَرَّفَةً إلاَّ التَّصَرُّفُ مِنْ حال إلى حالِ

ليحيى المنجم فى نقد الشعر

وأنشد الصاحب لأبى أحمد يحيى بن على المنجِّم فى نقد الشعر :

رُبَّ شِعْرٍ نَقَدْتُه مثل مَا يَنْـــقُدُ رَأْسُ الصَّيَارِفِ الدِّينَارَا
ثم أرسلته فكانت معانيـــه وألفاظه مَعاً أبكارا
لو تأتَّى لِقَالةِ الشِّعر مَا أسـقطُ منه حَلَوْا به الأشـعارا
إنَّ خيرَ الكلام مايستعيرُ النَّــاسُ منه ولم يكن مُسْتَعارا

من عنده علم الشعر

وقال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلَّقَ بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب : كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات .

قال الصاحب على أثر هذه الحكاية : فلله أبو عثمان ، فلقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرقَّ من السحر.

(١) قال الآمدى : قوله « الجد والهزل فى توشيع لحمتها » بيت فى غاية الحمق ، ومن يمدح وزيرا ، فلم يضمن قصيدته الهزل والسخف ؟ وإن كان هناك مايدل على هذا فلم نبه عليه واعترف به ؟ اهـ ، والتوشيع : من قولهم « وشعت البرد » إذا جعلت فيه ألوانا وطرائق .

وسأذكر بعد هذا الباب قطعة من أشعار الكتاب يظهر فيها مرماهم ، ويستدل بها على مغزاهم ، ويعرف حسن اختيار الجاحظ فيما ذهب إليه من تفضيلهم ، ويشهد لى بجودة المَيز ، وفَرْط التثبت والإنصاف ، إن شاء الله تعالى .

(٧١) — باب فى أشعار الكتاب

والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلاهم ألفاظاً ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف .

من شعر إبراهيم الصولى

وقد قيل : الكتاب دَهَاقِينُ الكلام[1] ، وما تزيدك على قول إبراهيم ابن العباس الصولى بين يدى المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر فقال ارتجالا :

صدٌّ عنى وَصَدَّقَ الأقوالاَ وأطاعَ الْوُشَاةَ والعُذَّالاَ
أتراه يكون شَهْرَ صُدُودٍ وعَلَى وَجْهِهِ رأيْتُ الْهِلاَلاَ

فطرب له المتوكل واهتز ووَصَله ، وخلع عليه وحمله ، وجدد له ولاية . وقيل له فى التلطف والاستعطاف أكثر من هذا ، وأى مدح أبرع وأبدع من قوله فى الفضل بن سهل :

لفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تقَاصَرَ عنهـا المثل
فباطنها للنـــدى وظاهرُها للقُبَلْ
* ونائلها للغنى وسَطْوتُهَا لِلأَجَلْ

أليس هذا الماء الزلال ، والسحر الحلال ؟ ؟

ولقد أجاد ابن الرومى فى تناوله هذا المعنى حين قال :

مُقَبَّلُ ظَهْرِ الكَفِّ ، وَهَّابُ بطنها لهُ رَاحَةٌ فيهـا الحَطِيمُ وزَمْزَمُ

(١) الدهاقين : جمع دهقان ــ بكسر فسكون ــ وهو التاجر البارع ، وقال الشاعر :
إنمـا الدلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان

فظاهرُها للناس رُكْنٌ مُقَبَّلٌ وباطنها عَيْنٌ من الجود عَيْلَمُ(١)

إلا أن الأول أخف وزناً ، وأرشق لفظاً ومعنى . وهذان البيتان — وإن كانت فيهما زيادة — فإنما هما بإزاء البيت الأوسط من أبيات إبراهيم فقط . .

ومن تغزل إبراهيم قوله :

أراكَ فلا أردُّ الطرفَ كَيْلاَ يكون حجابَ رؤيتك الجفونُ

ولو أنى نظرتُ بكل عين لما استقصت محاسنَك العيونُ

فهذا وأبيك البيان ، والخبر الذى كأنه العيان .

وما أجد كل حلاوة وحسن طلاوة ، إلا دون قوا[ه] :

ابتداء بالتجنى واقتضاء بالتظنى

واشتفاء بتجنيـــك لأعدائك منى

بأبى قل لى لكى أعـــلم لِمْ أعرضتَ عنى

قد تمنى ذاك أعدا ئى ، فقد نالوا التمنى

وأما الهجاء فقد بلغ فيه أبعد الغايات بقوله فى محمد بن عبد الملك الزيات :

فكن كيفَ شئتَ وقلْ ماتشاء وأرْعِدْ يميناً وأبْرِقْ شمالاَ

نجا بكَ لؤمكَ مَنْجَى الذباب حَمَتْـــهُ مقاذيره أن ينالا(٢)

من شعر ابن الزيات

ومن شعر محمد بن عبد الملك الزيات قوله لأحمد بن أبى دؤاد ، وقد أمر الواثق أن يقوم جميعُ الناس لابن الزيات ، ولم يجعل فى ذلك رخصة لأحد ، وكان ابن أبى دؤاد يشتغل بصلاة الضحى إذا أحسّ بقدومه أنفةً من القيام إليه فى دار السلطان ، وامتثالا للأمر ، فصنع ابن الزيات :

صَلّى الضحى لمـا استفاد عداوتى وأراه ينسكُ بعدَهَا ويَصُومُ

لاتعدِ مَنْ عـــداوةً مشئومةً تركتكَ تقعـدُ تارةً وتقومُ

ومن تغزله قوله ، وهو فى غاية العذوبة :

(١) عيلم — بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة — أصله البحر والماء الكثير ، والبئر الكثيرة الماء .

(٢) فى كثير من الأصول « حمته مقاذره أن ينالا » بدون ياء .

قام بقلبى وَقَعَدْ لما نَفَى عَنِّى الجَلَدْ
يا صاحب القصر الذى أَسْهَرَ عينى ورَقَدْ
وَاعَطَشِى إلى فمٍ يَمُجُّ خمراً من بَرَدْ
إن قُسِّمَ الناسُ فَحَسْبِى بك من كل أحدْ

وقال يرثى جاريته سلوانة ، وهى أم ولده عمر الأصغر :

يقول لِىَ الخلانُ: لو زُرْتَ قبرها فقلتُ: وهل غير الفؤاد لها قبرُ؟
على حين لم أحدث فأجهلَ قدرها ولم أبلُغِ السنَّ التى معها الصبرُ

وقال أيضاً وأحسن ماشاء :

مالى إذا غبتُ لَمْ أذكر بواحدة وإن مرضت فطال السُّقم لَمْ أعدِ
ما أعْجَبَ الشيء ترجوه فتُحْرَمه قد كنت أحسب أنى قد ملأْتُ يدى

ومن شعره فى هذا الباب مقطعات متفرقة تغنى عن الإكثار منه ههنا .

من شعر الحسن بن وهب

وأما الحسن بن وهب فمن قوله :

لم تَنَمْ مُقْلتى لطولِ بكاها ولما جال فَوْقَهَا من قَذَاهَا
فالقذى كحلها إلى أن ترى وجـــهَ سليمى، وكيف لى أن تراها ؟!
أسْعَدَتْ مقلتى بإدمانها الدَّمـــعَ وهجرانها الكَرَى مقلتاها
فلعينى فى كلِّ حِينٍ دُمُوعٌ إنمـــا تستدرُّها عيناها

وقُدِّم إليه كانون ، ومعه قينة كان يهواها ، فأمرت بإبعاد الكانون، فصنع :

بأبى كَرِهْتِ النارَ حتى أُبْعِدَتْ فعرفت ما مَعْنَاكِ فى إبعادها
هى ضرة لكِ بالتماع شعاعها وبحسن صورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها بأراكها وسَيَالها وعَرَادها
شَرَكَتْكِ فى كل الجهات بحسنها وصيانها وصلاحها وفسادها

ومن مليح الشعر قوله يمدح محمد بن عبد الله بن طاهر غِبَّ مطر :

هَطَلَتْنَا السماء هَطْلاً دِرَاكا جَاوَزَ المَرْزُمَانِ فيه السِّمَاكا

قلتُ للبرقِ إذ تألقَ فيـهِ : يازِنادَ السماء من أوْرَاكا[1]
أحبيباً أحببته لحفاكا ؟ فعسى داكَ أن يعودَ كذاكا
أمْ تَشَبَّهتَ بالأمير أبى العبـاس فى جُودِه ؟فلَسْتَ هُنَاكا

وهذا هو الكلام الكتابى ، السهل ، المرسل ، الحسن الطلاوة ، والظاهر الحلاوة .

ومن قوله يرثى حبيباً الطائى ، وكان صديقاً له جداً :

سقى بالموصلِ القبرَ الْغَريبا سحائبُ يَنْتَحِبْنَ به نحيبا
إذا أظللنه أطلقنَ فيه شعيبَ المزنِ يُتْبعها شعيبا
وَلَطَّمَتِ البروقُ له خدودا وَشَقَّقَتِ الرُّعودُ له جيوبا
فإنَّ تراب ذاكَ القبر يَحْوِى حبيباً كان يدعى لى حبيبا

وهى قصيدة كاملة أتيت بهذا منها معرضاً .

من شعر سعيد بن حميد الكاتب

ومن شعراء الكتاب سعيدُ بن حميد الكاتب ، وهو القائل فى طول الليل :

ياليْلُ ، بلْ يا أبدُ أنائمٌ عنكَ غدُ؟
ياليلُ، لوتَلْقَى الذى ألقى بها أو أجِـدُ
قَصَّرَ من طولك أو أُضْعِفَ منك الجَلَدُ

ورواه قوم * أنحل منك الجسد * والأول عندى أصوب ، وعلى كل حال فنه أخذ أبو الطيب قوله :

ألم يَرَ هذا الليلُ عَيْنَيْكِ رؤيتى فتظهرَ فيـه رقةٌ ونحولُ

مالا يلزم الكاتب

وليس يلزم الكاتب أن يجارى الشاعر فى إحكام صنعة الشعر ؛ لرغبة الكتاب فى حلاوة الألفاظ وطيرانها ، وقلة الكلفة ، والإتيان بما يخف على

(١) تألق : لمع ، وزناد السماء : شبيه به البرق ، وأوراك : من قولهم « ورى الزند » إذا قدحه ليخرج نارا .

النفس منها ؛ وأيضا فإن أكثر أشعارهم إنما يأتى تظرفا ، لا عن رغبة ولا رهبة ، فهم مطلقون مُخَلَّوْنَ فى شهواتهم ، مسامحون فى مذهبهم ؛ إذ كانوا إنما يصنعون الشعر تخيراً واستظرافاً ، كما قال كشاجم الكاتب :

ولئن شعرتُ فما تعمدت الهجاء ولا المديحْ
لكنْ رأيتُ الشعرَ لِلْآداب ترجمةً فصيحهْ

وعلى هذا النمط يجرى الحكم فى أشعار الخلفاء ، والأمراء ، والمترفين من أهل الأقدار : لا يحاسبون فيها محاسبة الشاعر المبرز الذى الشعرُ صناعته ، والمديح بضاعته .

وقد أعرب أبو الفتح بن العميد وأغرب فى قوله :

فإن كانَ مَرْضِياًّ فقل : شعر كاتبٍ وإن كان مسخوطاً فقل :شعر كاتب(١)

ولو حاولتُ أن أذكر مَنْ علمت من شعراء الكتاب ـ سوى من ذكرت ـ لبَعُدَ الأمد ، وطالت الشقة ، واحتجت إلى أن أقيم لهذا الفن ديواناً مفرداً ؛ لكنى عوّلت على ابن الزيات ، وابن وهب ؛ لإحالة الجاحظ فى الفضل عليهما ، وآنستهما باثنين ليسا بدونهما ، ولو لم آت بهذا الباب إلا بما بنيته عليه من ذكر أشعار السيد الرئيس أبى الحسن أيده الله لكان ذلك فوق الرضا والكفاية .

من شعر أبى الحسن

فمن ذلك قوله :

بَاكِرِ الرَّاحَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَذَلْ وَاسْعَ فى الصِّحَّةِ مِنْ قَبْلِ الْعِلَلْ
واغتنم لذة يوم زائل فالمنايا ضاحكاتٌ بالأمل
ما ترى الساقى كشمسٍ طلعت تَحْمِلُ المريخ فى بُرْجِ الْحَمَلْ
مائساً كالغصنِ فى دِعْصٍ نَقاً فاتِنَ المقلةِ زِينَتْ بالكَحَلْ

(١) انظر (ج ١ ص ٣٣٥) تجد للمؤلف تعليقا على هذا البيت .

وقوله أيضا يتغزل :

مَرَّ بنـــــا يَهْتَزُّ فى مَشْيِهِ　　مثل اهتزاز الْغُصُنِ الرَّطْبِ
فمقلتى ترتعُ فى حُسْنه　　ومقلتاه أحْرَقَتْ قلبى

قوله « أحرقت » وهما مقلتان كقول بعضهم ، وأنشده أبو الجراح فى طبقات الشعراء :

أشركت عيناه ظالمة　　فى دمى يا عُظْمَ ما جنت

فقال « ظالمة » وقال « جنت » لأن التثنية جمع فى الحقيقة ، والجماعة تخبر عنها كما تخبر عن الواحد : لمكان التأنيث ، والشاهد من قول القدماء قول أحدهم :

لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زلُّ　　بهاَ الْعَيْنَانِ تَنْهَلُّ

فقال « تنهل » وكان حقه أن يقول « تنهلان » لـكن العلة ما قدمت .

ومن الموعظة الحسنة البالغة قوله :

أَمْنُ الزَّمان زَمَانَةُ العقلِ　　فاخْشَ الآله وحُلْ عَن الجهلِ
واْعلم بأنكَ فى الحسابِ غداً　　تُجْزَى بما قَدَّمْتَ من فعلِ

ومن تشكى أحوال الناس وقلة ثقتهم و إنصافهم قوله :

أيارب ، إن الناس لاَ يُنْصِفُونَنى　　ولمْ يُحْسِنُوا قَرْضِى على حَسَنَاتى
إذا ما رأونى فى رَخاء تَرَدَّدُوا　　إلىَّ ، وأعدائى لَدَى الأزَماتِ
وَمَهْمَا أَكُنْ فى نِعْمَةٍ حَزِنُوا لهَاَ　　ذوو أنفسٍ فى شِدَةٍ جَذِلاَت
ثقاتىَ ما دامتْ صِلاتى لديهمُ　　و إن عنهمُ أخَّرْتُها فعِداتى
سأمنعُ قلبى أن يَحِنَّ إليهمُ　　وأصرف عنهم قاليا لَحَظَاتى
وأُلزِمُ نفسى الصَّبْرَ دأْبًا لعلنى　　أعاينُ ما أَمَّلْتُ قَبْلَ مماتى
ألاَ إنما الدُّنيا كَـفَافٌ وصِحَّةٌ　　وأمْنٌ ، ثلاثٌ هُنَّ طِيبُ حَياتى

قوله « ثلاث » يعنى ثلاث خصال أو ثلاث أحوال ، كما قال طرفة :

* فلولاَ ثلاثٌ هُنَّ من لَذَّة الفتى[١] *

ثم فسَّرهن فقال :

* فمنهن سَبْقُ العاذلات بشربة[٢] *

* وكَرِّى إذا نادى المضاف مُجَنَّباً[٣] *

* وتقصـــير يوم الدجن[٤] *

والسبق والتقصير والسكر كلها مذكرة ، لكن أراد ما قدمت .

ومن أحسن الأشعار قوله :

خليلىَّ ، إنْ لم تُسْعِدَانى فأقْصرا ... فليسَ يُدَاوَى بالعتابِ المتيَّمُ

تريدَانِ منى النُّسْكَ فى غيرِ حينهِ ... وغُصْنىَ رَيَّانٌ ورأسِىَ أسْحَمُ

وقوله فى قصيدة طويلة :

غَرَّاء واضِحةٌ يَنُوسُ بقُرْطُها ... جِيدٌ حَكَى جِيدَ الغزالِ الأعنقِ

صَدَّتْ فأغرَت بالسجوم مدامعى ... والعين تذرف بالدموع السُّبَّقِ

تشكو البعاد إذا بعدت تَصَبُّراً ... وإنِ ارتجعت إلى الزيارة تَفْرَقِ

ولقد يبيت أخو المودة لائمى ... فى حبهـا لوم الشفيق المشفق

حتى إذا طلعتْ فأبْصرَ شَخْصَهَا ... أخْزَى جهالة لائمى المستحمق

كم قد قطعت بوصلها من ليـلة ... وبشرب صافية كلون الزئبق

---

(١) تمامه * وجدك لم أحفل متى قام عودى *

(٢) تمامه * كميت متى ماتعل بالماء تزبد * ويروى « سبق العاذلات »

(٣) مجنبا ـ بالجيم الموحدة ـ هكذا هو فى رواية ضعيفة ، والرواية الموثوق بصحتها « محنبا » بالحاء المهملة ، وتمام البيت * كسيد الغضا نبهته المتورد *

(٤) البيت بتمامه هكذا :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الخباء المعمد

يسعى بها كالبدر ليلة تمّه   سَحّارُ ألحاظٍ رخيمُ المنطقِ
آليتُ أتركُ ذا وتلكَ وهذهِ   حتى يفارقنى سوادُ المفرقِ

فلله سلامة هذا الطبع واندفاعه ، وقرب هذا اللفظ واتساعه ، ولله رقة معانيه وإرهافها ، وظهورها مع ذلك وانكشافها ، ولطف مواقعها من القلوب ، وسرعة تأثيرها فى النفوس ، وسيرد من شعره فيما بعد ما لاق بالمواضع التى يذكر فيها ، إن شاء الله تعالى .

(٧٢) — باب فى أغراض الشعر وصُنُوفه

وهو بَسْطٌ لما بعده من الأبواب ، وقد فرط البسط له ، وفرغ من مقدمته فى باب حد الشعر وتبيينه ، وأنا ذاكر هنا مالا بد منه .

الناشىء فى صناعة الشعر

تكلم قوم فى الشعر عند أبى الصقر إسماعيل بن بلبل من حيث لا يعلمون . فكتب إليه أبو العباس الناشىء :

لَعَنَ اللهُ صنعة الشعرِ ، ماذا   من صنوفِ الجهالِ فيها لقينا؟
يؤثرونَ الغريبَ منه على ما   كان سهلاً للسامعين مُبينا
وَيرَوْنَ المحالَ شيئاً صحيحا   وخسيسَ المقالِ شيئاً ثميناً
يجهلونَ الصواب منه ، ولا يَدْ   رُونَ للجهلِ أنَّهُمْ يجهلونا
فهُمُ عنـد من سوانا يلامو   ن ، وفى الحق عندنا يُعْذرونا
إنما الشعر ما تناسب فى النظـ   ـم ، وإن كان فى الصفاتِ فنونا
فأتى بَعْضُهُ يشاكلُ بعضاً   قد أقامتْ له الصدورُ المُتونَا
كلُّ معنى أتاك منه على ما   تتمنَّى لو لم يكنْ أن يكونا
فتناهى عن البيانِ إلى أنْ   كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوه   والمعانى رُكِّبْن فيـه عيونا

فأتنا فى المرام حَسْبَ الأمانى فيجــلِّى بحسنه المُنْشِدِينا
فإذا ما مدحْتَ بالشعر حرا رمتَ فيه مذاهبَ المسهبينا
فجعلتَ النسيبَ سَهْلاً قريبًا وجعلتَ المديحَ صِدْقًا مبينا
وتنكبتَ ما تهجَّنَ فى السمــع ، وإن كان لفظه موزونا
وإذا ما قَرَضْتَهُ بهجـــاء عِفت فيه مذاهب المرفثينا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفينا
وإذا ما بكيت فيه على الغا دين يومًا للبين والظاعنينا
حُلْتَ دون الأسى وذلْتَ ما كا ن من الدمع فى العيون مَصُونا
ثم إن كنت عاتبا شبت فى الوعـــد وعيدا وبالصعوبة لينا
فتركت الذى عَتَبْتَ عليه حذِراً آمنا ، عزيزا مهينا
وأصحُّ القريض مافاتَ فى النظـــم ، وإن كان واضحا مستبينا
وإذا قيل أطمعَ الناسَ طرًّا وإذا ريم أعجز المعجزينا

وصية أبى تمام للبحترى

قال أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طَبْع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضائه ، حتى قصدت أبا تمام ؛ فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ماقال لى : ياأبا عبادة ، تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم ، صِفر من الغموم ، واعلم أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السَّحَر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصَّبَابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشْهِرْ مَنَاقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبِنْ معالمه ، وشرف مقامه ، وتقاضَ المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزَّرِيَّة ، وكن

كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، و إذا عارضك الضجر فأرِحْ نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذَّرِيعةَ إلى حسن نظمه ؛ فإن الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله تعالى .

قال صاحب الكتاب : قد كنت أردت ذكر هذا الفصل فيما تقدم من باب عمل الشعر وشَحْذ القريحة له ، فلم أثق بحفظي فيه ، حتى صححته فأثبته بمكانه من هذا الباب[1] .

للناشىء أيضا في الشعر

ومن قول الناشىء في معنى شعره الأول :

الشعر ما قوَّمت زَيْغَ صدوره ... وشَدَدْتَ بالتهذيب أسْرَ متونه
ورأبت بالإطناب[2] شَعْبَ صُدوعه ... وفتحت بالإيجاز عُورَ عيونه
وجمعت بين قريبه و بعيده ... ووَصَلْت بين مجمِّه ومَعينه
فإذا بكيت به الديارَ وأهلَها ... أجريتَ للمحزون ماء شؤونه
و إذا مَدَحْتَ به جواداً ماجداً ... وَقَّيْتَهُ بالشكر حقَّ ديونه
أصفيته بنفيسه ورصينه ... وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جَزْلاً في اتِّساق صنوفهِ ... ويكونُ سَهلاً في اتفاق فنونه
فإذا أردتَ كناية عن ريبةٍ ... بايَنْتَ بين ظهوره وبطونه
فجعلتَ سامعه يشوب شكوكَهُ ... ببيانه وظنونَهُ بيقينه
و إذا عَتَبْتَ على أخٍ في زلةٍ ... أدْمَجْتَ شِدَّتَهُ له في لينه
فتركته مستأنساً بدَمَاثة ... مستيئساً لوعوثه وحُزُونه

(١) انظر ج ١ ص ٢٠٨ من هذا الكتاب .
(٢) يقال « رأب الشعب » و « رأب الصدع » في معنى أصلح الفاسد .

وإذا نبذتَ إلى التى عُلِّقْتَها ... إنْ صَارَمَتْكَ بِفَاتِنَاتِ شُؤُونِهِ
تيَمَّتْهَا . بلطيفهِ ودقيقه ... وشغفتها بجَبيـــــه وكمينه
وإذا اعتذرْتَ إلى أخ من زلَّةٍ ... واشكت بين محيـــلهِ ومبينه

وهذا حين أبدأ بالكلام على هذه الأغراض والصنوف واحداً فواحداً ، إن شاء الله سبحانه وتعالى .

(٧٣) — باب النسيب

حق النسيب

حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رَسْلها ، قريب المعانى سَهْلَها ، غير كزّ ولا غامض ، وأن يُختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، لين الإيثار[٢] ، رَطْبَ المكسر ، شفّاف الجوهر ، يُطرِب الحزين ، ويستخفّ الرَّصين .

روى أبو على إسماعيل بن القاسم ، عن ابن دريد ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى ، عن أبى عمرو بن العلاء ، عن راوية كثير[٣] قال : كنت مع جرير ـ وهو يريد الشام ـ فطرب ، وقال : أنشدنى لأخى بنى مليح ـ يعنى كثيراً ـ فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله :

وأدْنَيتنِى حتى إذا ما سبيتنى[٤] ... بِقَوْلٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأباطح

(١) انظر نقد الشعر لقدامة ٤٢ الآستانة .

(٢) ربما قرئت « لين الأبشار » .

(٣) فى جميع أصول هـذا الـكتاب « عن رواته عن كثير » وهو خطأ ، وما أثبتناه عن الأمالى (ج ٢ ٢٢٨) وقد اعترضه البكرى فى التنبيه ، قال « هذا الشعر لمجنون بنى عامر، لا لـكثير ، ولا أعلم أحدا رواه له ، وقد وقع لى فى ديوانه وبعد البيتين :

فما حب ليلى بالوشيك انقطاعه ... ولا بالمؤدى يوم رد النائع

(٤) فى الأمالى « إذا ما استميتنى » والذى فى الأصل موافق لرواية البكرى فى التنبيه .

تجافَيْتِ عنى حين لالىَ حيلة(١) وخلَّفت ماخلَّفتِ(٢) بين الجوانح

فقال : لولا أنه لا يحسن بشيخ مثلى التخير لنَخَرْتُ حتى يسمع هشام على سريره . .

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يشتهى النسيب ؟ فقال : أما مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

الفرق بين الغزل والنسيب

والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد . . وأما الغزل فهو إلف النساء، والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته فى شىء ؛ فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه نقد الشعر(٣)

وقال الحاتمى : من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعدهُ من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخوَّنُ(٤) محاسنه ، وتُعَفِّى معالم جماله ، ووجدت حُذّاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على مَحَجَّة الإحسان .

من مختار نسيب المتقدمين

ومن مختار(٥) ما قيل فى النسيب قول المرار العدوى .

---

(١) فى الأمالى « حين لالى مذهب » وكذلك فى التنبيه (ص ١١٨)

(٢) فى التنبيه « وغادرت ما غادرت » والذى فى الأصل موافق لما فى الأمالى

(٣) انظر نقد الشعر ص ٤٢ .

(٤) تتخون محاسنه : أى تنقصها .

(٥) هذه الأبيات من قصيدة للمرار اختارها أبو العباس المفضل الضى فى « المفضليات » وفى رواية المفضليات أبيات بين بعض هـذه الأبيات وبعض ؛ فلعل المؤلف لم يقصد إلى اختيار قطعة كاملة من القصيدة يقفو بعض أبياتها بعضا .

وَهْيَ هيفاء هضيمٌ كَشْحُهَا فَخْمَةٌ حيثُ يُشَدُّ المُؤْتَزَرْ
صَلْتَةُ الخدِّ طَوِيلٌ جِيدُهَا ضَخْمَةُ الثَّدْيِ(١) وَلَمَّا ينكسرْ
يُضْرَبُ السبعون فى خَلْخَالِهَا فإذا ما أكْرَهَتْهُ ينكسِرْ
لا تَمَسُّ الأرضَ إلا دُونَها عن بِلَاطِ الأرض ثَوْبٌ منعفرْ
تطأُ الخزَّ ولا تُكْرِمه وتُطِيلُ الذَّيْلَ مِنْهُ وَتَجُرْ
ثُمَّ تَنْهَدُّ عَلَى أَنْمَاطِها مثلَ ما مال كثيب منقعرْ
عَبِقُ العنبرِ والمسكِ بها فهى صفراء كعرجون العمرْ
أملحُ الناسِ إذا جَرَّدْتَهَا غيرَ سِمْطَيْنِ عليها وَسُورْ

قال عبد الكريم : هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف ، وهى أشبه بنساء الملوك .

وأنشد لغيره :

قليلة لحم الناظرين يزينها شبابٌ ومخفوض من العيش باردُ
أرادت لتنتاش الرواقَ فلم أقم إليه ، ولكن طأطأته الولائدُ
تناهى إلى لهوِ الحديث كأنها أخو سقطة قد أسلمته العوائد

وأنواع النسيب كثيرة ، وهذا الذى أنشدته أفضلها فى مذاهب المتقدمين ، وللمحدثين طريق غير هذه كثيرة الأنواع أيضا :

مما يختار من نسيب المحدثين

فما أختار من ذلك ما ناسب قول أبى نواس :

حَلَّتْ سعاد وأهلُها سَرِفَا قوماً عِدًى ومحلَّةً قُذُفَا
وكأن سُعْدى إذ تودِّعنا وقد اشرَأَبَّ الدمع أن يكفا
رَشأٌ تواصينَ القيانُ به حتى عَقَدْنَ بأذنه شَنَفَا

(١) رواية للفضليات « ناهد الثدى » .

لمسلم بن الوليد

فإن هذا فى غاية الجودة ونهاية الإحسان ، ومما ناسب قول مسلم بن الوليد :

أحِبُّ التى صَدَّتْ وقالت لِتِرْبِها : دَعِيه ، الثُّرَيَّا منه أقربُ من وَصْلى
أماتتْ وأحْيَتْ مُهجتى فهْىَ عندها مُعَلَّقةٌ بين المَواعيدِ والمَطْلِ
وما نِلتُ منها نائلاً غــيرَ أننى بشَجْوِ المحبين الأُلَى سَلَفُوا قبلى
بلى ، ربما وكَّلتُ عيــنى بِنَظْرة إليها تَزيدُ القلبَ خَبْلاً على خَبْل

للبحترى

ومن الجيد قول الوليد بن عبيد البحترى :

رَدَدْنَ ماخففتْ منه الخصورُ إلى ما فى المآزِرِ فاستثقلن أردافا
إذا نَضَيْنَ شُفُوفَ الرَّيْطِ آونَةً قَشَرْنَ عن لؤلؤ البحرين أصدافا

والبحترى أرق الناس نسيبا ، وأملحهم طريقة ، ألا تسمع قوله :

إنى وإن جانبت بعضَ بِطَالَتى وتوهمَ الواشونَ أنىَ مُقْصِرُ
لَيَشُوقُنى سِحْرُ العيون المجتلى ويروقنى وَرْدُ الخدودِ الأحْمَرُ

وشعره من هذا النمط ، لا سيما إن ذكر الطيف ؛ فإنه الباب الذى شهر به ،

لأبى تمام

ولم يكن لأبى تمام حلاوة توجب له حسن التغزل ، وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير فى خلال القصائد ، مثل قوله :

بِتُّ أرعى الخدود حتى إذا ما فارقونى بقيت أرعى النُّجُوما

وقوله أول قصيدة :

أرَامَةُ ، كنتِ مألَفَ كل رِيمِ لو استمتعت بالأُنسِ المقيم
أدارَ البؤسِ ، حسَّنكِ التصابى إلىَّ فصرتِ جَنَّاتِ النعيم
ومــــا ضَرَّمَ البُرَحَاءَ أنى شكوتُ فما شكوتُ إلى رحيم

للمتنبى

وأما أبو الطيب فمن مليح ماسمعت له قوله :

كئيباً توقانى العواذِلُ فى الهَوَى كما يتَوقَّى رَيِّضَ الخيل حازِمُه

قِفِي تغرم الأُولى من اللحظ مُهْجتى بثانية ، والمُتْلِفُ الشيء غارِمُهْ
سقاكِ وحيانا بكِ الله ، إنما على العيس نَوْرٌ والخدورُ كمائمُهْ

فقد جاء بأملح شيء وأوفاه من الظرافة والغرابة .

وقوله يذكر رَبْعَ أحبابه :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة لمن بانَ عنه أن نُلِمَّ به ركبا
نذمُّ السحاب الغرَّ فى فعلها به ونُعرِض عنها كلما طلعت عَتْباَ

وقال فى ذكر الديار أيضاً :

ودُسْنَا بأخفاف المَطِىِّ تُرابَهاَ فلا زِلْتُ أستَشْفِى بِلَثْمِ المناسِمِ
ديارُ اللواتى دارُهُنَّ عزيزةٌ بسُمْرِ القنا يُحْفَظْنَ لا بالتمائمِ
حسانُ التثنِّى يَنْقُشُ الوشىُ مِثله إذا مِسْنَ فى أجسامِهن النواعِمِ
ويَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مثله كأن التراقى وُشِّحَتْ بالمباسمِ

ورد جماعة من الكتاب على العتابى ، وهو بحلب ، وفى يده رقعة ، وقد أطال فيها النظر والتأمل ، فقال : أرأيتم الرقعة التى كانت فى يدى ؟ قالوا : نعم ، قال : لقد سلك صاحبها واديا ما سلكه غيره ، فلله دره ، وكان فى الرقعة قول أبى نواس :

لأبى نواس أيضا

رَسْمُ الكَرَى بين الجفون مُحِيلُ عَفَّى عليه بُكَى عليك طويل
يا ناظراً ما أقلعتْ لحظاته حتى تَشَحَّطَ بينهن قتيل

أغزل بيت

رَوَى]الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : أغزل بيت قالته العرب قول عمر بن أبى ربيعة :

لابن أبى ربيعة

فتضاحَكْنَ وقَدْ قُلْنَ لها : حَسَنٌ فى كل عَيْنٍ من تَوَدّْ

لامرىء القيس

وكان الأصمعى يقول : أغزل بيت قالته العرب قول امرىء القيس :

وما ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلاّ لِتَضْرِبِى بسَهْمَيْكِ فى أعشار قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وحكى عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك أنه قال : لم تقل العرب بيتاً أغزل من قول جميل بن معمر : لجميل

لكلٍّ حديثٍ بينهنّ بشاشةٌ ... وكلُّ قتيلٍ عندهُنّ شهيدُ

وفضّلته بهذا البيت سكينة بنت الحسين بن علىّ رضوان الله عليهم ، وأثابته به دون جماعة من حضر من الشعراء .

للأحوص

وقال بعضهم : الأحوص من أغزل الناس بقوله :

إذا قلتُ إنى مُشْتَفٍ بلقائها ... وحُمّ التّلاقى بيننا زادنى سُقْمَا

لجميل أيضا

وقال غيره : بل جميل بقوله :

يَمُوتُ الهوى منى إذا مالقيتها ... ويَحْيَا إذا فارَقْتُهـا فيعُودُ

لجرير

وقال آخر : بل جرير بقوله :

فلمّا التقى الحيّان أُلْقِيَتِ العصى ... ومات الهوى لما أصيبت مقاتلُهْ

والأحوص عندهم أغزلهم فى هـذه الأبيات الثلاثة ؛ لزيادته سقماً إذا التقى بالمحبوب .

لأبى صخر

وقال الحاتمى : أغزل ما قالته العرب قول أبى صخر :

فيَاحُبَّها زِدْنِي جوًى كل ليلةٍ ... ويا سَلْوَةَ الأيامِ موْعِدُكِ الحَشْرُ

لأبى نواس

وقال أبو عبيدة : ما حفظت شعراً لمحدث ، إلا قول أبى نواس :

كأنّ ثيابه أطْلَعْـنَ من أزراره قَمَرَا

يزيدُكَ وَجْهُهُ حسناً ... إذا ما زِدْتَهُ نَظَرا

بعينٍ خَالَطَ التفتـيرُ من أجفانها الحَوَرَا

وخَدٍّ سـاريٍّ لو ... تَصَوّبَ ماؤه قَطَرَا

الأسماء التى يتغزل الشعراء فيها

وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو فى أفواههم ، فهم كثيراً ما يأتون

بها زوراً نحو : ليلى ، وهند ، وسَلْمى ، ودَعْد ، ولُبْنَى ،وعَفْرَاء ، وأرْوَى ، ورَيّا ، وفاطمة ، وَمَيَّة ، وعُلْوَة ، وعائشة ، والرَّبَاب ، وجُمْل ، وزينب ، ونُعْم ، وأشباههن .

ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلى ، أنشده الأصمعى :

وما كان طِبِّى حُبَّهَا غَيْرَ أَنَّهُ ... يُقَامُ بسَلْمى للقوافى صُدُورُها(١)

وأما عَزَّة و بثينة فقد حماها كثير وجميل ، حتى كأنما حُرِّما على الشعراء . .

ور بما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة فى القصيدة؛ إقامة للوزن،وتحلية للنسيب ، كما قال جرير:

أَجَدَّ رَوَاحُ القومِ؟بل لاَتَ رَوَّحُوا ... نَعَمْ كُلُّ مَن يُعْنَى بجُمْلٍ مُبَرَّح

ثم قال بعد بيت واحد :

إذا سَايَرَتْ أسْماءُ يوماً ظَعائناً ... فأسماءُ من تلك الظعائن أملح(١)

ظَلِلْنَ حَوَالَيْ خِدْرِ أسماء فانتحى ... بأسماء مَوَّارُ الملاطين أروح

صحَا القلبُ عن أسْما وقَدْ بَرَّحَتْ بِهِ ... وما كان يَلْقى من تُمَاضِرَ أبرحُ

وأما قول السيد الحميرى :

ولقد تَكونُ بها أوانس كالدمى ... هند وعَبْدَةُ والرباب وبَوْزَع

فإنه ثقيل من أجل بَوْزَع .

وأنكر هذه اللفظة عبد الملك بن مروان على جرير ، فما ظنك بالسيد الحميرى؟

وكلما كانت اللفظة أحْلَى كان ذكرها فى الشعر أشْهى ، اللهم إلا أن يكون الشاعر لم يُزَوِّرْ الاسم ، و إنما قصد الحقيقة لا إقامة الوزن؛ فحينئذ لا ملامة عليه،مالم يجد فى الكنية مندوحة . .

وقال يزيد بن أم الحكم :

(١) الطب : العادة والسجية ، وقال الشاعر :

وما إن طبنا جبن ، ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

(٢) يروى * . . . ظعينة . . . من تلك الظعينة . . .

أمْسَى بأسماء هذا القلبُ مَعْمُودا إذا أقول صَحاَ يعتاده عيدا
كأنَّ أحورَ من غِزْلاَنِ ذى بقرٍ أهْدَى لعائشة العينين والجيدَا

على أن بعضهم رواه «أهدى لها شَبَهَ العينين» وهو أجود لا محالة ، ومثل هذا كثير فى أشعار القدماء ، ولست أرى مثله من عمل المحدثين صوابا ، ولا علمته وقع لأحد منهم ، إلا ما ناسب قول السيد المتقدم آنفاً ، وقول أبى تمام الطائى :

و إن رَحَلَت فى ظُعْنِهِمْ وحُدُوجهم زَيَانبُ من أحبابنا وعواتك

من عيوب هذا الباب

ومن عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل و يقل المديح ، كما يحكى عن شاعر أتى نصر بن سَيَّار بأرجوزة فيها مائة بيت نسيبا وعشرة أبيات مديحا ، فقال له نصر : والله ما أبقيت كلمة عَذْبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحى بنسيبك ، فإن أردت مديحى فاقتصد فى النسيب ، فغدا عليه فأنشده :

هَلْ تَعرف الدَّارَ لأمِّ عَمْرِو ؟ دَعْ ذا وَحَبِّرْ مدحةً فى نصر

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ، ولكن بين الأمريْنِ .

فأما مذهبه الأول فى طول النسيب وقصر المديح فإن نصيبا اتبعه فيه، ولكن ذاك منه إنما كان على اقتراح فى القصيدة التى مدح بها بنى جبريل ، وأما المذهب الثانى فانتحله أبو الطيب فى قوله :

واحَرَّ قلباه ممن قَلْبُهُ شَبِمُ ومن بجسمى وحالى عنده سَقَمُ

ثم خرج إلى المدح فى البيت الثانى .

و يعاب على الشاعر أن يفتخر أو يتعاطى [فوق] قدره ، كما أخذ على عباس قوله :

فإن تقتلونى لا تفوتوا بمهجتى مَصَالِيتَ قَوْمِى من حَنِيفة أوعجل

وعيب على الفرزدق وهو صميم بنى تميم قوله :

يا أخت ناجيةَ بْنِ سامة إننى أخشى عليكِ بَنِيَّ إن طلبوا دمى

اللهم إلا أن يكون النسيب الذى يصنع مجازا كالذى فى بسط القصائد ، فإن ذلك لا بأس به ، ولا مكروه فيه .

وسمع ابنُ أبى عتيق قولَ ابن أبى ربيعة المخزومى :

بينما يَنْعَتْنَنِي أَبْصَرْنَنِي دُون قيد الميل يَعْدُو بى الأغَرّ
قالت الكبرى : أتعرفنَ الفتى؟ قالتِ الوُسْطى : نعم ، هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ! ؟

فقال له : أنت لم تَنْسُبْ بهن ، وإنما نَسَبْتَ بنفسك ، وإنما كان ينبغى لك أن تقول : قالت لى فقلت لها ، فوضعت خدى فوطئت عليه .

وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قَالتْ لهــا أختها تعاتبها : لا تُفْسِدِنَّ الطَّوافَ فى عُمَرِ
قومى تَصَدَّىْ له لأبصره ثم اغمزيه يا أختُ فى خَفَرِ
قالت لهــا : قد غمزته فأبىٰ ثم اسْبَطَرَّتْ تشتدُّ فى أثرى

أهكذا يقال للمرأة ؟ ؟ إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة .

قال بعضهم ـ أظنه عبد الكريم ـ : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة والراغبة المخاطبة ، وهنا دليل كرم النَّحِيزَة فى العرب وغيرتها على الحرم .

وعاب كُثير على نُصَيب قولَه :

أهيمُ بدعدٍ ما حييت ، فإن أمت فيا لَيْتَ شعرى مَنْ يهيم بها بَعْدِى

حتى إنه قال له : كأنك اغتممت لمن يفعل بها بعدك ، وهو لا يكنى . .

ومثل هذه الحكاية ما قاله بعض الكتاب ـ وقد دخل على على بن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهو

محبوس — فقال: أين هذا الجعفري الذي يتدنث في شعره؟ قال علي: فعلمت أنه يريدني لقولي:

ولما بدا لي أنها لا تحبني وأن هواها ليس عني بمنجلي
تمنيت أن تهوى سواي، لعلها تذوق صبابات الهوى فترق لي
فما كان إلا عن قليل وأشغفت بحب غزال أدعج الطرف أكحل
وعذبها حتى أذاب فؤادها وذوقها طعم الهوى والتذلل
فقلت لها: هذا بهذا، فأطرقت حياء، وقالت: كل من عايب ابتلي

فقلت: أنا هو جعلت فداك، وأنا الذي أقول في الغيرة:

ربما سرني صدودك عني وطلابيك وامتناعك مني
حذراً أن أكون مفتاح غيري فإذا ماخلوت كنت التمني

ويعاب ماناسب قول الآخر، وهو جميل:

فلو تركت عقلي معي ماطلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

لأن الصواب قول عباس، أو مسلم:

أبكي وقد ذهب الفؤاد، وإنما أبكي لفقدك لا لفقد الذاهب

طرد الخيال

فأما طرد الخيال والمجاراة في المحبة فهو مذهب مشهور، وقد ركبه جلة الشعراء، ورواه رواة: منهم طرفة، ولبيد، ثم جرير، ثم جميل، فقال طرفة، وهو أول من طرقه:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها، فإني واصل حبل من وصل

وقال لبيد في مثل ذلك:

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

يقول: اقطع المزار ممن تعرض وصله للقطيعة — ويقال: تعرض الشيء، إذا فسد، حكاه الخليل — فإن شر من وصلك من قطعك بلا ذنب، يريد

الذى تعرض وصله ، ومن الناس من رواه * والخير واصل خلة صرامها *
يقول : إن خير مَنْ وصل الخلة من قطعها باستحقاق ، يعنى نفسه . .

وقال جرير

طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوب،وليس ذا وَقْتَ الزيارةِ ، فَارْجِعِى بسلام

على أن قوما زعموا أنه كان مُحْرِماً ، فلذلك طرد الخيال ، كأنه تحرج وليس طرد عتب .

وقال جميل :

وَلَسْتُ ـ وإن عزّتْ علىّ ـ بقائلٍ لها بعد صَرْمٍ : يا بُثَيْنُ صِلِينِى

وجرى على سَنَنِ هؤلاء جماعة من المولدين ، واعتقدوا هذا المذهب قولا وفعلا ، حتى تعداه بعضهم إلى القتل ، مثل عبد السلام بن رغبان ، ونصر الخابز أرز[1] ومن شا كلهما من الشطار ، إلا أن أصل هـذا المذهب عند قدامة فاسد ، وعاب على نابغة بنى تغلب ــ واسمه الحارث بن عدوان ، أحد بنى زيد بن عمرو بن غنم بن تغلب ــ قولَه :

بَخِلْنَا لبخلِكِ لو تعلمينَ وكيفَ يَعيبُ بَخيلٌ بَخيلاً ؟

لأن الواجب عنده فى التغزل أن يكون على خلاف هذا ، وكل ما لا يليق بالمحبوب فهو مكروه فى باب النسيب .

من الأمانى غير المقبولة

قالت عزة لـكثير يوماً ــ ويقال بثينة ــ ما أردت بنا حين قلت :

وَدِدْتُ وبيتِ اللهِ أنكِ بَـكْرَةٌ وأنىّ هجانٌ مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ
كلانا به عَرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ على حُسْنِها جَرْباء تُعْدِى وأَجْرَبُ
نَـكُونُ لذِى مالٍ كثيرٍ مُغَفَّلٍ فلا هو يرعانا ولاَ نَحنُ نُطلَبُ

(١) هو الخبزرزى .

إذا ما وردنا مَنْهلاً صاحَ أَهلهُ علينا ، فلا نَنفكُّ نُرْمَى ونُضرَبُ

لقد أردت بنا الشقاء ، أما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ ! فخرج من عندها خجلا

وإنما اقتدى بالفرزدق حيث يقول ، وهذا من سوء الاتباع :

ألاَ ليتنا كنَّا بعيرين لا نَرِدْ على حاضرٍ إلاَّ نُشَلُّ ونُقذَفُ
كلانا به عَرٌّ يُخَافُ قِرافهُ على النَّاسِ مَطْلِيُّ الأشاعِرِ أخشفُ
بأرضٍ خــلاءٍ وَحْدَنا وثيابُنا من الرَّيْطِ والديباجِ دِرْعٌ ومِلْحَفُ
ولا زاد إلاَّ فَضلتانِ : سُلاَفةٌ وأبْيضُ من ماء الغمامةِ قَرْقَفُ
وأشلاءُ لحم من حُبَارَى يَصيدُها إذَا نحنُ شِئنا صاحبٌ متألِّفُ
لنا ما تَمَنَّيْنَا من العيشِ مادعَا هَدِيلاً بنعمانٍ حَمَائِمُ هُتَّفُ

وإذا كان بعيراً فما هذه الأمنية التى كلها للحيوان الناطق ؟ لولا أنه ردها إلى نفسه حقيقة ، وإلا فما أملح الجَمَلَ نَشْوَانَ يصيدُ الحُبَارى بالبازى .

ومعايب هذا الباب كثيرة ، وفيما قدمت منها دليل على باقيها .

اشتقاق التشبيب

واشتقاق التشبيب يجوز أن يكون من ذكر الشبيبة ، وأصله الارتفاع ، كأن الشباب ارتفع عن حال الطفولية ، أو رفَعَ صاحبه ، ويقال : شَبَّ الفرسُ ، إذا رفع يديه وقام على رجليه .

قال الجاحظ : يقال شَبَّتِ النار شبوباً ، وشَبَّ الفرس بيديه فهو يشب شبيباً ، ويقال : مالك عضاض ولا شباب ، انقضى كلامه .

ويجوز أن يكون من الجلاء ، يقال : شَبَّ الخِمَارُ وَجْهَ الجارية ، إذا جلاه ووصف ما تحته من محاسنه ؛ فكأن هذا الشاعر قد أبرز هذه الجارية فى صفته إياها وجَلاَها للعيون ، ومنه الشب الذى يجتلى به وجوه الدنانير ، ويستخرج غشها ، ومنها : شببت النار ، إذا رفعت سَنَاها وزدتها ضياء .

وأنشد الأصمعي لعكاشة بن أبي مسعدة :

* يَدْفَعُ عنها كل مَشْبُوب أغر *

قال : المشبوب الذى إذا رأيته فَزِعْتَ لحسنه . . قال ابن دريد : شببت فى الشعر شبيباً، مثل نسبت نسيباً ، والنسيب أكثر ما يستعمل فى الشعر .

(٧٤) — باب فى المديح

سبيل الشاعر فى المدح

وسبيل الشاعر — إذا مدح ملكا — أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جزْلة ، وألفاظه نَقية ، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب — مع ذلك — التقصير والتجاوز والتطويل ؛ فإن للملك سآمة وضجراً ، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب ، وحَرَمَ من لا يريد حرمانه ، ورأيت عمل البحترى — إذا مدح الخليفة — كيف يُقلُّ الأبيات ، ويبرز وجوه المعانى ، فإذا مدح الكتاب عمل طاقته ، وبلغ مراده .

وقد حكى عن عمارة أن جَدَّهُ جريراً قال : يا بَنِيّ ، إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة ؛ فإنه ينسى أولها ، ولا يحفظ آخرها ، وإذا هجوتم فخالفوا .

قال عبد الكريم : وهذا ضد قول عقيل بن عُلَّفة المرادى ، وحكى غيره قال : دخل الفرزدق على عبد الرحمن بن أم الحكم ، فقال له عبد الرحمن : أبا فراس ، دعنى من شعرك الذى ليس يأتى آخره حتى يُنْسَى أوله ، وقال : قل فىّ بيتين يعلقان بالرواة ، وأنا أعطيك عطية لم يعطكها أحد قط قبلى ، فغدا عليه وهو يقول :

وأنت ابنَ بَطْحَاوَىْ قُرَيْشٍ ، وإن تشأ
تَكُنْ من ثقيفٍ سَيْلَ ذى خَــدَرٍ غَمْرِ (١)

(١) فى الديوان « تنل من ثقيف سيل ذى حدب غمر » .

وأنت ابنُ سوَّار اليدين إلى العلى
تكفت بك الشمسُ المضيئةُ للبدرِ[(١)]

فقال: أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

كيف يمدح الملوك والسوقة

وإذا كان الممدوح ملكا لم يبال الشاعر كيف قال فيه، ولا كيف أطنب، وذلك محمود، وسواه المذموم، وإن كان سوقة فإياك والتجاوز به خطته؛ فإنه متى تجاوز به خُطّته؛ كان كمن نقَصه منها، وكذلك لا يجب أن يقصر عما يستحق، ولا أن يعطيه صفة غيره؛ فيصف الكاتب بالشجاعة والقاضى بالحمية والمهابة، وكثيرا ما يقع هذا لشعراء وقتنا، وهو خطأ، إلا أن تصحبه قرينة تدل على صواب الرأى فيه، وكذلك لا يجب أن يمدح الملك ببعض ما يتجه فى غيره من الرؤساء، وإن كان فضيلة.

وذلك مثل قول البحترى يمدح المعتز بالله:

لا العَذْلُ يَرْدَعُه ولا التَّعْنيفُ عن كرمٍ يَصُدُّهْ

فإنه مما أنكرهُ عليه أبو العباس أحمد بن عبد الله، وقال: مَنْ ذا يعنف الخليفة على الكرم أو يصده؟ هذا بالهجاء أولى منه بالمدح.

وعيب على الأخطل قولُه فى عبد الملك بن مروان:

وقد جعلَ اللهُ الخلافةَ منهمُ لأبيض لا عارى الخِوان ولا جَدْبِ

وقالوا: لو مدح بها حَرَسيًّا لعبد الملك لكان قد قَصَّرَ به.

قلت أنا: وإن كان فلا بد من ذكر الضيافة والقرى، كقول ابن قيس الرقيات لمصعب بن الزبير:

يلبسُ الجيشَ بالجيوشِ ويسقى لبنَ البُخْتِ فى عِساسِ الخلَنْج

لأن هذا — وإن لم يَعْدُ به ممادحة العرب فى سقى اللبن — فقد زاده رتبة عرف بها أنه ملك. وأجود منه فى معناه قولُ حسان فى آل جَفْنَةَ:

---

(١) فى الديوان:

وأنت ابن فرع ماجد لعقيلة تلقت له الشمس المضيئة بالبدر

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريصَ عليهمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السلسلِ

ويروى « مسكا » .

وعابوا على الأحوص قوله للملك :

وأراكَ تفعل ما تقول ، وبعضهم مَذِقُ الحديث يقول مالا يفعلُ

فقالوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة ، وإنما تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم لبذله .

ومن هذا النوع قول كثير :

رأيت ابن ليلى يعترى صلبَ ماله مسائلُ شتّى من غنى ومُصْرِمِ

مسائلُ إن توجَدْ لديك تَجُدْ بها يداك ، وإن تُظْلَمْ بها تتظلّمِ

لأن هذا إنما يقع لمن دون الخليفة والملك ، وإنما أخذه من قول زهير فى هَرِم ابن سنان ، وليس بملك ، ولذلك حسن قوله :

هو الجواد الذى يعطيك نائلَه عفواً ، ويُظْلَمُ أحيانا فَيَظَّلِمُ

يريد أنه يُسأل أحيانا ما ليس قبله فيحتمله ، هذا ، وقد قال الصولى فى شرح قول[1] حبيب :

لو يفاجِى ركن المديح كثيرا بمعانيه خالهن نسيبا[2]

طاب فيه المديح والتذ ، حتى فاقَ وَصْفَ الديارِ والتشبيبا

سألت عون بن محمد الكندى : لم خص كثيراً ؟ فقال : سمعته يقول: أمدح الناس زهير والأعشى ، ثم الأخطل وكثير .

---

(١) البيتان فى الديوان (ص ٢٦) بتقديم الثانى على الأول من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى .

(٢) رواية الديوان * لويفادى ذكر المديح كثيرا * وكان فى الأصول كلها « بمعانيهن » وهو خطأ ، وبه ينكسر وزن البيت .

وحكى غير الصولى أن مروان بن أبى حفصة كان يقدم كثيراً فى المدح على جرير والفرزدق .

ومما قدم به زهير قوله :

لو كانَ يقعدُ فوقَ النجمِ من كرمٍ قومٌ بأوّلهم أو مجدهم قَعدُوا
قومٌ سِنَانٌ أبوهم حين تَنْسُبهُمْ طابوا وطابَ من الأولاد ما ولدوا
إنسٌ إذا أَمنوا ، جِنٌّ إذا فزعوا ، مُرَزَّأونَ بَهَالِيلٌ إذَا جهدوا
مُحَسَّدُونَ على ما كانَ من نعمٍ لا ينزعُ اللهُ عنهم ماله حسدوا

ويروى * غُرٌّ بَهَاليل فى أعناقهم صَيَدُ * وقدّمه قدامة بن جعفر الكاتب فقال فى كتابه نقد الشعر : لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع بسائر الحيوانات ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ؛ إنما هى العقل والعفة والعدل والشجاعة ؛ كان القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيبا ، وبما سواها مخطئاً .

فقال زهير :

أَخِى ثِقَةٍ لاَ يُهْلِكُ الْخَمرُ مَالَهُ وَلَـكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

لأنه قد وصفه بالعفة لقلة إمعانه فى اللذات وأنه لا ينفد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاكه ماله فى النوال وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العقل ، ثم قال :

تَرَاه إِذَا ما جِئْتَهُ مُتهَلِّلاَ كأَنَكَ تُعْطِيه الَّذِى أَنْتَ سَائِلُهْ

أراد أن فَرَحَه بما يعطى أكثَرُ من فرحه بما يأخذ ، فزاد فى وصف السخاء منه : بأن جعله يَهَشُّ ، ولا يلحقه مَضَض ، ولا تَكَرُّهٌ لفعله . .

ثم قال :

فمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فى الحُرُوبِ ومثله لإنـكارِ ضَيمٍ أو لِخَصمٍ يُجَادِلُهْ

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ، فاستوفى ضروب المدح الأربعة التى هى فضائل الإنسان على الحقيقة ، وزادها ما هو وإن كان داخلا فى الأربعة فكثير من الناس من لا يعرف وجه دخوله فيها حيث قال « أخى ثقة » فوصفه بالوفاء ، والوفاء داخل فى هذه الفضائل التى قدمنا ، وقد تفنن الشعراء فيعدون أنواع الفضائل الأربع وأقسامها وكل داخل فى جملتها مثل أن يذكروا ثقابة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة، والصدع بالحجة ، والعلم ، والحلم عن سَفَاهة الجَهَلة ،وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وهى من أقسام العقل ؛ وكذكرهم القناعة ، وقلة الشهوة ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك ، وهى من أقسام العفة ؛ وكذكرهم الحماية ، والأخذ بالثأر ، والدفع عن الجار ، والنكاية فى العدو ، وقتل الأقران ، والمهابة ، والسير فى المهامه والقفار الموحشة ، وما شاكل هذا ، وهو من أقسام الشجاعة ؛ وكذكرهم السماحة ، والتغابن ، والانظلام ، والتبرع بالنائل ، والإجابة للسائل ، وقِرَى الأضياف ، وما جانس هذه الأشياء ، وهى من أقسام العدل .

وأما تركيب بعضها من بعض فيحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد ؛ وعن تركيب العقل مع السخاء البر ، و إنجاز الوعد ، وما أشبه ذلك ؛ وعن تركيب العقل مع العفة التنزه ، والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك ؛ وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الإتلاف ، والإخلاف ، وما جانس ذلك ؛ وعن تركيب الشجاعة مع العفة إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ؛ وعن تركيب السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت ، والإيثار على النفس ، وما شاكل ذلك .

قال : وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع المتقدم ذكرها وَسَطٌ بين طرفين مذمومين .

مدح أبو العتاهية عُمر بن العلاء(١) فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه حتى لم يستطع أن يقوم ، فغار الشعراء لذلك ، فجمعهم ثم قال : عجبا لكم معشر الشعراء ما أشد حسد بعضكم لبعض ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فينسب فى قصيدته بصديقته بخمسين بيتا فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره ، وقد أتى أبو العتاهية فنسب فى أبيات يسيرة . ثم قال :

إنى أمنتُ من الزمانِ ورَيْبه ... لما عَلِقتُ منَ الأميرِ حِبالاَ
لو يستطيعُ الناسُ من إجلاله ... لَحَذَوْا له حُرَّ الخدودِ نِعالاَ
إنَّ المطايا تشتكيك ؛ لأنها ... قَطَعتْ إليكَ سَبَاسِباً وَرِمَالاَ
فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ خفائفاً ... وإذَ صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقَالاَ(٢)

ومن مليح ما لأبى العتاهية فى المدح قولُه :

فتى ما استفاد المال إلا أفاده ... سواه كأن الملك فى كفه حلم
إذا ابتسم المَهْدِىُّ نادتْ يمينه : ... ألا من أتانا زائرا فله الحكم

وله أيضاً فى معنى بيتى الفرزدق اللذين صنعهما لعبد الرحمن بن أم الحكم(٣) :

(١) كان عمر بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدى ممدحا ، ومدحه أبو العتاهية فأمر له بسبعين ألف درهم ، فأنكر ذلك بعض الشعراء ؛ وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفى ؟ وأى شىء مقدار شعره ؟ ! ! فبلغه ذلك ، فأحضر الرجل وقال : إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ، ويتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبب بخمسين بيتا ، ثم يمدحنا ببعضها ، وهذا كأن المعانى تجمع له ، مدحنى فقصر التشبيب ، ثم قال . . . وذكر الأبيات التى أنشدها المؤلف ، هذه رواية الأغانى هذا ، وقد اتفقت نسخة الأغانى فى ترجمة أبى العتاهية (٣ / ١٤٤) وترجمة بشار (٣ / ٤٦) على أنه « عمرو » بفتح العين وبالواو ، مع ذكر أبيات لبشار فيه ستأتى فى ص ١٨٤ من هذا الجزء ولا تستقيم إلا بقراءته بضم العين وفتح الميم .

(٢) فى الأغانى (٣ / ١٤٤ بولاق) « فإذا وردن بنا وردن مخفة » وقال : أخذ هذا المعنى من قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(٣) انظر ص ١٢٨ و ١٢٩ من هذا الجزء .

فما مِثْلُ بَيْتَيْهِ فى العالمين أعزُّ بنــاء ولا أرفعُ
فَبَيْتٌ بَنَاهُ له هَاشِمٌ وبيتٌ بنــاه له تُبَّعُ
وَلَوْ حاولَ الدهرُ مافى يديه لعَادَ وعِرْنينُهُ أَجْدَعُ

ومن المديح المنصوص عليه قول زهير :

وفيهم مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْـلُ
وإن جئتهم أَلْفَيْتَ حولَ بُيُوتهم مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلاَمِهَا الْجَهْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَىْ يُدْرِكُوهُمُ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يَلِيمُوا وَلَمْ يَألُوا
فَمَا كان من خَيْرٍ أَتَوْهُ فإنما تَوَارَثَهُ آباءُ آبائِهِــم قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّىَّ إِلاَّ وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إلا فى مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

وكذلك أيضاً قوله :

مَنْ يَلْقَ يَوْماً عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِماً يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ ما ارتموا حتى إذا طَعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إذا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا
فَضْلَ الجوادِ على الخيلِ البطاء فَلاَ يُعْطِى بِذَلِكَ مَمْنُوناً وَلاَ نَزِقَا
هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَعْيَا بخطبته وَسْطَ النَّدِىِّ إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقَا
لو نال حَىٌّ من الدنيا بمَكْرُمَةٍ أُفُقَ السماءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الأُفُقَا

ما يمدح به الكاتب والوزير

وينبغى أن يكون قصد الشاعر فى مدح الكاتب والوزير ما اختاره قدامة وغيره ، وكذلك ما ناسب حسن الروية ، وسرعة الخاطر بالصواب ، وشدة الحزم ، وقلة الغفلة ، وجودة النظر للخليفة ، والنيابة عنه فى المُعْضِلاَت بالرأى أو بالذات ، كما قال أبو نواس :

إذا نَابَهُ أمْرٌ فإمَّا كَفَيْتَهُ وإمَّا عليــه بالكَفِىِّ تُشِيرُ

وبأنه محمود السيرة ، حسن السياسة ، لطيف الحس ، فإن أضاف إلى ذلك البلاغة ، والخط ، والتفنن فى العلم ؛ كان غاية .

ما يمدح به القائد

وأفضل ما مدح به القائد : الجود ، والشجاعة ، وما تفرع منهما ، نحو التخرق فى الهيئات ، والإفراط فى النجدة ، وسرعة البطش ، وما شاكل ذلك .

ما يمدح به القاضى

ويمدح القاضى بما ناسب العدل والإنصاف ، وتقريب البعيد فى الحق ، وتبعيد القريب ، والأخذ للضعيف من القوىّ ، والمساواة بين الفقير والغنى ، وانبساط الوجه ، ولين الجانب ، وقلة المبالاة فى إقامة الحدود واستخراج الحقوق ، فإن زاد إلى ذلك ذكر الوَرَع ، والتحرج ، وما شاكلهما ، فقد بلغ النهاية .

وصفات القاضى كلها لائقة بصاحب المظالم ، ومن كان دون هذه الثلاث[1] الطبقات سوى طبقة الملك فلا أرى لمدحه وجها ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مدح كل إنسان بالفضل فى صناعته ، والمعرفة بطريقته التى هو فيها ، وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التى ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية : كالجمال ، والأبهة ، وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا ، وكثرة العشيرة ؛ كان ذلك جيداً ، إلا أن قدامة قد أبىٰ منه ، وأنكره جملة ، وليس ذلك صوابا ، وإنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما إنكار ما سواها كَرَّةً واحدة فما أظن أحدا يساعده فيه ، ولا يوافقه عليه .

وقد كره الحذاق أن تمدح الملوك بما ناسب قول موسى شهوات وروى لغيره :

---

(١) هذا استعمال كوفى ، وقد قال عنه الزمخشرى : إنه « بمعزل عن الصواب » والصحيح عند البصريين أن يقال « ثلاث الطبقات » فيعرف المعدود ويضيف إليه العدد .

لَيْسَ فيما بَدَا لنا منك عَيْبٌ عابه الناسُ غَيْرَ أنكَ فانى[1]
أنْتَ نعم المتاع لو كنت تبقى غَيْرَ أن لابقاء للانسان

سليمان بن عبد الملك يعجبه جماله

وذكر عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج من الحمام ، وهو الخليفة ، يريد الصَّلاة ، ونظر فى المرآة فأعجبه جماله ، وكان حَسن الوجه ، فقال : أنا الملك الشاب ، ويروى « الفتى » فتلقته إحدى حظاياه ، فقال لها : كيف ترينى ؟ فتمثلت بالبيتين المتقدم ذكرهما ، فتطير بهما ورجع ، فحم فما بات إلا ميتاً تلك الليلة

وروى عن بعض الملوك أنه قال : ما لهؤلاء الشعراء قاتلهم الله ، ربما ذكرونا شيئاً نحن أكثر ذكراً له منهم فينغصون به علينا أوقات لذتنا ! ! ؟ يعنى بذلك الموت .

مما يعاب على أبى تمام

ومن أشنع ما فى ذلك قول أبى تمام :

فَلْيَطُلْ عمره فلو مات فى طو س مقيما لماتَ فيها غريبا

فما الذى دعاه إلى ذكر الموت ههنا إلا النكد والنغاصة ؟.

مما يقدم قول كعب بن زهير فى الرسول

أجمع الناس على تقديم قول كعب بن زهير يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تحمله الناقة الأدماء مُعْتَجراً بالبردِ كالبدرِ جَلَّى لَيلةَ الظُّلَمِ
وفى عِطَافَيْهِ أو أثناء رَيْطَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللهُ من دين ومن كَرَمِ

والجهال يروون البيت الأول لأبى دهبل الجمحى ، ويناسبه قول العجاج :

يَحْمِلْنَ كلَّ سُؤْدَدٍ وفَخْرِ يَحْمِلْنَ مَاندْرى وَمَالا نَدْرِى

قال الأصمعى : وأصله قول الحارث بن حلزة :

(١) البيتان فى الأغانى (٣ / ١٢٢ بولاق) منسوبين لموسى شهوات ، يقولهما فى عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكان موسى قد سأل بعض آل الزبير حاجة فدفعه عنها ، وقضاها له عبد الله بن عمرو بن عثمان من غير مسألة منه .

وفعلنا بهم(١) كما علم اللـــه وما إن للحائنين دِماء

قال : ولم يقل قطُّ شاعر «كما يعلم» أحسن من هذه الثلاثة المعانى(٢)

قال أبو العباس المبرد : من الشعراء من يجمل المدح ، فيكون ذلك وجهاً حسنا ؛ لبلوغه الإرادة مع خلوه من الإطالة ، وبُعْدِه من الإكثار ، ودخوله فى الاختصار .

الحطيئة

وذلك نحو قول الحطيئة(٣) :

تزور فَتًى يُعْطِي على الحمدِ مالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أثمان المكارم يُحْمَدِ

تزور فَتًى يُعْطى على الحمدِ مالَهُ وَيَعْلَمُ أنَّ المرء غيرُ مخلَّدِ

يَرَى البُخْلَ لا يُبْقِى على المرء مالَهُ وَيَعْلَمُ أنَّ المرء غيرُ مُخَلَّدِ

ورواه غيره * أن المال غير مخلد * .

كَسُوبٌ ومتلافٌ إذا ما سألته تهلّلَ واهْتَزَّ اهْتِزَازَ الْمُهَنَّدِ

مَتَى تأته تَعْشُو إلى ضَوْء ناره تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

---

(١) سقط لفظ « بهم » من المصريتين ، وهو كما ترى ، وورد الشطر الثانى فيهما * وما إن للخائنين ذماء * على أن الخائنين بالخاء المعجمة جمع خائن ؛ وذماء بالذال معجمة أيضا ، والصواب أن الحائنين بالحاء مهملة جمع حائن وهو الهالك وفعله حان يحين حينا ، ودماء بكسر الدال مهملة ، والمعنى وفعلنا بهم فعلا بليغا لا يحيط به إلا علم الله تعالى ، ولا دماء للمتعرضين للهلاك ، أى : لم يطلب بثأرهم ودمائهم .

(٢) سبق (فى ص ١٣٥) الاعتراض على هذا التعبير .

(٣) هكذا وردت رواية الأبيات فى أصول هذا الكتاب ، والبيت الثانى منها لا وجود له فى الديوان (ص ٢٤) ولا معنى لبقائه قط ؛ لأنه من زيادات النساخ لا غير إذ هو عبارة عن تكرير صدر الأول وعجز الثالث .

تصرف فى أبياته هذه فى أصناف المديح ، وأتى بجماع الوصف وجملة المدح على سبيل الاقتصار فى البيت الأخير .

للشماخ

ومثله قول الشّمّاخ :

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الأَوْسِيَّ يَسْمُو إلى العلياء[1] منقطعَ القَرِينِ

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ باليمين

انتهى كلامه .

أفضل مامدح به الملوك

ومن أفضل مامدح به الملوك وأكثره إصابة للغرض ما ناسب قول ابن هَرْمة للمنصور :

له لحظاتٌ عن حِفَافَىْ سريره[2] إذا كرّها فيها عقابٌ ونائل

فأمّ الذى أمّنتَ آمنة الردى وأم الذى أوعدت بالثّكل ثاكل[3]

وقول أبى العتاهية فى مدح الهادى :

يضطربُ الخوف والرجاء إذا حَرّكَ موسى القضيب أو فكرا

وكذلك قول الحزينِ الكنانى فى عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وقد وفَدَ عليه بمصر ، ويروى للفرزدق فى على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وقيل: بل قالهافيه اللعينُ المنقرى ، وقيل : بل الأبيات لداود بن سَلْم[4] فى قُثَمَ بن العباس بن عبد الله بن العباس :

فى كفه خَيْزُرَانٌ ريحهُ عَبِقٌ مِنْ كفِّ أرْوَعَ فى عِرْنِينه شَمَمُ

يُغْضِى حياء وَيُغْضَى من مَهَابته فما يُكَلَّمُ إلاّ حِينَ يَبْتَسِمُ

الشعراء بباب المعتصم

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النميرى فى أمير المؤمنين الرشيد :

---

(١) فى الديوان (ص ٩٦) « إلى الخيرات » .

(٢) المصريتين « خفافى » وهو تصحيف .

(٣) فى المصريتين « فأما . . وأما » وهو تحريف .

(٤) فى سائر الأصول « داود بن مسلم » تحريف ، وانظر ج ٢ ص ٢٥ من هذا الكتاب .

إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله ... أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليدخل ، فقال محمد بن وهب : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر[1]
يحكى أفاعيله فى كل نائلة ... الغيث والليث والصمصامة الذكر

فأمر بادخاله وأحسن صلته .

أمدح بيت

قالوا : لما حضرت الحطيئة الوفاة قال[2] : أبلغوا الأنصار أن أخاهم أمدح الناس حيث يقول :

يغشون حتى ماتهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

قال ثعلب : بل قول الأعشى :

فتى لو يبارى الشمس ألقت قناعها ... أو القمر السارى لألقى المقالدا

أمدح منه .

وقال أبو عمرو بن العلاء : بل بيت جرير :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

أشير ما قيل فى المدح وأسهله .

وقال غيره : بل قول الأخطل :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

وقال دعبل : بل قول أبى الطمحان القيني :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم العقد ثاقبه[3]

---

(١) حفظى «تشرق الدنيا بطلعتهم» (٢) فى المصريتين «قالوا» وليس بشىء .
(٣) حفظى * ... حتى نظم الجزع ثاقبه *

قال : وقد تنازع فى هذا البيت ـ يعنى بيت أبى الطمحان ـ قوم ، وفى بيت حسان فى آل جفنة ، و بيت النابغة :

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كَوَاكِبُ إذا طلعت لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

و بيتُ أبى الطَّمَحَان أشعرُها .

قال الحاتمى : بل بيت زهير :

تراه إذا ماجئتــــه مُتَهَلِّلاَ كأنكَ تُعْطِيه الذِى أنْتَ سائله

وحكى على بن هارون عن أبيه أنه قال : أجمع أهل العلم على أن بيتى أبى نُوَاس أجود ما للمولدين فى المدح ، وهما قوله :

أنْتَ الذى تأخذ الأيدى بحُجْزَتِه إذا الزمان على أبنائه كَلَحَا

وكَلْتَ بالدهرِ عيناً غَيْرَ غافـلة من جُودِ كفك تأسُو كُلَّ ماجَرَحَا

روى الحاتمى عن محمد بن عبد الواحد عن أحمد بن يحيى قال : سمعت ابن الأعرابى يقول : أمدح بيت قاله مولَّد قول أبى نواس :

تَغَطَّيْتُ من دَهْرى بظلِّ جناحه فعيبى ترى دهرى وليس يَرَانى

فلو تسأل الأحداثُ عَنِّى مادَرَت وأين مكانى ماعرفن مكانى

قال صاحب الكتاب : نحن إلى الإنصاف أحوج منا إلى المكابرة والخلاف ، أبو نواس ذهب مذهباً لطيفاً يخرج له فيه العذر والتأويل ، وإلا فما فى صفة الخمول أشد مما وصف ، لا سيا على رواية من روى :

* فلو تسأل الأيام عنى *

ومن جيد ما سمعته لمحدَثٍ ـ وأظنه لابن الرومى فى عبيد الله بن سليمان ابن وهب ، ورأيت من يرويه لأبى الحسين أحمد بن محمد الكاتب ـ :

إذا أبو قاسمٍ جادَتْ لنا يَدُهُ لم يحمد الأجودان : البَحْرُ والمَطَرُ

ولو أضاءت لنـــا أنْوَارُ غُرَّتِهِ تضاءل النيران : الشَّمْسُ والقمر

وإن مضى رأيه أو حدُّ عزمته   تأخر الماضيان : السيفُ والقَدَر
من لم يبت حَذِراً من خوفِ سَطْوته   لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر
ينال بالظنِّ ما يَعْيا العِيانُ به   والشاهدان عليه العَيْنُ والأثر
كأنه وزمامُ الدهرِ فى يده   يرى عواقب ما يأتى وما يَذَرُ

وقال خلف الأحمر : أغلب المدح أكثره مَلَقاً كقول زهير :

تَرَاهُ إذَا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً   كأنك تُعْطيه الذى أنت سائلُه
أخو ثِقَةٍ لا يُهْلِكُ الخمرُ مالَهُ   ولكنه قد يهلك المالَ نائلُه
غدَوْتُ عليه غَدْوَةً فوجدته   قعوداً لديه بالصَّرِيمِ عواذلُه
يُفَدِّينهُ طَوْراً ، وطوراً يَلُمْنَهُ   وأعيى فما يدرين أين مَخَاتِلُه
فأعرضن منه عن كريم مُرَزَّإٍ   عَزومٍ على الأمرِ الذى هو فاعلُه

وقال طُفَيْلٌ الغنوى :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلَقَتْ   بنا نعلُنَا فى الواطئين فزَلَّتِ
أبَوْا أنْ يَمَلُّونا ولو أنَّ أمَّنَا   تلاقى الذى لاَقَوْهُ منا لَمَلَّتِ

وقال الأصمعى : أخلب الشعر قول حمزة بن بيض :

تقولُ لى والعُيونُ هاجعة :   أقِمْ علينا يوماً ، فلم أقِمِ
أى الوجوه انتجعت ؟ قلت لها :   لا أى وجه إلا إلى الحكم
متى يقل حاجِباً سُرَادِقِهِ   هذا ابنُ بِيضٍ بالباب يبتسِمِ
قد كنتُ أسلمتُ فيك مُقْتبلا   فهاتِ إذ حَلَّ أعْطِى سَلَمِى

وسأل الرشيد المفضل الضبي : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال :

أغَرُّ أبلجُ تأتمُّ الهداةُ به   كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

هكذا روايته فيه .

قال شرجبيل بن معن بن زائدة : كنت أسير تحت قبة يحيي ابن خالد ، وقد حج مع الرشيد ، وعديله أبو يوسف القاضى ، إذ

أتاه أعرابى من بنى أسد كان يلقاه إذا حج فيمدحه ، فأنشده شعراً أنكر يحيى منه بيتاً فقال : يا أخا بنى أسد ، ألم أنهك عن مثل هذا الشعر ؟ ألا قلت كما قال الشاعر :

بَنُو مَطَر يوم اللقاء كأنهم أُسُودٌ لها فى غِيل خفَّانَ أشْبُلُ
هُمُ يَمْنَعُونَ الجارَ حَتَّى كأنما لِجَارِهِمُ بينَ السماكين منزل
بَهَالِيلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم فى الجاهليــة أوّل
هُمُ القومُ إن قالوا أصابوا ، وإن دعوا أجابوا ، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعَالَهُمْ وإن أحسنوا فى النائباتِ وأجملوا

فقال أبو يوسف : لمن هذا الشعر أصلحك الله فما سمعت أحسن منه ؟ فقال يحيى : يقوله ابن أبى حفصة فى أبى هذا الفتى ، وأومأ إلىّ ، فكان قوله أسر إلى من جليل الفوائد ، ثم التفت إلىّ وقال : يا شرحبيل ، أنشدنى أجود ما قاله ابن أبى حفصة فى أبيك ، فأنشدته :

نِعْمَ المناخُ لراغبٍ ولراهبٍ ممن تصيبُ جَوَائح الأزمانِ
مَعْنُ بْنُ زائدةَ الذى زِيدتْ به شَرَفاً على شَرَفٍ بنو شَيْبانِ
إن عُــدَّ أيامُ اللقّاء فإنما يوماه يومُ نَدًى ويوم طِعَانِ
يكسو الأسِرّةَ والمنــابرَ بَهْجةً وَيَزِينُها بجَهَارَةٍ وبيانِ
تمضى أسِنّتهُ ويُسْفِرُ وجْهُهُ فى الحربِ عِنْدَ تَغيُّرِ الألْوَانِ
نفسى فداكَ أبا الوليد إذا بدا رَهَجُ السَّنابك والرماح دوانى

فقال يحيى : أنت لا تدرى جيد ما مدح به أبوك ، أجود من هذا قوله :

تَشَابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندرى أىُّ يوميه أفضَل
أيَوْمُ نَدَاهُ الْغَمْرِ، أم يَوْمُ بأْسِهِ ؟ وما منهما إلاّ أغرُّ مُحَجَّل

مما عيب فى المديح

ومما أخذ على الكميت قوله يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

فاعتتب القول من فؤادِىَ والشعر إلى مَنْ إليه مُعْتَتَب
إلى السراج المنيرِ أحمدَ لا يَعْدِلنى رغبة ولا رَهَب
عنه إلى غيره ولو رفع النـاس إلىّ العيونَ وارتقبوا
وقيل : أفرطتَ ، بل قصدتُ ، ولو عَنّفنى القائلون أو ثَلَبوا
إليكَ ياخيرَ من تضمنت الـأرض ولو عاب قولىَ العُيَبُ
لَجّ بتفضيلك اللسان ولو أكْثِرَ فيك الضّجَاج والصخب

قالوا : مَنْ هذا الذى يقول فى مَدْح النبى صلى الله عليه وسلم أفرطت ، أو يعنفه ، أو يثلبه ، أو يعيبه ، حتى يكثر الضجاج والصخب ؟ ! ! وهذا كله خطأ منه ، وجهل بمواقع المدح ، وقال من احتج له : لم يرد النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما أراد علياً رضى الله عنه ، فورّى عنه بذكر النبى صلى الله عليه وسلم خوفاً من بنى أمية .

ومن الشعراء من ينقل المديح عن رجل إلى رجل ، وكان ذلك دأب البحترى ، وفعله أبو تمام فى قصائد معدودة ؛ منها :

* قِدْكَ أتّئِبْ أرْبَيْتَ فِى الغُلَوَاء *

نقلها عن يحيى بن ثابت إلى محمد بن حسان ، فأما الذى قال : « هُنّ بنياتى أنكحهن من شئت » فهو معذور إن لم يُثَبْ ، فأما إن أثيب فذلك منه قلة وفاء ، وفَرْطُ خيانة.

(٧٥) — باب الافتخار

يقال فيه ما يقال فى المديح

والافتخار هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار ؛ فمن أبياتْ الافتخار قول الفرزدق :

أفخر بيت قاله شاعر

إنَّ الذى سَمكَ السَّماء بَنَى لنَا بَيْتاً دَعائمُه أعزُّ وأطْوَلُ

قال أحمد بن يحيى : أفْخَرُ بيت قالته العرب قول امرىء[1] القيس:

ما ينكرُ الناسُ مُنَّا حين نملكهم كانُوا عَبِيداً وكُنَّا نحنُ أربابا ؟

وقال دعبل بن على : أفخر الشعر قول كعب بن مالك :

و ببئرِ بدرٍ إذ يردَّ وجوهَهم جبريل تحتَ لوائنا ومحمد

وقال الحاتمى : قول الفرزدق :

تَرَى النَّاسَ إنْ سِرْنَا يسيرُون خَلْفَنَا وإنْ نَحْنُ أوْ مَأْنَا إلى الناسِ وَقَفُوا

قال : ويتلوه قولُ جرير :

إذا غَضِبَتْ عليكَ بَنُو تميمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وقال آخرون : بل بيت الفرزدق :

ونحن إذَا عَدَّتْ مَعَــدٌّ قديمَها مَكانُ النواصى من وُجُوهِ السوابِقِ

وقال غيرهم : بل قوله لجرير :

وإذا نظرتَ رأيتَ فَوْقَكَ دَارِماً والشَّمسُ حَيْثُ تقطع الأبصارَا

وقيل : بل قول ابن مَيَّادة ــ واسمه الرَّمَّاحُ بن أبرد ــ :

ولو أنَّ قَيْساً قيسَ عيلانَ أقسمتْ على الشمسِ لم يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وأفخر بيت صنعه مُحْدَث عندهم بشار :

إذا ما غضبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هَتَــكْنا حِجابَ الشَّمسِ أوْ قَطَرَتْ دَمَا

إذا ما أعرنا سَيِّداً منْ قَبيلةٍ ذُرَا مِنْبَرٍ صَــــلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

ويروى

* هتكنا سَماء الله أو مَطَرَتْ دَمَا *

(١) لم أجد هذا البيت فى ديوانه ، ولاعثرت عليه فيما نحله امرؤ القيس .

ومن جيد الافتخارِ قولُ بكر بن النَّطَّاح الحنفى :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ منا يَعِشْ بِحُسَامه ومن يفتقر من سائرِ الناس يَسْأَلِ
ونحنُ وُصِفْنَا دونَ كل قبيلةٍ ببأسٍ شَدِيدٍ فى الكِتاب المنزَّلِ
وإنَّا لنلهو بالحروب كما لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يعنى قول الله عز وجل : (قلْ للمُخَلَّفِينَ من الأعرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قوم أولى بأس شديدٍ) فدعوا فى خلافة أبى بكر إلى قتال أهل الردة من بنى حنيفة ، وبسبب هـذا الشعر وأشباههِ طلبه الرشيدُ أشدَّ طلبٍ ، وقال : كيف يفتخر على مُضَر ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير البشر ؟ فهذا افتخار بالشجاعة خاصة .

وممن افتخر بالكثرة أوس ابن مَغْرَاء قال :

ما تطلعُ الشمسُ إلاّ عند أولنا ولا تَغَيَّبُ إلاّ عند أُخرانا

مما أنكره قدامة

وقد أنكر قدامة أن يمدح الإنسان بآبائه دون أن يكون ممدوحاً بنفسه ؛ لأن كثيراً من الناس لا يكونون كآبائهم ، والذى ذهب إليه حسنٌ .

مما أنكره الجرجانى

وأنكر الجرجانى على أبى الطيب قوله :

ما بقومى شَرُفْتُ بلْ شَرُفُوا بى وبنفسى فَخَرْتُ لا بِجُدُودِى

وإنما أخذه من قول على بن جَبَلَةَ حيث يقول :

وما سَوَّدَتْ عِجْلاً مآثرُ غيرهمْ ولكن بهم سادتْ على غيرهم عِجْلُ

قال : وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ، ويغض من حَسَبه ، ويحقر من شأن سلفه ، وإنما طريقة للمدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه ، والآباء تزداد شرفاً به ؛ فجعل لكل واحد منهم حظاً فى الفخر وفى المدح نصيباً ، وإذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين ، بل كان الكل خالصاً لكل فريق منهم ؛ لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ، ومنتقل إلى ولده كانتقال ماله ، فإن رعى وحرس ثبت

وازداد ، وإن أهمل وضُيِّع هلك وبَادَ . وكذلك شرف الوالد يعم القبيلة، وللولد منه القسم الأوفر ، والحظ الأكبر .

من المختار في الفخر

قال صاحب الكتاب : والذى يقع عليه الاختيار عندى ما ناسب قول المتوكل الليثى :

إنا وإنْ أحسابنا كَرُمَتْ لَسْنَا على الأحساب نتكل[1]
نَبْنِي كما كانَتْ أوَائِلُنَا تَبْنِى وَنفْعَلُ مِثْلَ مافعلوا

وقول عامر بن الطفيل الجعفرى :

فإنى وإن كنت ابنَ سيدِ عامرٍ وفارِسَها المشهور فى كل موكب
فما سَوَّدَتْنِى عامرٌ عنْ وِرَاثَةٍ أبى اللهُ أن أسْمُو بِأمٍّ ولا أبِ

ومن أفخر ما قال المولدون قول إبراهيم الموصلى يفتخر بولائه من خزيمة بن حازم النهشلى :

إذا مُضَرُ الحمراء كانت أرومَتِى وقامَ بِمَجْدِى حازمٌ وابن حازم
عَطَسْتُ بأنْفِى شامِخًا وتناوَلَتْ يَدَاىَ الثُّرَيَّا قَاعِداً غيْرَ قَائِمِ

من شعر أبى الحسن فى الفخر

ومن قول السيد أبى الحسن يفخر بقومه بنى شيبان :

يا آل شَيْبَانَ لاغارت نُجُومُكُمُ وَلاخَبَتْ نارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أنتم دعائم هذا الملك مذ ركضت قُبُلُ الخيول لإبرام وتوكيدِ
المنعمون إذا ما أزمة أزمت والواهبون عَتِيقَاتِ المزاويدِ
سيوفكم أفقدت كسرى مَرَازِبَهُ فى يَوْمِ ذى قَارَ إذْ جاءوا لموعودِ

وهذا هو الفخر الحلال غير المدعى فيه ولا المُنْتَحَل .

مما عابه الأصمعى

ومما عابه الأصمعى وغيره قول عامر بن معشر بن أسحم يصف أسيراً أسروه :

(١) فى نسخة « لسنا وإن أحسابنا كرمت . . . يوماً » .

فظل يخالس المذقاتِ فينا ... يُقادُ كأنّه جَمَلٌ رَبيقُ

وذلك بأنه وصف أسيرهم بأنه جائع يخالس القليل المذوق من اللبن ، وإنما ذلك من الجهد .

ومن أجود قصيدة افتخر فيها شاعر قصيدة السَّمَوْأل بن عادياء اليهودى[1] فإنها جمعت ضروب المادح وأنواع المفاخر ، وهى مشهورة .

(٧٦) — باب الرثاء

الفرق بين الرثاء والمدح

وليس بين الرثاء والمدح فرق ؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود به ميت مثل « كان » أو « عدمنا به كيت وكيت » وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت .

سبيل الرثاء

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بين الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام ، إن كان الميت ملكا أو رئيساً كبيراً ، كما قال النابغة فى حِصْنِ بن حُذَيفة بن بدر:

يَقُولون حِصْنٌ ثم تأبى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصنٍ والجبالُ جُنوحُ
ولم تلفظ الموتى القبورُ ، ولم تَزُلْ ... نجومُ السماء ، والأدِيم صَحيحُ
فعمّا قليـــل ثم جاء نَعِيُّه ... فظلّ نَدِىُّ الحى وهْوَ يَنُوحُ

فهذا وما شاكله رثاء الملوك والرؤساء الجِلّة ، وإلى هذا المعنى ذهب أبو العتاهية حين قال :

* مَاتَ الخَلِيفَةُ أيها الثقلانِ *

---

(١) التى أولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

فرفع الناس رءوسهم ، وفتحوا عيونهم ، وقالوا : نَعاهُ إلى الجن والإنس ، ثم أدركه اللين والفَتْرة فقال :

* فـكأنني أفطَرْت فى رَمَضَانِ *

يريد : إنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار فى رمضان نهارا وكل أحد ينكر ذلك علىّ ، ويستعظمه من فعلى ، وهذا معنى جيد غريب فى لفظ ردىء غير مُعْرِب عما فى النفس.

المختار من جيد الرثاء

ومن أفضل الرثاء قول حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة ، ويروى لابن أبى حَفْصَة :

فيَا قبْرَ مَعْنٍ ، كنت أوّلَ حُفْرَةٍ ... من الأرْضِ خُطّتْ للسَّماحَةِ مَضْجَعَا
ويا قبر معن ، كيف واريْتَ جودهُ ؟ ... وقد كان منه البر والبحرُ مُتْرَعَا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميت ... ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعَا
فتى عِيشَ فى معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعَا

وما قصر أبو تمام فى رثائه محمد بن حُمَيْد بالقصيدة التى يقول فيها :

ألاَ فى سبيل الله مَنْ عطلتْ له ... فِجَاج سَبيل الثغر وانثغر الثغرُ
فتى كلما فاضتْ عيُونُ قبيلة ... دَماً ضَحِكَتْ عنه الأحاديثُ وَالنشرُ
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضَّرْبِ وَاعْتَلَّت عليه القنا السُّمْرُ
فتى مات بين الطَّعن والضرب مِيتَةً ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلا فردّهُ ... إليه الحفاظ المرُّ والْخُلُقُ الوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَخَافُ العَارَ حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أوْدُونَه الكُفْرُ
فأثبت فى مستَنقع الموت رِجْله[1] ... وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

وقد أجاد أيضا فى القصيدة التى رثى بها إدريس بن بدر السامى يقول فيها :

(١) فى نسخة « فى مستنقع الموت رحله » .

ولم أنس سَعْىَ الْجُودِ خَلْفَ سريره ... بأكْسَف بالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ
وتَكْبِيرَه خَمْساً عليه مُعَالنًا ... وإن كانَ تَكْبِيرَ الْمُصَلِّين أَرْبَعُ
وما كنت أدرى ـ يعلم الله ـ قَبْلَهَا ... بأن النَّدى فى أهله يتشيع

وليس فى ابتداءات المراثى المولدة مثل قوله :

أصمّ بك الناعى وَإِنْ كان أَسْمَعَا ... وأَصْبحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

يرثى بها محمد بن حميد ، وجمل خاتمتها :

فإن تُرم عن عمر تدانى به المدى ... فخانكَ حتى لم تجد عنه مَنْزعاَ
فما كُنْتَ إلاَّ السَّيْفَ لاقى ضَرِيبَةً ... فَقَطَّعَهَا ثمَّ انْثَنَى فَتَقَطَّعَا

وأبو تمام من المعدودين فى إجادة الرثاء ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر فى هذا من حبيب ، وله فيه طريق انفرد بها ، وذلك أنه قتل جاريته واتهم بها أخاه ، ثم قال يرثيها :

يا مهجة جَثَمَ الحِمام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رَوَّيْتُ من دمها الترابَ ، وربما ... روّى الهوى شَفَتَيَّ من شَفَتَيْهَا
حكمت سيفى فى مجال خناقها ... ومدامعى تجرى على خَدَّيْهَا
فوَحَقِّ نعليها لما وطىء الحصى ... شىءٌ أعزُّ علىّ من نعليها
ما كان قَتْلِيها لأنى لم أكن ... أخشى إذا سقطَ الغبارُ عليها
لكنْ بخلت على الأنام بحسنها ... وَأنفتُ من نظر العيونِ إليها

وقال أيضا فيها على بعض الروايات :

أشفقتُ أن يردَ الزمانُ بغدْرِهِ ... أوْ أُبْتَلَى بَعْدَ الوصال بِهَجْرِهِ
فقتلته ، وله علىّ كرامة ... مِلْءُ الحَشَا ، وله الفؤادُ بأسرهِ
قمرٌ أنا اُسْتخرجته من دَجْنهِ ... لِبَلِيَّتِى وزَفَفْتُهُ من خِدْرِهِ
عَهْدِى بهِ مَيْتاً كأحْسَنِ نائمٍ ... والحزنُ ينحرُ دمعتى فى نحرِهِ

الذى أعرف « ينحر مقلتى » وهو أصح استعارة .

لو كان يدرى الميتُ ماذا بعــده بالحىِّ مِنْهُ بكَى لهُ فى قَــبْرِهِ
غُصَصٌ تكادُ تفيضُ مِنْها نَفْسه ويكادُ يخرجُ قلبه من صَدْرِهِ

والرواية الأخرى أن المتهم بالجارية غلام كان يهواه قتله أيضاً ، فصنع فيه هذه الأبيات ، فصنعت فيه أخت الغلام:

ياويح دِيكَ الجن ، بل تبًّا له ماذا تَضمّن صَدْرُه من غَــدْرِهِ
قتلَ الذى يهوَى وعُمِّرَ بعــده يارَبِّ لا تَمْدُدْ له فى عُمْرِهِ

يكون الرثاء مجملا

ويكون الرثاء مجملا كالمدح المحمل فيقع موقعاً حسناً لطيفاً : كقول ابن المعتز فى المعتضد :

قَضَوْا ما قَضَوْا من أمره ثم قَدَّمُوا إماماً إمام الخــير بين يديْهِ
وصَلَّوْا عليــــه خاشعين كأنهم صُفُوفٌ قِيامٌ للسلام عليــــهِ

وقال فى عبيد الله بن سليمان بن وهب :

قدِ استَوى الناسُ وماتَ الــكمالْ وَصاحَ صَرْفُ الدهر : أين الرجال!
هـــذا أبو العبــاس فى نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال
يا ناصر المـــلك بآرائه بعـــدك للملك ليـالٍ طوَالْ

أرثى بيت

وذكر غير واحد أنَّ أرثى بيت قيل:

أرَادوا ليُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّه فطيبُ تُرَابِ القبر دلَّ عَلَى القبرْ

من عادة القدماء فى الرثاء

ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى قلَل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور ، والعقبان ، والحيات ؛ لبأسها وطول أعمارها ، وذلك فى أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

مذهب المحدثين فى الرثاء

قال أبو على : فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل ، ومذهبهم فى الرثاء أمثل، فى وقتنا هذاوقبله ، وربما جَرَوْا على سنن مَن قبلهم اقتداء بهم وأخذاً بسنتهم كالذى صنع أبو أيوب فى رثائه أبا البيداء الأعرابى وخلف بن حيان الأحمر ومراثيه فيهما فائيتان وقافية مشهورات : إحداهن قوله :

لاَ تَئِلُ الْعُصْمُ فى الهضابِ ولا   شَغْوَاءُ تَغْذُو فَرْخَيْنِ فى لجف

والثانية قوله :   * لو كان حَىٌّ وائلا من التَّلَفْ *

والثالثة قوله فى أبى البيداء :

هَلْ مخطئى يَوْمُهُ عُفْرٌ بشاهقةٍ   تَرْعَى بأَخْيافِهَا شَثًا وطُبّاقا

وكما صنع ابن المعتز يرثى أباه بالقصيدة اللامية المقيدة فى الرمل :

رُبَّ حَتْفٍ بين أثناء الأمــل   وَحياةُ المَرْء ظِلٌّ مُنْتقِـــلْ

وهى أيضاً معروفة ، ولولا اشتهار هذه القصائد ، ووجودها ، وخيفة التطويل بها ؛ لأثبتها فى هذا الموضع .

لا يقدمون نسيبا على الرثاء

وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصــنعون ذلك فى المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبى — وكان علامة — : لا أعلم مَرْثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرَثَّ جَدِيدُ الحبلِ مِنْ أمِّ مَعْبَدِ   بعافية وأخلفت كل موعــد ؟

وعن على بن سليمان ، عن أبى العباس الأحول ، أن القصيدة التى لأبى قحافة أعشى باهلة ، إنما هى لابنة المنتشر ، واسمها الدعجاء .

قال : وقال على بن سليمان : حدثنى أبى أن أولها :

هَاجَ الفوادَ عَلَى عِرْفانِهِ الذِّكَرُ   وذكر خَوْدٍ على الأيام ما يَذَرُ

قد كُنْتُ أذكرها والدار جامعةٌ   والدهر فيه هَلاَكُ الناسِ والشَّجَرُ

هكذا أنشده النحاس والذى أعرف « وذكرميت » وأعرف أيضاً « والدهر فيه هلاك الناس والغير » كذلك أنشدنيه الموصلى فى الأغانى ، ثم عطف النحاس فقال : هذان البيتان لا يُعْرَفَانِ فى أول هذه القصيدة ؛ ومما يزيد الاسترابة بهما أن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد ، وأنا أقول : إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام ، وإلى وقتنا هذا ، ومن بعده ؛ لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحَسْرَة والاهتمام بالمصيبة ؛ وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته . وربما قال الشاعر فى مقدمة الرثاء «تركت كذا» أو « كبرت عن كذا » و « شغلت عن كذا» وهو فى ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء ، وكان الكميت ركاباً لهذه الطريقة فى أكثر شعره ؛ فأما ابن مُقْبِل فمن جَفَاء أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان رضى الله عنه بقصيدة حسنة أتى فيها على ما فى النفس ، ثم عطف وقال :

فَدَعْ ذا ، ولكن علقت حبل عاشق ... لإحدى شعاب الحين والقتل أريب
ولم تُنْسِنِى قَتْلَى قريشٍ ظعائناً ... تحمَّلْنَ حتى كادت الشمسُ تغرب
يطفنَ بغـرِّيدٍ يعلُّ ذا الصبا ... إذا رامَ أركوب الغوايةِ أركبْ
من الهيفِ مبدان ترى نطفاتها ... بمهلكة أحراصهنّ تذبذب

والنسيب فى أول القصيدة على مذهب دريد خير ما ختم به هذا الجلف ، على تقدمه فى الصناعة ، إلا أن تكون الرواية «ظعائن» بالرفع .

مما عيب فى الرثاء

ومما عيب به الكميت فى الرثاء قوله فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وبُورِكَ قبرٌ أنتَ فيهِ ، وبُوركت ... بهِ ــ ولهُ أهْلٌ ــ بذلك يَثْرِبُ
لقد غيَّبُوا برًّا وَحَزْماً ونائِلاً ... عشيةَ واراهُ الضريحُ المنصبُ

حكاه الجاحظ وغيره ، وأظن أن المراد بما عيب الثانى من هذين البيتين ، فأما الأول فجيد .

ومن العجب أن يقول عبدة بن الطبيب فى تأبين قيس بن عاصم :

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ قَيْسُ بْنَ عاصمٍ وَرَحْمَتُهُ ماشــاءَ أن يَتَرَحَّمَا

تحيةُ منْ أَلْبَسْتَهُ منْكَ نِعْمَةً إذا زارَ عن شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّمَا

فما كانَ قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

ويقول الكميت فى تأبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول ، فهلا قال مثل قول فاطمة رضى الله عنها :

أُغْبَرَّ آفاقُ السَّماء وكُوِّرَتْ شَمْسُ النَّهارِ وأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ

فالأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النبيّ كئيبةٌ أَســفًا عليه كثيرةَ الرَّجَفَانِ

فليبكهِ شَرْقُ البلادِ وغَرْبُهَا وليَبْكِهِ مُضَرٌ وكل يَمَانِى

وليبكهِ الطَّوْدُ الْمُعَظَّمُ جَــوُّه والبيتُ ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرُّسُــل المباركُ صنوه صــلّى عليكَ مُنَزِّلُ القُرْآن

صلى الله عليه وسلم ، ورحم وكرم وعظم .

والنساء أشجى الناس قلوبًا عند المصيبة ، وأشدهم جزعًا على هالك ؛ لما رَكَّبَ الله عز وجل فى طبعهن من الخَوَرِ وضعف العزيمة .

على الجزع يبنى الرثاء

وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء ، كما قال أبو تمام :

لَوْلاَ التَّفَجُّعُ لادَّعَى هَضْبُ الحمى وَصَفَا الْمُشَــقَّرِ أنه مَحْزُونُ

فانظر إلى قول جَليلة بنت مرة ترثى زوجها كُلَيبًا ، حين قتله أخوها جَسَّاس ، ما أشجى لفظها ، وأظهر الفجيعة فيه ! ! وكيف يثير كوامن الأشجان ، ويقدح شَرَرَ النيران ، وذلك :

يا ابنة الأقوام إن لُمْتِ فلا تَعْجَلى باللَّوْم حتى تسألى

فإذا أنتِ تبيّنتِ التى عندها اللّوْمُ ولومِى واعْذِلِى
إن تكن أختُ امرىء ليمتْ على جزَعٍ منها عليْه فافعلى
فعلُ جسَّاسٍ على ضنٍّ به قاطعٌ ظهرى ومُدْنٍ أجَلِى
لوْ بعَيْنٍ فُدِيَتْ عينى سوَى أختها وانفقأتْ لم أحْفِلِ
تحملُ العينِ قذَى العينِ كما تحمل الأمُّ قذَى ما تفتلى
إننى قاتــلة مقتــولة فلعل الله أنْ يرْتاحَ لى
يا قتيلاً قوّضَ الدّهْرُ به سقْفَ بيْتيَّ جميعاً من علِ
ورمانى فقدُه من كثَبٍ رمْيَةَ المُصْمَى به المستأْصَلِ
هدمَ البيتَ الذى استحدثتُه وسَعَى فى هدْمِ بيتى الأولِ
مسَّنِى فقدُ كليْبٍ بلظًى مِنْ ورائى ولظى مُسْتقْبِلِى
ليْسَ منْ يبكى ليومَيْن كمن إنما يبكى ليوم ينجلى
درَكُ الثّأْرِ شافيهِ(١) وفى دركى ثأرىَ ثكْلُ المثكل
ليته كان دمى فاحتلبوا دِرَراً منه دمى من أكحلى

أشد الرثاء صعوبة

ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة ؛ لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات ، ألا ترى ما صنعوا بأبى الطيب ـ وهو فحل مجود إذا ذكر المحدثون — فى قوله يذكر أم سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حَنُوطٌ على الْوَجْهِ المكفّن بالجمال

فقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها ؟ وقال الصاحب بن عباد : استعارة حداد فى عرس ، فإن كان أراد الصاحب بالاستعارة الحنوط فقد والله ظَلَم وتعسّف ، و إن كان أراد استعارة الكفن بجمال العجوز فقد اعترض فى موضع اعتراض إلى

---

(١) يروى * يشتفى المدرك بالثأر . . * ويروى أيضا * درك الثأر لشافيه . . *

مواضع كثيرة فى هذه القصيدة ، على أن فيهما يمحو كلّ زلّةٍ ، ويعفّى على كل إساءة

قال الصاحب بن عباد : ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

رِوَاقُ العزِّ فوقَكِ مُسْبَطِرٌّ ... ومُلْكُ علىٍّ ابنِكِ فى كمال

ولعل لفظة الاسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ، وأنا أقول : إن أشد ما هجّنَ هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفوقك؛ فجاء عملا تاماً لم يبق فيه الافضاء .

الجمع بين التهنئة والتعزية

ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة فى موضع ، قالوا : لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد ، فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية ، حتى أتى عبيد الله بن همّام السّلولى فدخل فقال : يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فقد رُزِئْتَ عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر على ما رزئت ، فقد فقدْتَ خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ؛ إذ قضى معاوية نحبه ، ووليت الرياسة ، وأعطيت السياسة ، فأورده الله موارد السرور ، ووفقك لصالح الأمور .

فاصبرْ يزيدُ فقد فارَقْتَ ذا ثِقَةٍ ... واشْكُرْ حِبَاءَ الذى بالملك أصفاكا
لا رُزْءَ أصبح فى الأقوام نعلمهُ ... كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْبَاكا
أصْبَحْتَ والىَ أمر الناس كلهم ... فأنتَ تَرْعاهمُ واللهُ يرعاكا
وفى معاويةَ الباقى لنا خَلَفٌ ... إذا نُعِيتَ ولا نَسْمَعْ بِمَنْعاكا[1]

ففتح للناس باب القول .

(١) فى عامة الأصول «إذا بقيت ولا نسمع بمعاكا» وهو تحريف ولا يتم معه معنى

وعلى هذا السَّنَنِ جرى الشعراء بعده ؛ فقال أبو نواس يعزى الفضل بن الربيع عن الرشيد ، ويهنئه بالأمين :

تَعَزَّ أبا العباس عن خَيْرِ هَالِكٍ بأَكْرَمِ حَيٍّ كان أوْ هُوَ كَائِنُ
حوادثُ أيام تَدُورُ صروفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَـاسِنُ
وفى الحى بالميت الذى غَيَّبَ الثَّرَى فلا المُلْكُ مَغْبُونٌ ولا الموت غَابِنُ

ويروى : * فلا أنت مغبون *

واتبعه أبو تمام بالقصيدة التى أولها :

* مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ *

يقولها للواثق بعد موت المعتصم ، صَرَّفَ الكلام فيها كيف شاء ، وأطنب كما أراد ، واحتج فيها فأسهب ، وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من الشعراء ، وأراد ابن الزيات مُجارَاته فعلم من نفسه التقصير فاقتصر على قوله :

قد قلتُ إذ غَيَّبُوكَ واصْطفقت عليك أيدٍ بالتربِ والطينِ
اذْهَبْ فنعم المُعِينُ كنتَ على الدُّنيـا وَنِعْمَ الظهير للدين
لن يَجْبُرَ اللهُ أمةً فقدتْ مثلكَ إلاَّ بمثـل هارونِ

مما رثى به النساء

ومن جيد مارثى به النساء وأشجاه وأشده تأثيراً فى القلب وإثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك هذا فى أم ولده :

ألا من رأى الطِّفْلَ المُفَارِقَ أمَّهُ بُعَيْدَ الكَرَى عيناه تَبْتَدِرَانِ
رَأى كلَّ أمٍّ وَأبْنَهَا غَيْرَ أمه يبيتان تحتَ الليل يَنْتَجِيان(١)
وبات وَحِيداً فى الفراش تَحثُّه بلابلُ قَلْبٍ دائمِ الخَفَقَانِ

---

(١) فى الأصول « ينتحبان » وهو تصحيف

يقول فيها بعد أبيات :

ألا إن سَجْلاً واجدا قد أرَقْتُهُ من الدمع أو سَجْلَيْنِ قد شَفَيَانى
فلا تَلْحَيَانى إن بكيت ؛ فإنما أداوى بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكاناً فى الثرى خُطَّ لَحْدُهُ لمن كان فى قلبى بكل مكان
أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى فهل أنتما إن عُجْتُ مُنتَظِرَانِ

ومن أشجى الشعر رثاء قوله فى هذه القصيدة :

فهبنى عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لأننى جَليدٌ ، فمَنْ بِالصبر لابن ثمانٍ ؟؟
ضَعِيفِ القُوَى لا يعرف الأجر حِسْبَةً ولا يأتسى بالناس فى الحَدَثانِ
ألا من أمنيه المنى فَأُعِدُّه لعـــثرة أيامى وصَرْفِ زمانى
ألا من إذا ما جئت أكْرَمَ مجلسى وإن غِبْتُ عنه حاطَنِى وَرَعانى
فلم أر كالأقْدَارِ كيف تصيبنى ولا مِثْلَ هذا الدهر كيف رمانى

فهذه الطريق هى الغاية التى يجرى حُذَّاق الشعراء إليها ، ويعتمدون فى الرثاء عليها ، ما لم تكن المرثية من نساء الملوك ، وبنات الأشراف ، وغير ذوات محارم الشاعر ؛ فإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها ، نحو قول أبى الطيب :

وَلَوْ أنَّ النِّساءَ كَمَنْ فَقَدْنَا[1] لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجال

وقوله فى هذه القصيدة :

مَشى الأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً كَأَنَّ الْمَرْوَ من زِفِّ الرِّئالْ

ونحو قوله لأخت سيف الدولة :

يا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ ، يابنت خير أبٍ كِنَايَةً بهما عن أشْرفِ النسبِ
أجِلُّ قَدْرَكِ أنْ تُدْعَىْ مُؤَنَّثَةً وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

---

(١) يروى ☆ ولو كان النساء . . . ☆

ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم ، وما كانت الفراسة تُعْطِيه فيهم ، مع تحزن لمصابهم ، وتفجع بهم ، كالذى صنع أبو تمام فى ابنى عبد الله بن طاهر .

٧٧ — باب الاقتضاء والاستنجاز

ما يستوجبه الاقتضاء

حسب الشاعر أن يكون مدحه شريفاً ، واقتضاؤه لطيفاً ، وهجاؤه إن هجا عفيفاً ؛ فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان ، وداعية القطيعة والهجران ، وقوم يدرجون العتاب فى الاقتضاء ، والاقتضاء فى العتاب ، وأنا أرى غير هـذا المذهب أصْوَبَ ؛ فالاقتضاء طلب حاجة ، وباب التلطيف فيه أجود ؛ فإن بلغ الأمر العتاب فإنما هو طلب الإبقاء على المودة والمراعاة ، وفيه توبيخ ومعارضة لايجوز معها بعد الاقتضاء ، إلا أن الناس خلطوا هذين البابين ، وساووا بينهما .

أحسن المختار فى الاقتضاء

فمن أحسن الاقتضاء ــ على ما تخيرته ، ونحوت إليه ــ قول أمية بن أبى الصلت لعبد الله بن جُدْعَان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك ؟ إنّ شِيمَتَكَ الحياء
وعِلْمُكَ بالحقوق وأنت فَرْعٌ لك الحسبُ المهذّبُ والسناء
خليلٌ لا يغــــيره صَباح عن الخلق الجميل ولا مَسَاء
فأرضُكَ كلُّ مكرمةٍ بَنَتْهَا بَنُو تيم وأنتَ لهـــا سماء
إذا أثنى عليكَ المرءُ يوماً كَفَاهُ من تَعَرُّضِهِ الثناء
تُبَارِى الريح مكرُمَةً وجوداً إذا ما الــكلبأجْحَرَه الشتاء

فأنت ترى هذا الاقتضاء كيف يُلِينُ الصخر ، ويستنزل القَطْر ، ويحُط العُصْمَ إلى السهل ؟ ؟

ومثله قول الآخر :

لأشكُرَنَّكَ مَعْروفاً هَمَمْتَ به إنّ اهتمامكَ بالمعروف معروف

ولا ألومكَ إن لم يُمضِهِ قَدَرٌ   فالشيء بالقَدَرِ المحتومِ مَصْروف

وأما ما ناسب قول محمد بن يزيد الأموى لعيسى بن فرخان شاه ؛ إذ يقول له مستبطئاً :

أبا موسى ، سقى أرضَــكَ دَانٍ مُسْبِلُ القَطْرِ
وزادَ الله فى قَدْرِكَ ما أخملتَ من قدرى
لقـد كُنتُ أرَجِّيكَ لما أخشى من الدهر
فقد أصبحتَ من أوْكَــدِ أسبابى إلى الفقر
أترضى لى بأن أرضى بتقصيرك فى أمرى؟
وقد أفنيت ما أفنَيْـتُ فى شكرك من عمرى
مواعيــد كما أخبت سراب المهمهِ القفرِ
فمن يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر
فلم أحْصُلْ على قيمـة ما قلَّمت من ظفرى
لعـلَّ اللهَ أن يصنـع لى من حيث لا أدرى
فألقاكَ بلا شكر وتلقانى بلا عــذر
ولا أرجوك فى الحاليــن لا العسر ولا اليسر

فهـذا هو العتاب المُمِضُّ ، والتوبيخ الذى دونه الجَلْدُ بالسوط ، بل بالسيف ! !

ومما صنعته فى العتاب على هذا الشكل بعد اليأس المستحكم على ما شرطته :

رَجَوْتُكَ للأمر المُهِمِّ وفى يدى   بَقَايا أُمَنِّى النَّفسَ فيها الأمَانيا
فساوفتَ بى الأيام حتى إذا انقضت   أواخر ما عندى قطعتَ رجائيا
وكنتُ كأنى نازفُ البئرِ طالباً   لإجمامها أو يَرْجِعَ الماء طافيا
فلا هو أبقى ما أصاب لنفسه   ولا هى أعطته الذى كان راجيا

ومن أملح ما رأيته فى الاقتضاء والاستبطاء قول أبى العتاهية لعمر بن العلاء[1] وابن المعتز يسمى هذا النوع مزحاً يراد به الجد ، وهو :

أصابتْ علينا جودكَ العين ياعمرْ فنحن لها نبغى التمائمَ والنشرْ
سنرقيك بالأشعار حتى تملها فإن لم تُفِقْ منها رقيناك بالسورْ

وكنت أنا صنعت فى استبطاء :

أحْسَنْتَ فى تأْخيرها مِنّةً لو لم تُؤَخَرْ لم تكنْ كامِله
وكيفَ لا يحسن تأخيرها بعد يَقِينِى أنها حاصلهْ ؟؟
وَجَنةُ الفردوس يُدْعى بها آجـلةً للمرء لا عاجلهْ
لـكنما أضعف من همتى أيام عمرٍ دونهـا زائلهْ

والعتاب أوسع حداً من الاقتضاء ؛ لأنه يكون مثله بسبب الحاجات ، وقد يكون بسبب غيرها كثيراً ، والاقتضاء لا يكون إلا فى حاجة .

٧٨ — باب العتاب

عقبى العتاب

العتاب ــ وإن كان حياة المودة ، وشاهد الوفاء ــ فإنه باب من أبواب الخديعة ، يسرع إلى الهجاء ، وسبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء ، فإذا قل كان داعية الألفة ، وقَيْدَ الصحبة ، وإذا كثر خشن جانبه ، وثقل صاحبه

للعتاب طرائق

وللعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيـه ضروب مختلفة ؛ فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف ، وقد يعرض فيه المن والإجحاف ، مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف .

أحسن الناس طريقا فى العتاب

وأحسن الناس طريقاً فى عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيـد الجماعة أبو عُبَادة البحترى الذى يقول :

يُرَيِّبُنى الشيءُ تأتى به وأُكبِرُ قَدْرَكَ أن أستريبا

(١) انظر ص ١٣٣ السابقة ثم انظر ص ١٨٤ الآتية .

وأكره أن أتمادى على سبيل اغترار فألقى شَعُوبا
أُكَذِّب ظنى بأنْ قد سَخِطْتَ وما كنت أعهد ظَنِّى كَذُوبَا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن أذمُّ الزمانَ وأشكو الخطوبا
ولا بدَّ من لومة أنتحِي عليك بها مخطئاً أو مصيبا
أيُصْبح وِرْدِىَ فى ساحتيـك طرقاً ومَرْعاىَ مَحْلاً جديبا؟!
أبيعُ الأحِبَّةَ بيعَ السَّوَامِ وآسى عليهم حبيبا حبيبا
ففى كل يوم لنا موقفٌ يشقّقُ فيه الوَدَاعُ الجُيُوبَا
وما كان سُخْطُك إلا الفراقَ أفاضَ الدموعَ وأشجى القلوبا
ولو كنت أعلم ذنباً لما تخالجنى الشكُّ فى أن أتوبا
سأصبرُ حتى ألاقى رضا ك إمَّا بَعيداً وإمَّا قَريبا
أراقبُ رأيكَ حتى يَصِحّ وأنظر عَطْفَكَ حتى يؤُوبا[1]

والذى يقول أيضاً :

للبحترى فى العتاب أيضا

وأصيدَ إن نازعتهُ اللحظَ رَدَّه كليلاً، وإن راجعتهُ القولَ جَمْجَمَا
ثَنَاه العدى عنى فأصبح مُعْرِضاً وأوهمه الواشون حتى تَوَهَّمَا
وقد كان سَهْلاً واضحاً فتوعَّرتْ رُباه وطَلْقاً ضاحكا فتجهَّمَا
أمتَّخِذٌ عِنْدِى الإساءةَ محسنٌ ومنتقمٌ منى امرؤ كان منعما ؟
ومكتسب فىَّ الملامة ماجدٌ يرى الحمد غُنْماً والملامةَ مَغْرَمَا
يخوفنى من سوء رأيكَ معشرٌ ولاخوف إلا أن تجور وتظلما
أعيذكَ أن أخشاك من غير حادثٍ تَبَيَّنَ أو جُرْم إليك تقدّما
ألست المُوَالِى فيك غُرَّ قصائدٍ هى الأنجُم اقتادتْ مع الليل أنجما
ثناءٌ كأنَّ الروضَ فيه مُنَوّرٌ ضُحًا، وكأنَّ الوَشْىَ فيه مُنَمْنَما

(١) فى الديوان « حتى يثوبا » والمعنى واحد .

ولو أننى وَفَّرت شعرى وَقَارَهُ وأجللتُ مدحى فيك أن يتهضما
لأ كبرتُ أن أومِى إليك بأصبع تضرُّعَ أو أدنى لمعـــذرةٍ فما
وكان الذى يأتى به الدهر هيّناً علىَّ وَلَوْ كانَ الحمامَ المُقَدَّما
ولـكننى أعْلِى مَحَلّكَ أنْ أرى مُدِلاًّ وأستحييكَ أن أتعظَّما

فهذا عتاب كما قال :

عِتَابٌ بأطراف القوافى كأنّهُ طِعَانٌ بأطراف القنا المُتَكَسِّرِ

للمؤلف فى العتاب

وقد نحوت أنا هـذا النحو فى كلمة عاتبت بها القاضى جعفر بن عبد الله الـكوفى قلت فيها :

وقد كنت لا آتى إليك مُخَاتِلاً لديكَ ، ولا أثنى عليك تصنُّعًا
ولـكنْ رأيتُ المدحَ فيكَ فريضةً علىَّ إذا كان المديحُ تطوُّعا
فقمت بما لم يخفَ عنك مكانُهُ من القولِ حتى ضاقَ مما توسعا
ولو غـيرُكَ الموسومُ عنى بريبة لأعطيتُ منهامُدَّعى القولِ ماادَّعَى
فلا تتنحالَجْكَ الظنونُ فإنهـــا مآثِمُ ، وَاتْرُكْ فىَّ للِصُّنْعِ مَوْضِعَا
فوالله ما طَوَّلْتُ باللومِ فيكم لساناً ، ولا عرَّضْتُ للذمِّ مَسْمَعَا
ولا ملتُ عنكم بالودادِ ،ولا انطوتْ حِبالى ، ولا وَلَّى ثنائى ، مودّعا
بلى ربما أكرمْتُ نفسى فلم تهُنْ وأجللتها عنْ أنْ تذِلَّ وتخضعا
ولم أرْضَ بالحظ الزهيد،ولم أكنْ ثقيلا على الإخوانِ كَلًّا مُدَفعَا
فبايَنْت لا أنَّ العداوةَ باينتْ وقاطعتُ لا أنّ الوفاءَ تقطعَا
ألوذُ بأكنافِ الرجاء ، وأتقى شماتَ العدا ، إنْ لم أجِدْ فيكَ مَطْمَعَا

لأبى تمام فى العتاب

ومن معاتبات أبى تمام قوله لابن عبد الملك الزيات :

لئن هِمَمِى أوْجَدْنَنِى فى تقلبى مآلاً لقدْ أفقدننى منكَ مَوْئِلاَ
وإن رمت أمراً مُدْبِرَ الوجه إننى لأتْرُكُ حظا فى فنائك مُقْبِلاَ

و إن كنتُ أخطو ساحة المحل إننى ... لأترك رَوْضاً من جَدَاك وَجَدْوَلاَ
كذلك لا يُلْقِى المسافرُ رَحْلَهُ ... إلى منقل حتى يُخَلِّف منقــلا
ولاصاحبُ التطواف يَعْمُرُ منهلا ... ورَبْعاً إذا لم يُخْلِ رَبْعاً ومَنْهَلا
ومن ذا يدانى أو ينائى ؟ وهل فتى ... يحلُّ عُرَى التَّرْحالِ أو يترحلا ؟
فَمُرْنِى بأمرِ أخــوذِى فإننى ... أرى الناس قد أثْرَوْا وأصبحتُ مُرْمِلاَ
فسيَّانِ عندى صادفوا لى مَطْعناً ... أُعَابُ بهِ أو صادفوا لىَ مَقْتَلاَ

لأبى تمام فى العتاب أيضا

ومن قصيدة أخرى لأبى تمام :

تَقَطَّعتِ الأسبابُ إن لم تُغِرْلها ... قُوَى أو يصلها من يمينك واصلُ
سوى مَطْلَبٍ يُنْضى الرجاء بطوله ... وتخلقُ إخلاق الجفون الوسائلُ
وقد تألفُ العينُ الدجى وَهْوَقَيْدُهَا ... ويُرْجَى شِفاءُ السمِّ والسمُّ قاتلُ
ولى عِدَةٌ تمضى العُصور و إنها ... كعهدك من أيام مِضْرَ لحَائِلُ(١)
سِنُونَ قَطَعْنَاهُنَّ عَشْراً كأنَّما ... قطعنا لقربِ العهدِ منها مراحلُ(٢)
و إنَّ جزيلات الصنائع لامرىء ... إذا ما الليالى نا كَرَتْهُ مَعَاقِلُ
و إنَّ المعــالى يُسْتَرَمُّ بناؤها ... سريعاً ، كما قد تسترم المنازلُ
ولو حاردت شَوْلٌ عذرتُ لقاحها ... ولـكن حُرِمْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حافلُ
منحتكها تشفى الجْوَى وهْوَ لاَعِجٌ ... وتبعث أشجان الفتى وَهْوَ ذَاهِلُ
تردُّ قوافيها إذا هى أرسلتْ ، ... هَوَامِلَ مجْدِ القوم وَهْىَ هَوَامِلُ
وكيف إذا حلَّيتها بِحُلِيِّهَا ... تكون وَهَذَا حُسْنُها وهى عاطلُ ؟!؟
أكابِرَنا ، عطفاً علينا ؛ فإننا ... بنا ظَمَأٌ بَرْحٌ وأنتم مَنَاهِلُ

وقال ابن الرومى لأبى الصقر إسماعيل بن بلبل يعاتبه فى قصيدة جيدة مختارة :

---

(١) فى الديوان (٢٥٩) « ولى همة تضنى العصور . . . لخامل » .
(٢) أى : كأن الذى قطعناه مراحل.

لابن الرومى يعاتب إسماعيل ابن بلبل

عَقِيلَ الندى ، أطلق مدائحَ جمة خواسىَ حَسْرَى قد أَبتْ أن تُسرَّحا
وكُنْتَ متى تُنشَدْ مديحاً ظلمته يكن لك أهجى كلّما كان أمدحا
عذرتك لو كانت سَماء تقشّعت سحائبها أو كان روضٌ تَصوّحا
ولكنها سُقْيَا حُرِمْت رَوِيهَا وعارضها مُلْقٍ كلا كلَ جُنَّحَا
وأكْلاءُ معروف حميت مَرِيعها وقدعادمنها الحَزْنُ والسهل مَسْرَحَا
فيالك بحراً لم أجد فيه مَشْرَباً وإن كان غَيْرِى واجداً فيه مَسْبَحَا
مديحى عصَا مُوسى ، وذاك لأننى ضرَبْتُ به بحر الندى فتضحْضَحا
فياليت شعرى إن ضَرَبْتُ به الصَّفَا أيحدث لى فيه جَدَاوِلَ سُيَّحا
كتلك التى أبدت ثرى البحر يا بسا وَشَقَّتْ عُيُوناً فى الحجارة سُفَّحا
سأمْدَحُ بعض الباخلين لَعَــلّه إذا أطّرَدَ المقياسُ أن يَتَسَمَّحَا

فهذا هو الذى لا يبلغ جودة ، ولا يجارى سَبْقاً ، على أن البحترى قد تقدم إلى بعض المعنى فى قوله للفتح بن خاقان :

غَمَامٌ خَطَانِى صَوْبُهُ وَهْو مُسْبِلٌ وبَحْرٌ عَدَانى فَيْضُهُ وَهْو مُفْعَمُ
وبَدْرٌ أضاء الأرض شَرْقاً ومَغْرِباً ومَوْضع رَحلى منهُ أسود مظلم
وَمَا بَخِلَ الفَتْحُ بن خاقان بالندى ولكنها الأقدارُ تُعْطِى وَتَحْرِمُ

المتنبى يعاتب سيف الدولة

وأما أبو الطيب فكان فى طبعه غلظة ، وفى عتابه شدة ، وكان كثير التحامل ، ظاهر الكبر والأنفَةِ ، وما ظنك بمن يقول لسيف الدولة :

يا أعدَل الناسِ إلا فى معاملتى فيكَ الخِصامُ وأنتَ الخصمُ والحَكَمُ
أُعِيذُها نَظَرَاتٍ مِنكَ صادِقَةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظره إذا استَوتْ عِنْدَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعتْ كلماتى مَنْ به صَمَمُ

أنامُ مِلْءَ جُفُونى عن شواردها ... ويَسْهَرُ الناس جرّاها ويختصم
وجاهـلٍ مَدّهُ فى جهلهِ ضَحكى ... حتى أتتـهُ يَدٌ فرّاسـةٌ وفَمُ
إذا رأيتَ نُيُوبَ اللّيْثِ بارِزةً ... فلا تظُنّنّ أنّ الليْثَ يَبْتَسِمُ

فهذا الكلام فى ذاته فى نهاية الجودة ، غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية فى القبح والرداءة ، وإنما عرّضَ بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة ويعارضونه فى أشعاره ، والإشارة كلها إلى سيف الدولة ، ثم قال بعد أبيات :

يا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نفارقهم ... وِجْدانُنا كلّ شىء بعدكم عَدَمُ
ما كان أخلَقَنا منكم بتَكْرِمةٍ ... لو أنّ أمْرَكُمُ مِن أمرنا أَمَمُ
إن كانَ سَرّكم ما قالَ حاسدُنا ... فما لجُرحٍ إذا أرضاكم ألمُ
وبيننا لو رَعيتُم ذاكَ مَعْرِفةٌ ... إنّ المعارفَ فى أهْل النهى ذِمَمُ
كم تطلُبُون لنا عيْباً فيُعْجِزَكُمْ ... ويكرَه الله ما تأتون والكَرَمُ؟!
ما أبعدَ العَيْبَ والنقصانَ من شَرَفى ... أنا الثرَيا وذَانِ الشيبُ والهرَمُ
ليْتَ الغمامَ الذي عندى صَوَاعِقُهُ ... يُزِيلهُنّ إلى مَنْ عنـدهُ الدِّيَمُ
أرى النّوَى يقتضينى كلّ مَرْحَلةٍ ... لا تَستقل بها الوَخّادة الرُّسُمُ
لئن تركن ضميراً عن ميامننا ... ليحـدُثَنّ لمن ودّعتهم ندم

وإنما قال أولا * ليحدثن لسيف الدولة الندم * ثم بدله ، وليس هذا عتابا ، لكنه سباب ، وبسبب هذه القصيدة كاد يقتل عند انصرافه من مجلس إنشادها ، وهذا الغرور بعينه .

عتاب الأكفاء

فأما عتاب الأكفاء ، وأهل المودات ، والمتعشقين من الظرفاء ، فبابةٌ أخرى جارية على طرقاتها .

قال إبراهيم بن العباس الصولى يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد تغير عليه لما وَزَرَ :

للصولى يعاتب ابن الزيات

وكُنْتَ أخى بإخاء الزّمان فلما نَبا صِرْتَ حَرْباً عوَانا
وكنْتُ أذمُّ إليكَ الزمانَ فأصْبَحْتُ فيك أذمُّ الزمانا
وكنْتُ أُعِدُّكَ للنّائباتِ فها أنا أطلب منـك الأمانا

وهذا عندى من أشد العتاب وأوْجَعِهِ .

لأبى الحسن

ومن أكرم العتاب قولُ السيد أبى الحسن أدام الله سيادته وسعادته :

وإنى لأطرى كلّ خِلّ صَحِبْتُهُ وأنتَ ترى شتْمى بغـير حياء
ستعلم يوماً ما أسأتَ لصاحبٍ تَكَرُّمَ أخلاق وحُسْنَ وفائى

لسعيد بن حميد

ومن مليح ما سمعتُ قولُ سعيد بن حميد يعاتب صديقاً له :

أقلِلْ عِتابك فالْبَقاء قليلُ والدّهْرُ يَعْدِلُ تارَةً ويَميلُ
لم أبْكِ منْ زمنٍ ذَممْتُ صُروفه إلاّ بكيْتُ عليهِ حينَ يزول
ولـكل نائبـة ألمّتْ مُدّةٌ ولـكل حال أقبلتْ تحويل
فالمنتمونَ إلى الإخاء عصابة إن حُصِّلُوا أفنامُم التحصيلُ
ولعل أحداثَ المنيةِ والردى يوما ستصدع بيننَا وتحول
ولئن سبقتُ لتبكينّ بحسْرةٍ وليـكثرَنّ عَلَيّ منك عويلُ
ولَتُفْجعَنّ بمخلصٍ لك وَامِقٍ حَبْلُ الوفاء بِحَبْلهِ مَوْصُول
ولئن سَبَقْتَ، ولاَ سبقتَ، ليمضيَنْ مَنْ لا يُشاكله لَدَىّ خليلُ
وليذهبنّ بهاء كلّ مروءَةٍ وليُفْقَـدَنّ جمـالها المأهول
وأرَاكَ تـكلف بالعتاب وَوُدُّنا صافٍ، عليْه منَ الوفاء دَليلُ
وُدٌّ بدَا لِذَوِى الإخاء جمالهُ وبَدَتْ عليه بَهْجَة وقبُولُ
ولعلّ أيّامَ الحياةِ قَصيرة فعلام يكثر عَتْبُنا ويَطُولُ

إلى ههنا أومأ أبو الطيب بقوله :

ذَرِ النفس تأخُذْ وُسْعها قبل بَيْنها فَمفـترق جاران دارُهُما الْعُمْـرُ

وأشار إليه أيضا بقوله ، وأردتُ البيتَ الأخير :

زَوِّدِينا بحسن وجْهك ما دا م فَحُسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ

وصِلِينا نَصِلْكِ فى هذهِ الدنيا فإن المقام فيها قليلُ

والجميع من قول الأول :

ولقد علمتَ فلا تكن متجنيا أن الصدود هو الفراق الأول

حَسْبُ الأحِبة أن يُفرِّق بينهم رَيْبُ المنون فما لنا نستعجلُ

إلا أن ابن حميد قد فنن و بين ، وشرح ما أجمل غيره بقوله « لئن سبقتُ أنا » « ولئن سبقتَ أنت ، ولا سبقت أنت » فلا بذلك فضل بين، ورجحان ظاهر.

وما أحسن إيجاز الذى قال :

العمر أقصر مُدّةً مِنْ أن يُمحقَ بالعتاب

لبشار بن برد

وقال أبو المحدثين بشار :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقَكَ لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُه

فعِشْ وَاحِداً أوْ صِلْ أخاك فإنه مُقَارِف ذنبٍ مَرّةً ومُجَانِبُهْ

إذا أنت لم تَشْرَبْ مِراراً على القَذى ظمئتَ، وأىُّ الناس تصفو مَشَارِبُهْ

٧٩ — باب الوعيد والإنذار

كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعّدُونَ بالهجاء ، و يُحَذِّرون من سوء الأُحْدُوثة ، ولا يُمْضُون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت معها .

لابن مقبل

قال ابن مقبل :

بنى عامر ، ما تأمرون بشاعر تخيَّر آيات الكتاب هجائيا؟

أأعفو كما يعفو الكريم فإننى أرى الشَّغْبَ فما بيننا متدانيا

أمْ أغمِضُ بين الجلد واللحم غمضة بمِبرد رومى يَقُطُّ النواصيا

فأما سراقلت الهجاء فإنها كلام تهاداه اللئام تهاديا

أمَ أُخيِطُ خَبْطَ الفيل هامةَ رأسهِ بجَرْدٍ فلا يُبْقِى من العظم باقياً

وعندى الدهيم لو أحلُّ عقالها فتصبح لم تعدم من الجن حاديا

شبه لسانه بمبرد رومى لمضائه ، وشبه القصيدة التي لو شاء هجاهم بها بالدهيم وهى الداهية ، وأصل ذلك أن الدهيم ناقة عمرو بن زبَّانَ الذُّهْلى التى حملت رءوس بنيه معلقة فى عنقها ، فجاءت بها الحى ، فضرب بها المثل للداهية .

جرير وقال جرير لبنى حنيفة ، وكان ميلهم مع الفرزدق عليه :

أبنى حنيفة أحكِموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أبنى حنيفة إننى إنْ أهجكم أدع اليمامة لا توارى أرنبا

« أحكموا » كفوا ، من حكمة اللجام .

وقال أيضا لتيم الرباب رهط عمر بن لجأ :

يا تَيمُ تيمَ عدِىٍّ لاأبا لَكُمُ لا يلقينكُمُ فى سَوْأةٍ عُمَرُ

وكان على بن سليمان الأخفش فى صباه يعبث بابن الرومى لما يعلم من طيرته ، فيجعل من يقرع الباب عليه بكرة ويتسمى له بأقبح الأسماء ، فيمنعه ذلك من التصرف ، فقال يتوعده :

لابن الرومى قولوا لِنَحْوِيِّنَا أبى حسن إنَّ حُسَامى متى ضربْتُ مضى

وإنَّ نَبلِى متى هَممْتُ بأنْ أرمِىَ نَصَّلْتُهَا بجمر غَضَى

لا تحسَبَنَّ الهجاء يحفل بالـــرفعِ ولاَ خفضِ خافضٍ خفضا

ولا تَخَلْ عَوْدَتِى كبادئتى سأسعط السمَّ من عصى الحضضا

أعرف فى الأشقياء لى رجلاً لا ينتهى أو يصيرَ لى غرَضَا

يُليحُ لى صفحَةَ السلامةِ والسِّـــلْمِ ، ويُخفى فى قلبه المرضا

يضحى مَغيظًا علىّ أنْ غضبَا للهُ عليه ونلتُ منه رضا
وليس تُجْدِى عليه مَوْعِظتى إن قدَّرَ الله حَيْنَهُ فقضى
كأننى بالشقىِّ معتذراً إذا القوافى أذقنهُ مَضَضا
يَنْشُدُنى العهدَ يوم ذلك والــعهْدُ خفار إذا له قبضا
لا يأمنَنَّ السفيهُ بادرتى فإننى عارضٌ لمن عرضا
عندى له السوطُ إن تلوَّمَ فى الــسَّيْر وعندى اللجامُ إنْ ركضا
أسمعت أنباء صِيتى أبا حسنٍ والنصح لاشك نصح من مَحَضا
وَهْوَ مُعافَى من السهاد فلا يَجْهَلْ فيشرَى فراشه قضضا
أقسمتُ بالله لا غفرت له إنْ وَاحدٌ من عروقه نَبَضَا

وكذلك قد فعل ، وقد مزقه بالهجاء كل ممزق ، وجعله مُثْلَة بين أصحابه ، على أن الأخفش كان يتجلد عليه ، ويُظْهر قلة المبالاة به ، وهيهات ! وقد وسمه سمة الدهر ، وسامه سوم الخسف والقهر . ومما قلته فى هذا الباب :

للمؤلف فى الوعيد

يا مُوجعى شَتْماً على أنه لوفَرَكَ البرغوثَ ما أَوْجَعا
كلٌّ له من نفسه آفةٌ وآفة النحلة أن تلسعا

وقلت من قصيدة خاطبت بها بعض بنى منداد :

من يصحبِ الناسَ مَطْوِيًّا على دَخَلٍ لا يَصْحَبوه ؛ فَخَلُّوا كلَّ تَدْخِيلِ
لا تستطيلوا على ضَعْفى بقوتكم إنَّ البعوضةَ قد تَعْدُو على الفيل
وجانبوا المَزْحَ ؛ إنَّ الجدَّ يَتبعهُ وَرُبَّ مُوجعةٍ فى إثر تقبيل

ومنها بعد أبيات لا تليق بالموضع خوف الحشو :

يا قوم لاَ يَلْقَيَنَّ مِنْكُمُ أَحَدٌ فى المهلكات ؛ فإنى غير مغلول
لا تَدْخلوا بالرِّضَا منكم على غَرَرٍ فَتُخْرِجُوا الليْثَ غَضْبَاناً من الغيل
إلاَّ تَكُن حَمَلَتْ خيراً ضمائركم أَكُنْ تأبَّطَ شراً ناكحَ الغُولِ

(٨٠) — باب الهجاء

خير الهجاء

يروى عن أبى عمرو بن العَلاَء أنه قال : خَيْرُ الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها ، نحو قول أوس :

إذا ناقةٌ شُدَّتْ برحلٍ ونمرقٍ　　إلى حَيِّكُمْ بَعْدِى فضلَّ ضَلاَلُهَا

واختار أبو العباس قول جرير :

لو أنّ تغلبَ جُمِّعَتْ أحْسَابُها　　يومَ التفاخرِ لم تَزِنْ مِثْقَالاَ

ومثل قوله :

فَغُضِّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيْرٍ　　فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلاَبَا

الهجاء المقذع

وبين الاختيارين تناسب فى عفة المذهب ، غير أن بيت جرير الثانى أشد هجاء لما فيه من التفضيل ، فقد حكى محمد بن سَلام الْجُمَحِى عن يونس بن حبيب أنه قال : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وهو الإقذاع عندهم .

عقوبة الهجاء فى الإسلام

قال النبى صلى الله عليه وسلم « من قال فى الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هَدَر » ولما أطلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحطيئة من حَبْسِه إياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر قال له : إياك والهجاء المُقْذِع ، قال : وما المُقْذِع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر ، ولكن حَبَانى هؤلاء فمدحتهم وحَرَمنى هؤلاء فذكرت حرمانهم ولم أنل من أعراضهم شيئاً ، وصرفت مدحى إلى مَنْ أراده ورغبت به عمن كرهه وزَهِدَ فيه ، يريد بذلك قصيدته المهموزة التى يقول فيها:

وآنيتُ العَشاء إلى سُهَيْلٍ　　أو الشِّعْرَى فطال بى الإناء

أبلغ الهجاء

وهى أحبث ما صنع . وفيها أو من أجلها قال خلف الأحمر : أشد الهجاء أعفه وأصدقه ، وقال مرة أخرى : ماعَفَّ لفظه وصدق معناه ، ومن كلام صاحب الوساطة : فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسَهُلَ حفظه ، وأسرع عُلُوقُه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن .

ومما يدل على صِحّةِ ما قاله صاحب الوساطة وحُسْنِ ما ذهب إليه إعجابُ الحُذّاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زهير فى تشككه وتهزله وتجاهله فيما يعلم:

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساء
فإن تكنِ النساء مُخَبّآتٍ فَحُقٌّ لكلِّ محصنةٍ هداء

وإن هذا عندهم من أشد الهجاء وأمَضّه .

ولما قدم النابغة بعد وقعة حِسْيٍ سأل بنى ذبيان : ما قلتم لعامر بن الطُّفَيلِ وما قال لكم ؟ فأنشدوه ، فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ، ولكنى سأقول ، ثم قال :

فإنْ يَكُ عامرٌ قد قال جهلاً فإنّ مَطِيّةَ الجهل[(١)] السِّبَابُ
فكنْ كأبيكَ أو كأبى بَرَاء تُصَادِفْكَ الحكومة والصوابُ[(٢)]
فلا يذْهَبْ بلبك طائشاتٌ[(٣)] من الخُيَلاَء ليس لهنّ باب

---

(١) فى إحدى روايات الديوان ✲ فإن مطية الجهل . . . وفيه « الشباب »
(٢) فى الديوان ✲ توافقك الحكومة . . . .
(٣) فى الديوان ✲ فلاتذهب بلبك طاميات ✲ والطاميات : المرتفعات ، والخيلاء : التكبر والاختيال ، وقوله « ليس لهن باب » معناه لاينكشفن عنه ولا مفرج له منهن .

فإنك سوف تحلُمُ أو تناهى(١) إذا ماشبت أو شاب الغرابُ
فإن تـكن الفوارسُ يوم حِسْيٍ أصابوا من لقائك ما أصابوا
فما إن كان من سبب بعيد(٢) ولـكن أدركوك وهم غِضَابُ

فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شقّ عليه ، وقال : ما هجانى أحد حتى هجانى النابغة ، جعلنى القوم رئيساً ، وجعلنى النابغة سفيهاً جاهلا وتهكم بى !

وروى أن شاعراً مدح الحسين بن على رضى الله عنهما ، فأحسن عطيته ، فعوتب على ذلك ، فقال : أترون [أنى] خفت أن يقول إنى لست ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابن علىّ بن أبى طالب ؟ ولـكن خفت أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولست كعلىّ ، فيصدق ويحمل عنه ، و يبقى مخلداً فى الـكتب ، ومحفوظاً على ألسنة الرواة ، فقال الشاعر : أنت والله يا ابن رسول الله أعلم بالمدح والذم منى ، وقد وقع الحسن بن زيد بن الحسين بن على فى بعض ما قال جَدُّه ، قال فيه ابن عاصم المدينى ، واسمه محمد بن حمزة الأسلمى :

له حَقٌّ ، وليس عليه حقٌّ ومهما قال فالحَسَنُ الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا عليه لأهلها وَهُوَ الرسول

مذاهب الشعراء فى الهجاء

وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب ، إلا جريرا فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة ، و إذا هجوتم فخالفوا ، وقال أيضا : إذا هجوت فأضحك . وسلك طريقته فى الهجاء سواء على بن العباس ابن الرومى ، فإنه كان يطيل و يُفْحِشُ ، وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح ؛

(١) فى الأصول . . سوف تحكم . . والتصويب عن الديوان .
(٢) فى الديوان * فما إن كان من نسب بعيد *

لاتساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحًا أحاطت به النفس علما ، وقبلته يقينا فى أول وَهْلة ، فكان كل يوم فى نقصان لنسيان أو مَلَل يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح ، على أن يكون المهجو ذا قدر فى نفسه وحَسَبه ؛ فأما إن كان لا يوقظه التلويح ، ولا يؤلمه إلا التصريح ؛ فذلك ، ولهذه العلة اختلف هجاء أبى نواس ، وكذلك هجاء أبى الطيب فيه اختلاف ؛ لاختلاف مراتب المهجوين .

لربيعة الرقى فى الهجاء

فمن التفضيل فى الهجاء قول ربيعة بن عبد الرحمن الرقى :

لشتّان ما بَيْنَ اليزيدين فى الندى ... يَزيدِ سُلَيم والأغرِّ ابنِ حاتِمِ
فهمُّ الفتى الأزْدِىّ إتلافُ مالهِ ... وهمُّ الفتى القيسىّ جمع الدراهم
فلا يحسبُ التّمتام أنى هَجَوْتهُ ... ولكننى فَضّلْتُ أهل المكارم

لزياد الأعجم

ومن الاستحقار والاستخفاف قولُ زياد الأعجم :

فَقُمْ صاغراً يا شَيْخَ جَرْم فإنما ... يقال لشيخ الصدق : قُمْ غيرَ صاغرِ
فمن أنتمُ ؟ إنا نسينا مَنَ انتمُ ... وريحكم من أى ريح الأعاصر؟!!
أأنتم أولى جِئْتُمْ مع النّمل والدّبا ... فطارَ ، وهذا شيخكم غيرُ طائر
قَضى الله خَلْقَ الناسِ ثم خُلِقْتمُ ... بَقِيّةَ خَلْقِ الله آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تسمعوا إلا بمن كان قبلكم ... ولم تدركوا إلا مدق الحوافرِ

للطرماح

وأخذ الطرماح منه هذا المعنى فقال :

وما خُلِقتْ تَيْمٌ وعَبْدُ مَنَاتِها ... وضَبّة إلا بَعْدَ خَلْقِ القبائلِ

لجرير

ومن الاحتقار أيضاً قولُ جرير فى التيم :

ويُقْضى الأمْرُ حينَ تغيبُ تَيْمٌ ... ولا يُسْتأْذَنونَ وَهُمْ شُهودُ
فإنكَ لو رأيت عبيد تيم ... وتَيْماً قلتَ : أيُّهُمُ العَبيدُ ؟

لأبى هفان فى التهكم

ومن مليح التهكم والاستخفاف قول أبى هفان :

سُلَيْمانُ مَيْمُونُ النقيبة حازمٌ ولكنهُ وَقْفٌ عليهِ الهَزائمُ
ألاَ عُوِّذُوهُ مِنْ توالى فتُوحهِ عَساهُ تَرُدُّ العَيْنَ عنه التمائمُ

وفيه يقول ابن الرومى :

قِرنُ سليمان قد أضرَّ به شَوْقٌ إلى وجهِـهِ سيتلفهُ
كمْ يَعِدُ القرنَ باللقاء ؟ وكمْ يكذب فى وعدهِ ويخلفه ؟
لا يَعْرِفُ القِرْنُ وَجْهَهُ ، وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرْسَخٍ فَيَعْرِفُهُ

أخذ معنى البيت الأخير من قول الخارجى وقد قال له المنصور : أى أصحابى كان أشد إقداماً فى مبارز تـكم ؟ فقال : ما أعرف وجوههم ، ولـكن أعرف أقفاءهم ، فَقُلْ لهم يدبروا لأعرف .

أجود الهجاء

وأجود ما فى الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان فى الخِلْقَة الجِسْمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم ، وقدامة لا يراه هجوا البتة ، وكذلك ما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفسادِ لا يراه عَيباً ، ولا يعد الهجو به صوابا ، والناس ـ إلا من لا يُعَدُّ قِلَّةً ـ على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد فى الطباع [وقد جاء] ما أكد ذلك من أحكام الشريعة .

لأبى الحسن فى الهجاء

وقد جمع السيد أبو الحسن أنواع الفضائل وسلبها بعض مَنْ رأى ذلك فيه صوابا ، فقال :

وَخِلٍّ لا سبيلَ لصَرْمِ حَبْلِهِ تَعرَّضَ لى بحَتْفِ فَرْطَ جهله
رَدِئُ الظنِّ لا يأوِى لخلق ولا يُؤْوَى إليهِ لسوء فعله
يُصَدِّقُ هاجِساً يغرى ، ويُغْرَى بتكذيبِ العيانِ لضعفِ عقلهْ
ويشنأُ كلَّ ذى دينٍ وعلمٍ وأصلٍ ثابت لفساد أصلهْ

وكان السيد أبو الحسن فى هذا الباب الذى سلكه من الهجاء كما قال وَلِىُّ إحسانه :

إذا لم تجد بداً من القولِ فانتصف بحد لسان كالحسام المهندِ
فقد يدفعُ الإنسانُ عن نفسه الأذى بِمقْوَلِه ، إن لم يدافعه باليدِ

أهجى بيت

ويقال : إن أهجى بيت قاله شاعر قول الأخطل فى بنى يربوع رهط جرير :

قوم إذا استنبح الأضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأمهم : بُولِى على النارِ

لأنه قد جمع فيه ضروبا من الهجاء : فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلا يهتدى بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة ، ورماهم بالبخل بالحطب ، وأخبر عن قِلتها وأن بَوْلَةً تطفئها ، وجعلها بولة عجوز ، وهى أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم وابتذالها فى مثل هذا الحال ، يدل بذلك على العقوق والاستخفاف ، وعلى أن لا خادم لهم ، وأخبر فى أضعاف ذلك ببخلهم بالماء ، وقال محمد بن الحسين بن عبد الله الأنصارى : إنه رماهم فى هذا البيت بالمجوسية ؛ لأن المجوس لا ترى إطفاء النار بالماء ، ولا أدرى أنا كيف هذا والبول ماء غير أنه ماء نجس قذر ؟

وقيل لبنى كليب : ما أشد ما هُجِيتُمْ به ؟ قالوا : قول البعيث :

ألَسْتَ كليبياً إذا سيمَ خطةً أقر كاقرارِ الحليلةِ للبعلِ
وكلّ كليبىّ صَحيفةُ وجهه أذل لأقدام الرجالِ من النعلِ

وكان النابغة الجعدى يقول : إنى وأوسا لنبتدر باباً من الهجاء ، فمن سبق منا إليه غلب صاحبه ، فلما قال أوس بن مغراء :

لعمركَ ما تَبلى سرابيلُ عامرٍ من اللؤمِ مادامتْ عليها جلُودُها

قال النابغة : هذا والله البيت الذى كنا نبتدره . والذى أراه أنا على كل

حال أن أشد الهجاء ما أصاب الغرض ، ووقع على النكتة ، وهو الذى قال خلف الأحمر بعينه .

(٨١) باب الاعتذار

وينبغى للشاعر أن لايقول شيئاً يحتاج أن يعتذر منه ، فإن اضطره المقدار إلى ذلك ، وأوقعه فيه القضاء ؛ فليذهب مذهباً لطيفاً ، وليقصد مقصداً عجيباً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ، وكيف يمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه ، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ ، لاسيما مع الملوك وذوى السلطان ، وحقه أن يلطف برهانه مدمجا فى التضرع والدخول تحت عفو الملك ، وإعادة النظر فى الكشف عن كذب الناقل ، ولا يعترف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه ، ويُحِيلُ الكذب على الناقل والحاسد ، فأما مع الإخوان فتلك طريقة أخرى

للأصبهانى فى الاعتذار — وقد أحسن محمد بن على الأصبهانى حيث يقول:

العذرُ يلحقه التحريف والكذب ... وليس فى غير مايرضيك لى أرب
وقد أسأتُ فبالنُّعمَى التى سلَفَتْ ... إلا مَنَنْتَ بعفوٍ ماله سَبَبُ

لإبراهيم بن المهدى — وقال إبراهيم بن المهدى للمأمون فى أبيات يعتذر إليه :

اللهُ يعلمُ ما أقولُ فإنها ... جهد الألية من مُقِرٍ خاضع
ما إن عصَيتكَ والغواة تمدنى ... أسبابها إلا بِنِيَّةِ طائع

لأبى على البصير — وقد سلك أبو على البصير مذهب الحجة وإقامة الدليل بعد إنكار الجناية ، فقال :

لم أجْنِ ذنباً فإن زَعَمتَ بأنْ ... جَنَيْتُ ذنباً فغيرُ معتمدِ
قد تطرفُ الكفُّ عينَ صاحبها ... ولا يرى قطعها من الرَّشَدِ

للمؤلف — ونحوت أنا هذا النحو فقلت :

لاَ يُبْعِدِ اللهُ أبا جَعْفرٍ دعابةً بتَّ على نارها
وإن تأذيتُ فيا ربما تأذّتِ العينُ بأشفارها

اعتذارات النابغة الذبيانى

وأجَلُّ ما وقع فى الاعتذار من مشهورات العرب قصائدُ النابغةِ الثلاثِ : إحداهن :

* يادار مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ[1] *

يقول فيها :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحْتُ كعبتَهُ وَمَاهُرِيقَ على الأنصاب من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيْرَ تَمْسَحُهَا رُكبانُ مكة بين الغيل والسند
ما قلت من سَيِّءٍ مما أُتيتَ به إذاً فلا رفعت سَوْطِى إلىَّ يدى
إذاً فعاقبنى ربى مُعَــاقَبةً قَرَّتْ بهاعينُ من يأتيك بالحسد[2]
إلا مقالة أقوام شقيتُ بهـا[3] كانت مقالتهم قرعاً على الـكبد
نُبِّئْتُ أن أبا قَابُوسَ أوعـدنى ولا قَرَارَ على زأر من الأسـد

والثانية :

* أرَسْماً جديداً من سعاد تَجَنَّبُ[4] *

---

(١) عجزه * أقوت وطال عليها سالف الأمد *

(٢) فى الديوان « بالفند » وهو بفتحتين : الـكذب.

(٣) فى الديوان . . . . شقيت بهم . . . . قرعا على كبدى .

(٤) لم أقف على هذا المطلع فى نسخ الديوان التى بين يدى ، ولا فى غيرها من المراجع ، وكل ماوقفت على قوله أن بعض الرواة يذكر هذه الأبيات من كلة أولها :

أتانى ــ أبيت اللعن ــ أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كان العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب

يقول فيها معتذراً من مدح آل جفنة ومحتجا بإحسانهم إليه :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنِّى خيانةً ... لمبلغك الواشى أغشُّ وأكذب
ولكننى كنت امرأً لىَ جانبٌ ... من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومهرب
ملوك وإخوان إذا ماالقيتُهم ... أحَكَّمُ فى أموالهم وَأُقَرَّبُ
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم تَرَهُمْ فى شكرهم لك أذنبوا
فلا تَتْرُكَنِّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مَطْلِيٌّ به القار أجرب
وذلك أن الله أعطاك سَوْرَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذب
فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكب

والثالثة :

* عفا ذو حسى من فَرْتَنَا فالفَوَارِعُ(١) *

يقول فيها بعد قَسَم قَدَّمه على عادته :

أكَلَّفْتَنِى ذَنْبَ امرئٍ وتركته ... كذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو راتع
فإن كنت لاذو الضِّغْنِ عنى مُكَذِّبٌ ... ولا حَلِفِى على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بقول أقوله ... وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
فإنك كالليلِ الذى هو مدركى ... وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع

وقد تعلق بهذا المعنى جماعة من الشعراء : قال سَلْمٌ الخاسِرُ يعتذر إلى المهدى :

لسلم الخاسر

إنى أعوذ بخير الناس كلهم ... وأنت ذاك بما نأتى ونجتنب
وأنتَ كالدهر مَبْثُوثًا حبَائِلُهُ ... والدَّهْرُ لامَلْجأً منهُ ولاهرَبُ
ولو ملكتُ عِنان الريح أصْرِفُهُ ... فى كل ناحية ما فاتك الطلَب

---

(١) تمامه * فشطا أريك فالتلاعِ الدوافع *

فليسَ إلا انْتِظَارِى مِنْكَ عَارِفَةً فيهامِنَ الخَوْفِ مَنْجَاةٌ ومُنْقَلَبُ

لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر

وقال عبيدالله بن عبدالله بن طاهر :

وإنى وإنْ حَدَّثْتُ نَفْسِى بِأَنَّنِى أَفُوتُكَ إِنَّ الرَّأْىَ مِنِّىَ لَعازِبُ

لِأَنَّكَ لى مِثْلُ المَكانِ المُحِيطِ بى مِنَ الأَرْضِ أنّى اسْتَنْهَضَتْنِى المذاهِبُ

للمتنبى

وإلى هذه الناحية أشار أبو الطيب بقوله :

ولكنكَ الدُّنيا إلىَّ حبيبة فما عنك لى إلا إليك ذَهَابُ

إلا أنه حرّف الكلم عن مواضعه .

لعلى بن جبلة

واُختار العلماء لهذا الشأن قول على بن جَبَـلَة :

وما لامْرِئٍ حاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهرَبٌ ولو رفعتـه فى السماء المطالعُ

بلى هاربٌ لا يَهْتَدِى لمكانِه ظَلامٌ ولا ضوء من الصبح ساطعُ

لأنه قد أجاد مع معارضته النابغة ، وزاد عليه ذكر الصبح ، وأظنه اقتدى بقول الأصمعى فى بيت النابغة : ليس الليل أولى بهـذا المثل من النهار وفى هـذا الاعتراض كلام يأتى فى موضعه من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

وأفضل من هذا كله قول الله تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) .

لأبى الهول الحميرى

ووجد الفضل بن يحيى على أبى الهول الحميرى فدخل إليه فأنشده :

كسانى وَعِيدُ الفَضْلِ ثوباً من البلى وإيعاده الموتُ الذى ما لَهُ رَدُّ

ومالى إلى الفضل بن يحيى بن خالد من الجرم ما يخشى على مثله الحقد

فَجُدْ بالرِّضا لا أبتغى مِنكَ غيرَهُ ورأْيُكَ فيما كنتَ عَوَّدْتَنى بَعْدُ

فقال له الفضل على مذهب الكتاب فى تحرير الخطاب : لا أحتمل والله قولك : « ورأيك فيما كنت عودتنى » فقال أبو الهول : لا تنظر أعزك الله إلى قصر باعى ، وقلة تمييزى ، وافعل بى ما أنت أهله ، فأمر له بمال جسيم ، ورضى عنه ، وقرَّبَه .

اشتقاق الاعتذار

وفى اشتقاق الاعتذار ثلاثة أقوال : أحدها أن يكون من المحو ، كأنك محوت آثار المَوْجِدَةِ ، من قولهم : اعتذرتِ المنازلُ ، إذا دَرَسَتْ ، وأنشدوا قول ابن أحمر :

أمْ كنتَ تعرفُ آياتٍ فقدْ جَعَلتْ
أطلالُ إلفِكَ بالوَدْكاءِ تعتذِرُ (١)

والثانى : أن يكون من الِانقطاع ، كأنك قطعت الرجل عما أمسك فى قلبه من الموجدة ، ويقولون « اعتذرت المياه » إذا انقطعت . وأنشدوا للبيد :

شُهُورُ الصّيفِ واعتذَرتْ إليه نطاق الشيطين من السماء

والقول الثالث : أن يكون من الحَجْرِ والمنع . . . قال أبو جعفر : يقال « عذرت الدابة» أى جعلت لها عِذَاراً يحجزها من (٢) الشِّرَاد ، فمعنى « اعتذر الرجل» احتجز ، وعذرته : جعلت له بقبول ذلك منه حاجزاً بينه و بين العقوبة والعَتْبِ عليه ، ومنه « تَعَذَّر الأمر » احتجز أن يُقْضَى ، ومنه « جارية عَذْرَاء » .

---

(١) قبل هـذا البيت قوله :

بان الشباب وأفنى ضعفه العمر لله درك أى العيش تنتظر ؟ !
هل أنت طالب شىء لست مدركه ؟ أم هل لقلبك عن ألافه وطر ؟

(٢) العذار ــ بوزن الكتاب ــ اللجام ، ويحجزها : يمنعها ، والشراد ــ بكسر الشين ــ النفار والجماح .

(٨٢) — باب سيرورة الشعر ، والحظوة فى المدح

الذين سار شعرهم فى الجاهلية وفى الإسلام

كان الأعشى أسْيَرَ الناسِ شعراً ، وأعظمهم فيه حظّاً ، حتى كاد يُنْسِي الناسَ أصحابه المذكورين معه ؛ ومثله زهير ، والنابغة ، وامرؤ القيس ؛ وكان جرير نابغة الشعر مظفراً ، قال الأخطل للفرزدق : أنا والله أشعر من جرير ، غير أنه رُزِقَ من سيرورة الشعر مالم أرزقه ، وقد قلت بيتاً لا أحسب أن أحدا قال أهجى منه ، وهو :

قَوْمٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأَضيافُ كلبَهُم   قالوا لِأُمهم : بُولِى على النار

وقال هو :

والتَّغْلَبِىُّ إذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى   حَكَّ اُسْتَهُ وتمثّلَ الأمثالا

فلم يبق سَقّاء ولا أمة حتى روته . قال الأصمعى : فحكما له بسيرورة الشعر

بين الخليع وأبى نواس

قال الحسين بن الضحاك الخليع : أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرىّ اللسان مختلق التـــكريه شابَ المُجُونَ بِالنُّسُكِ

إلى أن بلغت إلى قولى :

كأنما نُصْب كأسه قمرٌ   يكرعُ فى بعض أنجم الفلك

فنفر نَفْرَة منكرة ، فقلت : مالك فقد أفزعتنى ؟ ! ! فقال : هذا معنى مليح وأنا أحقُّ به ، وسترى لمن يروى ، ثم أنشدنى بعد أيام :

إذا عبّ فيها شاربُ القوم خلتهُ   يقبّلُ فى داجٍ من اللّيلِ كوكبا

فقلت : هذه مصالتة يا أبا على ، فقال : أتظن أنه يروى لك معنى مليح وأنا فى الحياة ؟ ! !

وأنت ترى سيرورة بيت أبى نواس كيف نُسِىَ معها بيت الخليع ، على أن له فضل السبق ، وفيه زيادة ذكر القمر ، وقد أربى ابن الرومى عليهما جميعاً بقوله :

أبصَرْته والكأسُ بينَ فَمٍ منهُ وبيْنَ أناملٍ خَمْسِ
وكأنها وكأنَّ شاربها قمرٌ يُقبّل عارِضَ الشَّمْسِ

ولكن بيت أبي نواس أملأُ للفم والسمع ، وأعظم هيبة في النفس والصدر ولذلك كان أشيَرَ .

وفى زماننا هذا قوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون.

وليس فى العرب قبيلة إلا وقد نيل منها ، وهجيت ، وعيرت؛ لحط الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة ، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة ، ولا صادف موضع الرمية .

قبائل لم يحك هجاؤهم إلا قليلا

فمن الذين لم يحك فيهم هجاء إلا قليلا على كثرة ماقيل فيهم : تميم بن مرة ، وبكر بن وائل ، وأسد بن خزيمة ، ونظراؤهم من قبائل اليمن .

قبائل شقيت بالهجاء

ومن الذين شقُوا بالهجاء ، ومزقوا كلَّ ممزَّقٍ على تقدمهم فى الشجاعة والفضل أحياء من قيس : نحو غنى و باهلة ابنى أعْصَر بن سعد بن قيس عيلان ، واسم غنى عمرة ، وكانوا موالى عامر بن صعصعة : يحملون عنهم الديات والنوائب ، ونحو محارب ابن خصفة بن قيس عيلان ، وجَسْر بن محارب[1] حالفوا بنى عامر بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة على لوم الحلف ، ومن ولد طابخة بن إلياس بن مضر : تَيْم وعُكْل ابنا عبد مَنَاة بن أد ، صادف الشعر سباء كان وقع عليهم فى الجاهلية ، فاستهانت العرب بهم ، وانطبع الهجاء فيهم ، وعدى بن عبد مَنَاة ، كانوا قطينا لحاجب بن زُرَارة ، وأراد أن يستملكهم مِلْكَ رق بسجل من قبل المنذر ، والحَبِطَات ، وهم ولد الحارث ابن عمرو بن تميم ، وسمى الحارث الحَبِطَ لعظم بطنه ، شبهوه بالجمل الحبط ، وهو الذى انتفخ بطنه مما رعى الخَلاَ ؛ فأما سَلُول فقد قال فيهم أبو زياد

(١) فى الأصول « حسى بن مخالف » وجسر بن محارب : ابن حصفة بن قيس عيلان .

الكلابى : كرام من كرام من صعصعة ، لم يحالفوا ، ولم يدخلوا فى صَغَار ، وإنما كلمة عامر بن الطفيل التى حدثت هى التى شأمتهم ، يريد قوله « أغُدَّةً كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » قلت : أما عامر فقد قال هذه الكلمة حين دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فما يصنع بقول السموأل بن عادياء :

ونحن أناسٌ لا نَرَى القتل سُبَّةً إذا ما رأتهُ عامرٌ وسلول

والسموأل فى زمان امرىء القيس ، و بين امرىء القيس ومَبْعَثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وأربع وخمسون سنة

الذين حظوا بالمدح

قال الجاحظ : لم تمدح قبيلة قط فى الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم قال : وكان عبد العزيز بن مروان أحظى فى الشعر من كثير من خلفائهم ، قال : ولم يكن من أصحابنا وخلفائنا أحظى فى الشعر من الرشيد ، وقد كان يزيد بن مزيد وعمه معن بن زائدة ممن أحظاه الشعر ، ولا أعلم فى الأرض نعمة بعد ولاية الله تعالى أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً .

قلت أنا : أما هذه النعمة فقد أحلها الله مضاعفة عند السيد أبى الحسن ، وقَرَنَهَا منه بالاستحقاق ، فقرت مقرها ، ونزلت منزلها المختار لها ، وأحْيا الله لبنى شيبان حمداً لم يَشُبْهُ ذم ، وجوداً لم يعقبه فدم ، مما زاد على يزيد ، ولم يَدَعْ لمعن معنى فى الجود .

وقال غيره : كان عمر [1] بن العلاء مُمَدَّحاً ، وفيه يقول بشار بن برد :

(١) هذا الاسم قد وقع فى ترجمة أبى العتاهية من الأغانى (٣ / ١٤٤ بولاق) مع الأبيات السابق ذكرها فى ص ١٣٣ من هذا الجزء « عمرو بن العلاء » بفتح العين وسكون الميم وبالواو الفارقة ، وكذلك وقع فى ترجمة بشار بن برد من الأغانى (٣ / ٤٦) مع ثانى وثالث هذه الأبيات وبيتين من أبيات أبى العتاهية ، وكذلك فى مهذب الأغانى (٨ / ٤٨) ولكن أبيات بشار لا تستقيم إلا على قراءته بضم العين وفتح الميم وبدون واو ، وهو الصواب . وانظر — مع ذلك — ص ١٨٤ الآتية

قل للخليفةِ إن جئته ... نصيحا ولاخيرَ فى المتهم
إذاأيقظتكَ حُروبُ العدا ... فنبه لها عُمراً ثم نم
فتى لا يبيتُ على دمنةٍ ... ولا يشرب الماء إلا بدم
دعانى إلى عمرٍ جوده ... وقول العشيرة بحرٌ خضم
ولولا الذى زعموالم أ كن ... لأمدحَ ريحانةً قبلَ شم

وله يقول أبو العتاهية :

إن المطايا تشتكيك لأنها ... قطعتْ إليك سباسباً ورمالا

وقد مرت الأبيات فيما مضى من هذا الـكتاب (١) .

قال أبو عبيدة : لم يمدح أحدٌ قط بنى كليب غير الحطيئة بقوله :

لعمرك ما المجاور فى كليب ... بِمَقْصِىٍّ الجوَارِ ولا مُضَاع
هم صنعوا لجارهم وليستْ ... يد الخرقاء مثل يد الصَّنَاع
ويحرم سِرُّ جارتهم عليهم ... ويأ كل جارهم أنفَ القصاعِ

مفاخر تميم

كانت قيس تفتخر على تميم ؛ لأن شعراءهم تضرب المثل بقبائل قيس ورجالها فأقامت تميم دهراً لا ترفع رءوسها حتى قال لبيد :

أبنى كليب كيف تنفى جعفرٌ ... و بنو ضبينة حاضرو الأجباب
قتلوا ابن عروةَ ثم لطُّوا دونه ... حتى يحا كمهمْ إلى جوّابِ
يرعون مُنخرق اللديد كأنهم ... فى العزأسرة حاجبٍ وشهاب
متظاهرى حلق الحديد عليهم ... كبنى زُرَارة أو بنى عَتَّاب
قومٌ لهمْ عرَفَتْ مَعَدٌّ فضلها ... والفضل يعرفه ذوو الألباب

وقال زبان بن منصور الفزارى :

فَجَاءوا بِجَمْعٍ مُحْزَئِلٍّ كأنَّهمْ ... بنو دارم إذ كان فى الناس دارم

---

(١) فى (ص ١٣٣) من هذا الجزء .

فتكلمت تميم وافتخرت؛ لمكان هذين الشاعرين للمظيمى القدر فى قيس، فدل هذا على أن قيساً أحظى بالمدح من تميم.

الأوابد من الشعر

والأوابد من الشعر الأبيات السائرة كالأمثال، وأكثر ما تستعمل الأوابد فى الهجاء، يقال: رماها بآبدة، فتكون الآبدة هنا الداهية، قال الجاحظ: الأوابد الدواهى، ومنه أوابد الشعر، حكاه عن أبى زيد، وحكى: الأوابد الإبل التى تتوحَّشُ فلا يُقْدر عليها [إلا] بالعَقْر، والأوابد الطير التى تقيم صيفاً وشتاء، والأوابد الوحش؛ فإذا حملت أبيات الشعر على ما قال الجاحظ كانت المعانى السائرة كالإبل الشاردة المتوحشة، وإن شئت المقيمة على من قيلت فيه لا تفارقه كاقامة الطير التى ليست بقواطع، وإن شئت قلت: إنها فى بعدها من الشعراء وامتناعها عليهم كالوحش فى نفارها من الناس.

المجدودون فى التكسب بالشعر

وأما المجدودون فى التكسب بالشعر والحظوة عندالملوك فمنهم: سَلْم الخاسر مات عن مائة ألف دينار، ولم يترك وارثا، وأبو العتاهية صنع:

تعالى الله يا سَلْمُ بْنَ عمرٍو أَذَلَّ الحِرْصُ أعْنَاقَ الرِّجَالِ

وكان صديقه جدا، فقال سلم: ويلى من ابن الفاعلة، جمع القناطير من الذهب ونسبنى إلى ماترون من الحرص، ولم يرد ذلك أبو العتاهية، لكن دعاه يعجبه كما يفعل الصديق مع صديقه، ومروان بن أبى حفصة: أُعطِىَ مائة ألف دينار غير مرات، وكان لا يقابل إلا بالكثير، وهو لعمرى من ذوى البيوتات، والمعرقين فى التكسب بالشعر، وكان أبو نواس محظوظا لا يدرى ماوصل إليه، لكنه كان مِتلافا سَمْحا، وكان يتساجل فى الإنفاق هو وعباس بن الأحنف وصريع الغوانى، وكان البحترى مَلِيًّا قد فاض كسبه من الشعر، وكان يركب فى موكب من عَبِيده، وأبو تمام فيما وفى

حقه مع كثرة ما صار إليه من الأموال ؛ لأنه تبذل ، وجاب الأرض ، وكذلك أبو الطيب .

(٨٣) — باب ما أشكل من المدح والهجاء

لرجل سعدى

أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن أبى على الحسين بن إبراهيم الآمدى ، لرجل من بنى عبد شمس بن سعد بن تميم :

تَضَيَّفَنِي وَهْنا ، فقلت : أسابقى إلى الزاد؟ شَلَّتْ من يَدَىَّ الأصابع

ولم تلق للسعدىِّ ضيفا بقفرةٍ من الأرض إلا وَهْوَ عُرْيَانُ جائع

لم يرد أنه يسبق ضيفه إلى الزاد فيكون قد هجا نفسه ، ولكنه وصف ذئبا لقيه ليلا ، فقال : أتسبقنى أنت إلى الأكل ؟ أى : تأكلنى ، شَلَّتْ إذن أصابعى إن لم أرمك فأقتلك فآكل من لحمك !! ثم قال على جهة المثل : لم تلق للسعدى — يعنى نفسه — ضيفا بقفرة لا مستعتب فيها — يعنى الذئب — إلا وهو جائع ، يقول : فهو لا يبقى علىَّ لأنى بغيته .

مما أنشدوه

ومن أناشيدهم :

أبوك الذى نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خيله غداةَ الندى حتى يَجِفَّ لها البقل

قالوا : إذا أخذ مطر الصيف الأرض أنبتت بقلا فى أصول بقل قد يبس فذلك الأخضر هو النشر ، وهو الغمير ، فتأكله الإبل ، فيأخذها السُّهَام ، ولا سهام فى الخيل ؛ فعابه بالجهل بالخيل.

وقال الأصمعى : هذا القول خطأ ، بل مدحه بمعرفة الخيل ؛ لأن النشر مؤذٍ لكل من يأكله وإن لم يكن ثم سُهَام.

لسليمان ابن قنة

وقال سليمان بن قنة فى رثاء الحسين بن على رضى الله عنهما ، وذكر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويروى للفرزدق :

أولَئِكَ قَوْمٌ لم يَشِيموا سُيوفهم ولم تكثر القتلى بها حين سُلَّتِ

أراد لم يغمدوا سيوفهم إلا بعد أن كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم أضرب بك ولم تجن على إلا بعد أن جنيت على ؛ وقال آخرون : أراد لم يسلوا سيوفهم إلا وقد كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم ألقك ولم أحسن إليك إلا وقد أحسنت إليك ، والقولان جميعاً صحيحان ؛ لأنه من الأضداد .

كعم الكلب

و ينشدون قول الآخر :

هَجَمْنا عليه وهو يَكْعَمُ كَلْبَهُ دعِ الكَلْبَ يَنْبَحْ إنما الكَلْبُ نابح

و يروى :

دُفِعْتُ إليــه وهو يَخْنُقُ كلبه ألا كُلُّ كلبٍ ـ لا أبَالَكَ ـ نابحُ

قالوا : فالمدح أن يكون إنما يكعمه لئلا يَعْقِرَ الضيوف ، والذم أن يكون ذلك لئلا ينبح فيدل عليه الضيف ، وأنا أعرف هذا البيت فى هجاء مَحْضٍ للراعى هجا به الحطيئة ، وهو :

ألا قبحَ الله الحطيئةَ ؛ إنهُ على كل من وافى من الناس سالحُ

و يروى : * على كل ضيف ضافه فهو سالح *

هجمنا عليــه وهو يكعم كلبهُ دع الكلبَ ينبح إنما الكلبُ نابح

بكيتَ على مَذْقٍ خَبِيثٍ قَرَيْتَهُ ألا كلّ عَبْسِىٍّ على الزّاد نابحُ

تجنب الجيوش

وأنشدنا أبو عبد الله :

تجَنّبُكَ الجيوشُ أبا خبيبٍ وجاد على منازلكَ السحابُ

و يروى : * أبا ربيب * قال : إن دعا له فإنما أراد أن يعافى من الجيوش ، وأن يجوده السحاب فتُخْصِبَ أرضه ، و إن دعا عليه قال : لا بقى لك خير تطمع فيه الجيوش ، فهى تتجنب ديارك لعلمهم بقلة الخير عندك ، و يدعو على محلته بأن تدرسها الأمطار .

وقال غيره : معناه جاد على محلتك السحاب فأخصبت ولا ماشية لك ، فذلك أشد لهمك وغمك ، ويكون المعنى حينئذ كقول الآخر :

وخَيْفاءَ ألقى الغيثُ فيها ذراعهُ فسرَّت وساءَتْ كُلَّ ماشٍ ومصرمِ

أى : فسرت كل ماشية ، وساءت كل فقير .

ابنة الجبل

وأنشد [أبو عبد الله] أيضا :

إنى على كل إيسارٍ ومَعْسَرَةٍ أدعو حبيشاً كما تدعى ابنةُ الجبل

وروى المبرد : * أدعـــو حنيفا *

يريد أنه يجيب بسرعة كالصَّدَى ، وهو ابنة الجبل ، وقيل : ابنة الجبل الصخرة المنحدرة من أعلاه ، وزاد أبو زيد فى روايته بيتاً ، وهو :

إنْ تدعه مَوْهِناً يَعْجَلْ بجابَتِهِ عارِى الأشاجع يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فهذا مدح لا محالة ، ومنهم من حمله على قول الآخر :

كأنِّى إذْ دَعَوْتُ بنى حنيفٍ دعوتُ بدعوتى لهمُ الجبالا

ورواه قوم : * بنى ســـليم *

فمن مدح جعله كالأول فى سرعة الإجابة ، ومن ذَمَّ نسبهم إلى الثقل عن إجابته مثل الجبال .

ومن الدعاء الذى يدخل فى هذا الباب قول الآخر :

تَفَرَّقَتْ غنمى يَوْماً فَقُلْتُ لها : يا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّئْبَ وَالضَّبُعَا

قيل : إنهما إذا اجتمعا لم يؤذيا ، وشغَلَ كلٌّ واحدٍ منهما الآخَرَ ، وإذا تفرقا آذيا ، وقيل : إن معناه فى الدعاء عليها قتل الذئب الأحياء عَيْثاً ، وأكل الضبع الأموات ، فلم يبق منها بقية .

الثنيان

ومن لطيف ما وقع فى هذا الباب قول النابغة الذبيانى :

يَصُدُّ الشاعر الثُّنْيَانُ عَنِّى صُدُودَ البِكْرِ عن قرمٍ هجانِ

لم يرد أنه يغلب الثنيان ولا يغلب الفحل ، لكن أراد التصغير بالذى هاجاه ، فجعله ثانياً ، وقال الآخر :

وَمَنْ يَفْخَرْ بمثل أبى وَجَدّى يَجِىءْ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهْوَ ثَانى

أراد وهو ثان من عنانه ؛ لأنه يسبق متمهلا .

ذو فجرات

وقال ابن مقبل :

إذَا الرفاقُ أناخُوا حَوْلَ مَنْزِلِهِ حَلُّوا بذى فَجَرَاتٍ زَنْدُهُ وَارِى

قال ابن السكيت « بذى فجرات » أى : يتفجر بالسخاء والعطاء ، ويدل على ما قال ابن السكيت أن لصيق هذا البيت :

جَمٌّ الْمَخَارِجِ ،أَخْلَاقُ الْكَرِيمِ لهُ، صَلْتِ الْجَبِينِ ، كَرِيمِ الخَالِ مِغْوَارِ

بيضة البلد

ومما يمدح به ويذم قولهم «هو بيضة البلد» فمن مدح أراد بها أصل الطائر ، ومن ذم أراد أنها لا أصل لها ، قالت أخت عمرو بن عبدود فى على بن أبى طالب رضى الله عنه لما قتل أخاها :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قاتله لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ

لَـكِنَّ قاتله من لاَ يُعابُ به وَكَانَ يُدْعَى قَدِيماً بَيْضَةَ الْبَلَدِ

فهذا مدح كما تراه .

وقال الراعى النميرى يهجو عدى بن الرقاع العاملى :

لو كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ يُهْجَى هَجَوْتُكُمُ يَا ابْنَ الرِّقَاعِ، ولكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ

تأبى قُضَاعةُ أَن تَرْضَى لَكُمْ نَسَباً وابنا نزارٍ ؛ فأَنتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ

وأنشد بعض العلماء :

وَإِنّى لَظَلَّامٌ لأَشْعَثَ بائسٍ عَرَانَا ، ومَفْرورٍ يَرَى مَالَهُ الدَّهْرُ

وَجَارٍ قريبِ الدار ، أو ذى جِنَايَة غريبٍ بعيد الدار ليس له وَفْرُ

يظنه السامع هجا نفسه بظلم هؤلاء الذين ذكر ، وإنما مدحها بأنه يظلم

الناقة فينحر فصيلها من غير علة ولا داء ، إلا لضيافة هذا الأشعث ، والجار ، وأشباههما .

(٨٤) — باب فى أصول النسب وبيوتات العرب

أصل الأنساب

أول النسب بعد آدم صلى الله عليه وسلم من نوح عليه السلام ؛ لأن جميع من كان قبله قد هلك ، وإنما بقى من ولده سام ، وحام ، ويافث ؛ فولد يافث الصقالبة وبرجان والأشبان ، وكانت منازلهم أرض الروم ، من قبل أن تكون الروم ، ومن ولده الترك ، والخزر ، ويأجوج ومأجوج ؛ وولَدَ حام كوش وكنعان وقوط ؛ فأما قوط فنزل أرض الهند والسند فأهلُها من ولده ، وأما كوش وكنعان فأجناس السودان ، والنوبة ، والزنج ، والزعارة ، والحبشة ، والقبط ، وبربر من أولادهما ؛ وولد سام إرم ، وإرفخشذ ، فعاد بن عوص بن إرم ، وطَسْم وجديس ابنا لاوذ بن إرم ، ومنهم العماليق ، ومنهم فراعنة مصر ، والجبابرة ، ومنهم ملوك فارس ، وأجناس الفرس كلها ولده ، وثمود بن عابر بن سام ، وماش بن إرم نزل ببابل ، و[من] ولده نمرود الذى فرق الله الألسنة فى زمانه ، وهو الذى بنى الصَّرْحَ ببابل ، ويقال : إن النبط من ولد ماش ؛ ويقال أيضاً : إنهم من ولد شاروخ بن فالغ بن إرفخشذ ، والأنبياء كلها عربيها وعجميها ، والعرب كلها يمنيها ونزاريها من ولد سام بن نوح ، حكى جميع ذلك ابن قتيبة ، ومن ولد إرفخشذ قَحْطَان بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ ، وكان مسكن قحطان اليمن ، فكل يمانٍ من ولده ، فهم من العرب العاربة . ويقطن بن عابر ، وهو أبو جرهم ، وكانت مساكن جرهم اليمن ، ثم نزلوا مكة فسكنوا بها ، وتزوج إسماعيل صلى الله عليه وسلم امرأة منهم ؛ فهم أخوال العرب المستعربة .

طبقات العرب

قال الزبير بن بكار : العرب ست طبقات : شعب ، وقبيلة ، وعمارة ،

و بطن ، وفخذ ، وفصيلة : فمضر شعب ، ور بيعة شعب ، ومَذْحج شعب ، وحمير شعب ، وأشباههم، و إنما سميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها، وسميت القبائل لأن العمائر تقابلت عليها : أسد قبيلة ، ودودان بن أسد عمارة ، والشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطون تجمع الأفخاذ ، والأفخاذ تجمع الفصائل : كنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقُصَى بطن ، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة .

أصل تسمية الطبقات

وزعم أبو أسامة — فيما رأيت بخطه ، وقد عاصرته ، وكان علامة باللغة — أن تأليف هذه الطبقات على تأليف خَلْقِ الإنسان الأرفع فالأرفع ؛ فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبلته ، ثم العمارة ، قال : والعمارة الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، قال : وهى الساق ، أو قال: المفصل ، الشك منى أنا ، قال : والحى أعظم من الجميع ؛ لاشتمال هذا الاسم على جملة الإنسان.

وأما أبو عبيدة فجعل بعد الفخذ العشيرة ،قال : وهم رَهْطُ الرجل دنيا[1] ثم الفصيلة ، قال : دون ذلك بمنزلة المفصل من الجسد ، وهم أهل بيت الرجل، فأما البيوتات فكل يدعى لنفسه سابقة ، و يمتُّ بفصيلة ، غير أن الصحيح ما اتفق عليه العلماء ، وتداوله الرواة .

قال ابن الكلبي : كان أبى يقول : العدد من تميم فى بنى سعد ، والبيت فى بنى دارم ، والفرسان فى بنى يربوع ، والبيت من قيس فى غطفان ، ثم فى بنى فزَارة، والعدد فى بنى عامر ، والفرسان فى بنى سليم ، والعدد من ربيعة [فى بكر] والبيت والفرسان فى شيبان .

---

(١) فى الأصول « دينا » بتقديم الياء على النون ، والصواب العكس كما أثبتناه

مفاخر القبائل

قال ابن سلام الجمحى : كان يقال : إذا كنت من تميم ففاخر بحَنْظَلة ، وكاثر بسعد ، وحارب بعمرو ، وإذا كنت من قيس ففاخر بغَطَفَان ، وكاثر بهَوَازن ، وحارب بسُلَيم ، وإذا كنت من بكر ففاخر بشيبان ، وكاثر بشيبان ، وحارب بشيبان .

فرسان العرب

قال أبو عبيدة : ليس فى العرب أربعة إخوة أنجب ولا أعد ولا أكثر فرساناً من بنى ثعلبة بن عُكابَة ، وكان يقال له : الأغر والحصن ، وبنوه شيبان ، وذُهْل ، وقَيْس ، وتَيْم الله . قال: ففارس غطفان الربيعُ بن زياد العبسى ، وفاتكها الحارث بن ظالم ، وحاكمها هَرِمُ بن قطبة[1] ، وجوادها هرم بن سنان المرى ، وشاعرها النابغة الذبيانى ، وفارس بنى تميم عتيب[2] بن الحارث بن شهاب أحد بنى يربوع ، وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبرى ، وفارس دارم عمرو ابن عمرو بن عُدُس ، وفارس سعد فَدَكِىُّ بن أعبد المنقرى[3] ، وفارس الرباب زيد الفوارس بن حصن الضبى ، وفارس قيس عامر بن الطُّفَيْل ، وفارس ربيعة بسطام بن قيس .

بيوتات العرب

قال أبو عبيدة : بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس فى الجاهلية بنو فَزَارَة ومركزه بنو بدر ، وبيت ربيعة بنو شَيْبَان ، ومركزه ذو الجدين ، وبيت تميم بنو عبدالله بن دارم ، ومركزه بنو زُرَارَة .

وقال أبو عمرو بن العلاء : بيت بنى سعد اليوم إلى الزِّبْرِقَانِ بن بدر من بنى بَهْدَلَة بن عوف بن كعب بن سعد ، وبيت بنى ضبة بنو ضرار بن

(١) ويقال « قطنة » انظر (ج ١ ص ٥٣) .
(٢) هكذا فى النسخ ، والمحفوظ « عتيبة » وشاهده قول الشاعر :
إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
(٣) هوجد عمرو بن الأهتم لأمه ؛ فإن أم عمرو ميا بنت فدكى بن أعبد .

عمرو[١] الرَّدِيم ، و بيت بنى عدى بن عبد مناة آل شهاب من بنى ملكان ، و بيت التَّيْمِ آل النعمان بن جساس .

قال : وليس فى العرب جساس غيره .

قال الجمحى : فارس اليمن فى بنى زُبَيْد عمرو بن معدى كرب ، وشاعرها امرؤ القيس ، و بيتها فى كِنْدَةَ الأشعثُ بن قيس ، لا يُخْتَلَفُ فى هذا ، وإنما اختلف فى نزار .

قال : وأما الشرف [ة] ما كان قبل النبى صلى الله عليه وسلم إلى عهد النبى واتصل فى الإسلام .

قال أبو إياس البصرى : كان بيت قيس فى آل عمرو بن ظَرِب العَدْوانى ، ثم فى غَنِيّ فى آل عمرو بن يربوع ، ثم تحول إلى بنى بدر ، فجاء الإسلام وهو فيهم .

وقال الأخفش على بن سليمان: فرعا قريشٍ هاشمٌ وعبدُ شمسٍ ، وفرعا غَطَفَان بدر بن عمرو بن لوذان وسيار بن عمرو بن جابر ، وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنا يربوع، وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر و بكر ابنا كلاب ، وفرعا قضاعة عُذْرَة والحارثُ بن سعد .

(٨٥)ـ باب مما يتعلق بالأنساب

قال أبو عبيدة : قريش البطاح قبائل : كعب بن لُؤَى بن عبد مناف قريش البطاح و بنو عبد الدار وعبد العزى ابنا قصى ، و بنو زُهْرَة بن كلاب ، و بنو مخزوم ابن يَقَظَة ، و بنو تَيْم بن مرة ، و بنو جُمَح وسَهم ابنا هصيص بن كعب، و بعض بنى عامر بن لؤى .

(١) قال المجد فى القاموس : « والرديم كأمير : لقب فارس منهم » اهـ .

قريش الظواهر

وقريش الظواهر : بنو محارب والحارث ابنا فِهْرٍ ، و بنو الأَدْرَم بن غالب ابن فهر ، وعامة بنى عامر بن لؤى، وغيره .

ألقاب لبعض القبائل

كان يقال : مازن غسان أرباب الملوك ، وحمير أرباب العرب ، وكندة كندة الملك ، ومذحج مذحج الطعان ، وهمدان أحلاس الخيل ، والأزد أسد البأس ، والذُّهلان : أحدهما ذُهْل بن شيبان بن ثَعْلَبة و يشكر ، والآخر ضبيعة وذهل بن ثعلبة ، واللهزمتان : إحداهما عِجْل وتيم اللات ، والأخرى قيس بن ثعلبة وعَنَزَة، وكلهم من بكر بن وائل ، إلا عنزة بن أسد بن ربيعة .

الأحابيش

الأحابيش : حلفاء قريش .

قال ابن قتيبة : هم بنو المُصْطَلَق ، والحياء بن سعد بن عمرو و بنو الهُونِ بن خزيمة : اجتمعوا بذنب حُبْشِىّ ــ وهو جبل بأسفل مكة ــ فتحالفوا بالله إنا ليَدٌ على غيرنا ما سَجَا ليلٌ وأوضح نهار، وما أرسى حبشى مكانه[1] .

وقال حماد الراوية : إنما سُمُّوا بذلك لاجتماعهم ، والتحابش : هو التجمع فى كلام العرب .

المطيبون

المطيبون : عبد مناف ، وزهرة ، وأسد بن عبد العزى ، وتَيْم ، والحارث ابن فهر ، وعبد قُصَى .

الأحلاف

الأحلاف : مخزوم، وعدى ، وسَهْم ، وجُمَح ، وعبد الدار .

سموا أولئك المطيبين لخلوق صنعته لهم أم حكيم فغمسوا أيديهم فيه ، وسموا الآخرون أحلافا لجزور نحروه ، فداقوا دمه فى جَفْنة فمسوه بأيديهم ولعقوا منه، وسموا «الأحلاف» و«لعَقَة الدم» .

الأراقم

والأراقم : جُشَم ، ومالك ، وعمرو بن ثعلبة ، ومعاوية ، والحارث ، بنو بكر ابن حبيب بن غنم بن تغلب بن وائل ، قال أبو على : ليس فى العـــرب نصرانى غيره .

(١) فى القاموس « ووضح نهار ، ومارسا ــ إلخ » .

البراجم

البراجم : خمسة بطون من بنى حنظلة : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكلفة ، والظليم ، وهو مرة ؛ تبرجموا على إخوتهم يربوع وربيعة ومالك ، وكلهم أبوهم حنظلة بن مالك بن زيد مَنَاة بن تميم بن مرة .

الثعلبات

الثعلبات : ثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وثعلبة بن عدى بن فَزَارة ، وأضاف إليهم قوم ثعلبة بن يربوع .

الرباب

والرِّبَاب : هم ضبة بن أدبن طابخة ، وتيم ، وعدى، وعوف ــ وهو عُكْل ــ وثور ، وكل هؤلاء بنو عبد مناة بن أدبن طابخة[1] :

الأجارب

الأجارب : خمس قبائل من بنى سعد : وهم ربيعة ، ومالك ، والحارث ــ وهو الأعرج ــ وعبد العُزّى ، و بنو حمار .

الحرام

والحرام : بنو كعب بن سعد بن زيد مناة .

الضباب

الضِّبَاب : هم أربعة بطون من بنى كلاب : ضب ، وضُبَيْب ، وحِسْل ، وحُسَيْل ، بنو معاوية بن كلاب ، كذا زعم ابن قتيبة وغيره.

وقال أبو زيد الكلابى ، وهو أعلم بقومه : هم بنو عمرو بن معاوية بن كلاب ، و إنما سموا ضِبَابا لأنه سمى فيهم ضبا وحسلا وحسيلا ، فقال له الرجل وسمعه يهتف بهم : والله ما بنوك هؤلاء إلا الضِّبَاب ، فسمو الضباب إلى اليوم ؛ قال: ومن ولد عمرو بن معاوية بن كلاب : ضب ، وحسل ، وحسيل ، وحصن ، وحصين ، وخالد ، وعبد الله ، وقاسط ، والأعرف ، وتولب ، وشقيق ، وخزيم ، والوليد، وزهير ؛ فهؤلاء أربعة عشر لم تدرج منهم قبيلة ، وهم الضباب جميعاً .

---

(١) قال المرتضى : « والرباب أحياء ضبة ، وهم تيم وعدى وعكل ، وقيل: تيم وعدى وعوف وثور وأشيب ، وضبة عمهم . سموا بذلك لتفرقهم؛ لأن الرِّبة الفرقة ولذلك إذا نسبت إلى الرباب قلت ربى ، فترده إلى واحده » اهـ .

الأكابر

الأكابر : شيبان ، وعامر ، وجليحة ، والحارث بن ثعلبة بن عُكَابة بن صعب ابن على بن بكر بن وائل .

بنو أم البنين

بنو أم البنين : عامر ، والطفيل ، وربيعة ، وعبيدة ، ومعاوية ، بنو مالك ابن جعفر بن كلاب ، هكذا عند أكثر الناس ، قالوا : وإنما اضطرت[1] القافية لبيدا فجعلهم أربعة وهم خمسة .

وقال أبو زيد الكلابى ، وهو أعلم بقومه : إن بنى أم البنين أربعة ، كما قال لبيد : ابتكرت عامراً ملاعب الأسنة ، وثنت بالطفيل ، ثم تزوج عليها مالك سلامة السُّلَمِيَّة ، فغارت أم البنين وأسقطت له ثلاثة ذكوراً ، وجاءت السلمية بثلاثة ، وهم : سلمى ، وعبيدة ، وعتبة ، فأدار مالك الحيلة على أم البنين وأخيها زهير بن خِدَاش بن زُهَير ، حتى أخذ عليها حكما بأن لا تسقط ولداً وكانت حاملا فولدت معاوية مُعَوذ الحكماء[2] ، ثم ثَنَّتْ بربيعة أبى لبيد ، وزعم بعض شيوخه الذين أخذ عنهم أنه سمى معوذ الحكماء[2] من أجل أنه تولى حكما عن زهير بن عمرو على أخيه ، وروى أبيات معاوية التى من أجلها سمى معوذ الحكماء[2]

---

(١) فى قوله أمام النعمان بن المنذر :

نحن بنى أم البنين الأربعه ونحن خير عامر بن صعصعه

وانظر هذا الكتاب (ج ١ ص ٥١) .

(٢) معوذ الحكماء ـ بالذال المعجمة كما فى اللسان عن ابن برى ـ والذى فى القاموس وشرحه « معود الحكماء » بالدال مهملة ، ومنهم من يلقبه « معود الحلماء » جمع حليم ـ باللام ـ ومنهم من يلقبه « معود الحكام » والذى فى القاموس أولى ، قال : « ومعود الحكماء لقب معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب لقوله :

أعود مثلها الحكماء بعدى إذا ما الحق فى الأشياع نابا

ونابا : عرا ، ويروى فى مكانه « بابا » أى ظهر ، ويروى فى مكان الشطر الثانى

* إذا ما معضل الحدثان نابا » اهـ ، مع زيادات من الشرح ، وفيه بعض تصرف وانظر ص ٢٢١ الآتية

لزيد الخيل ، غير أنه لم ينشد البيت ، وزعم أنه ناقض بها طُفَيلاً الغَنَوِىّ .

قال : وأم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء .

الكملة — الكملة : بنو زياد العَبْسِيُّون ، وهم : أنس الحفاظ ، ويقال له أيضاً : أنس الفوارس ، وعمارة الوهَّاب ، وربيع الكامل ، وقيس الجواد ، هكذا رويناه عن النحاس .

قال المبرد وغيره : ربيع الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس ، أمهم فاطمة بنت الخُرْشُبّ الأنمارية .

الحمس — الحمس : هم قريش ، وكِنَانة ، ومن دَانَ بدينهم من بنى عامر بن صعصعة .

قال أبو عمرو بن العلاء : الحمس من بنى عامر : كلاب ، وكعب ، وعامر ، بنو ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة ، وأمهم مجد بنت التيم الأدرم بن غالب بن فِهر ابن مالك ، وكانوا فى الجاهلية يتحمسون فى أديانهم ، أى : يتشددون، لا يستظلون أيام مِنًى، ولا يدخلون البيوت من أبوابها ، وقيل: سموا حُمْساً لشدة بأسهم، ويعدون فى الحمس خزاعة .

العنابس — العنابس : حرب ، وأبو حرب ، وسفيان، وأبو سفيان ، وعمرو ، وأبو عمرو، بنو أمية بن عبد شمس .

الأعياص — والأعياص : العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، و بنوه أيضا

أم القبائل — أم القبائل : هند بنت تميم بن مر ، ولدت لعمرو بن قاسط تيم الله ، وأوس الله ، وعائذ الله ؛ وولدت لوائل بن قاسط بكراً ، وتغلب ، وعنزا ، وقيل : هو عنز بن وائل ؛ وولدت لعبد القيس بن قصى اللبوك بن عبد القيس ، و بعضهم يقول : اللبوء — بالهمز و بضم الباء — وفيه اختلاف بين العلماء .

الجمرات — الجمرات · جمرات العرب : ضبة ، وعبس ، والحارث بن كعب ؛ سموا بذلك

لأن أمهم الخشناء بنت مرة — فيما يقال — رأت فى المنام كأن ثلاث جمرات خرجت منها ، قال أبو عبيدة : فطفئت من الجمرات اثنتان : الحارث بن كعب حالفت فى غطفان ، وضبة حالفت الرِّباب وسعداً ، و بقيت عبس لم تطفأ ؛ لأنها لم تحالف ، وأما الجاحظ فجعلها عبسا وضبة ونميراً . وأشار إلى أن فى تميم جماراً أيضا ، وصرح بذلك المفضل ، فقال : هم بنو يربوع ، وزعم الفرزدق أنهم بنو العَدَوِية ، نسبو إلى أمهم ، وهم زيد ، وصدى ، وجشيش، بنو مالك بن حنظلة ، وزعم آخرون أنهم بنو مالك بن خزيمة بن تميم بن جل بن عبد مناة بن أد ، غير أنهم جعلوا مكان جشيش يربوعاً ، ومن الجمرات التى لم تطفأ عند بعضهم نمير ابن عامر بن صعصعة ؛ لأنهم لم يحالفوا أحدا من العرب .

قال الجاحظ : إنما قيل لكل واحد منها جمرة ؛ لأنهم تجمعوا حتى قووا على عدوهم واشتدوا ، قال : و يجوز أن يكون اشتقاقه من تجمير المرأة شعرها ، وإذا ضفرته قيل : قد جمرته ؛ وقال غيره : ومنه « خف مجمر » إذا كان مجتمعا شديداً .

بنو طهية طُهَية بنت عَبْشَمْس بن سعد ولدت لمالك بن حنظلة عوفا ، وأبا سود ، وربيعة ، وآخر لم يعرفه ابن الكلبى ، فعرف أولادها بها .

الموالى والموالى ثلاثة : مولى اليمين المحالف ، ومولى الدار المجاور ، ومولى النسب ابن العم والقرابة . قال الشاعر :

نبئت حَيًّا على نعمان أفردهم مولى اليمين ومولى الدار والنسب

(٨٦) — باب ذكر الوقائع والأيام

قد أثبتُّ فى هذا الباب ما تأدى إلىّ من أيام العرب ووقائعهم ، مستخرجة من النقائض وغيرها ، ولم أشرط استقصاءها ، ولا ترتيبها ؛ إذ كان فى أقل مما

جئتُ به غِنًى ومَقْنَع ، ولأن أبا عبيدة ونظراءه قد فرغوا مما ذكرتُ ؛ فإنما هذه القطعة تَذْكِرة للعالم ،وذَرِيعة للمتعلم ،وزينة لهذا الكتاب، ووفاء لشرطه ،وزيادة لحسنه ؛ إذ كان الشاعر كثيراً ما يؤتى عليه فى هذا الباب ، وأنا أذكر ماعلمته من ذلك فى أقرب ما أقدر عليه من الاختصار إن شاء الله تعالى ، بعد أن أقدم فى صدره أيامَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووقائعه مع المشركين ؛ لأنه أولى بالتقديم ، وأحق بالتعظيم ، ولما أرجوه من بركة اسمه ، وافتتاح القصص بذكره .

مغازى الرسول

غزارسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة «وَدَّانَ» على رأس الحول من الهجرة، ثم غزا عيرا لقريش بعد شهر وثلاثة أيام ، ثم غزا فى طلب كرز بن حفص حتى بلغ بدراً بعد عشرين يوماً ، ووجهت القبلة إلى الكعبة ، ثم غزا «بدراً» فكان يوم بدر لستة عشر يوما خلت من شهر رمضان من سنة اثنتين ، وكان المشركون يومئذ تسعمائة وخمسين رجلا ، والمسلمون ثلاثمائة و بضعة عشر رجلا ، فقتل من المشركين خمسون رجلا ، وأسر أربعة وأربعون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا .

يوم أحد : كان فى شوال من سنة ثلاث . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة ، وقريش فى ثلاثة آلاف ، وفى هذه الغزوة استشهد حمزة رضى الله عنه .

يوم الخندق : كان فى سنة أربع

يوم بنى المصطلق و بنى لَحْيَان : فى شعبان سنة خمس

يوم خيبر : فى سنة ست

وكان يوم « مُؤْتَةَ » فى سنة ثمان ، واستشهد فيه زيدُ بن حارثة أمير الجيش ، وجعفرُ بن أبى طالب أمير الجيش أيضاً بعده ، وعبدُ الله بن رَوَاحة

أمير الجيش بعدهما ، وقام بأمر الناس خالد بن الوليد ، وكانوا فى ثلاثة آلاف .

وكان فتح مكة فى شهر رمضان سنة ثمان ، و بعده بخمس عشرةَ ليلةً سار إلى « حُنَيْن » فى شوال ، ولقىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع هَوَازِن فى شوال للنصف منه ، فانهزم المسلمون ، وكان الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس بن عبد المطلب ، وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه، وأيمن بن عبد الله ، وهو ابن أم أيمن ، واستشهد ذلك اليوم ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وفى رواية أخرى أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وابنه ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن ، وأسامة ، ثم رجع الناس من وقتهم ، وانهزم المشركون ، وكانت الكَرَّةُ عليهم لله ولرسوله .

ثم سار بعد حنين إلى « الطائف » فحاصرها شهراً، ولم يفتتحها ، وغزا بلد الروم فى رجب من [سنة] تسع؛ فبلغ تَبُوكَ وَبَنَى بها مسجداً ،وهو بها إلى اليوم وفتح الله عليه فى سفره ذاك « دومة الجندل » على يدى خالد بن الوليد ، وكل هذا مختصر من كتاب ابن قتيبة ، و إياه قلدت فيما رأيت من هذه الطريقة ، والله المستعان ، وعليه توكلت

يوم إراب وهذه أيام العرب : يوم « إراب »[1] لبنى ثعلبة بن بكر : رئيسهم الهذيل بن حسان ، على بنى رياح بن يربوع ، وكان الهذيل سبى نساء بنى

---

(١) إراب ــ بكسر الهمزة و آخره باء موحدة ــ قال ياقوت : بخط اليزيدى فى شرحه « إراب ماء لبنى رياح بن يربوع بالحزن » ا هـ .

رياح ، والتقى بهم على إراب ، وقد سبقه بنو رياح إليه ليمنعوهم الماء ، حتى يرد السبى ، فأقسم الهذيل: لئن رددتم إلينا ماء فارغاً لنأتينكم فيه برأس إنسان تعرفونه فاشتروا منه بعض السبى ، وأطلق البعض .

يوم نعف فشاوة

يوم «نعف فشاوة» لبسطام بن قيس رئيس بنى شيبان ، على بنى يربوع ، قتل فيه بجيراً ، وأسر أباه أبا مليل ، ثم منَّ عليه من وقته ، وترك له مليلا ولده ، وكان أسيراً عنده بعد أن كَسَاه وحَمَله .

يوم نجران

يوم « نجران » للأقرع بن حابس فى قومه بنى تميم ، على اليمن ، هزمهم وكانوا أخلاطا ، وفيهم الأشعث بن قيس ، وأخوه ، وفيهم ابن باكور الكلاعى الذى أعتق فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أربعة آلاف أهل بيت فى الجاهلية أسروا .

يوم الصمد

يوم « الصمد »[1] وهو يوم « طلح » ويوم « بلقا » ويوم « أود » ويوم «ذى طاوح» كلها يوم واحد ، لبنى يربوع على بنى شيبان ورئيسهم الحَوْفَزَانُ، ورئيس اللهازم أبجر بن بجير[2] العجلى .

يوم طخفة

يوم طخفة[3] وهو أيضاً يوم «ذات كهف» ويوم «خزاز» فى قول بعضهم لبنى يربوع والبراجم على المنذر بن ماء[4] السماء ، أسروا فيه أخاه حَسَّان ، وابنه قابوس ، وجُزَّتْ ناصية قابوس ، وكان ذلك بسبب إزالة الرِّدَافة عن عوف بن عَتَّاب الرياحى

(١) الصمد ــ بفتح فسكون ــ أصله الصلب من الأرض .
(٢) الذى فى ياقوت « أبجر بن جابر العجلى » .
(٣) طخفة ــ بكسر الطاء ويروى بفتحها مع سكون الخاء ــ موضع بعد النباج وبعد إمرة ، فى طريق البصرة إلى مكة ، وقال الأصمعى : جبل أحمر طويل حذاءه بئر ومنهل .
(٤) فى ياقوت « على قابوس بن المنذر بن ماء السماء » .

يوم المروت

يوم « المروت »[1] : وهو يوم « إرم الكلبة » نقًا قريب من النباج ، لبنى حنظلة و بنى عمرو بن تميم ، على بنى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وكان الذكر فيه لبنى يربوع ، و إنما أغارت قُشَيْر على بنى العنبر فاستنقذ بنو يربوع أموال بنى العنبر وسَبْيهم من بنى عامر

يوم مليحة

يوم « مليحة »[2] : لبنى شيبان على بنى يربوع ، رئيسهم[3] بسطام بن قيس ، وقتل ذلك اليوم عصمة بن النجار ، فلما رآه بسطام قال : ما قتل هذا إلا لتشكل رجلا أمه ، فقتل به يوم العظالى قاتله الهبش بن المقعاس

يوم اللوى

يوم « اللوى » : لفزارة على هوازن ، وفيه قتل عبد الله بن الصمة ، وأثخن أخوه دُرَيْد

يوم الصليفاء

يوم « الصُّلَيْفاء[4] » : لهوازن على فَزَارة وعَبْس وأشجَع، وفيه قتل دريد بأخيه ذؤاب بن أسماء .

يوم الهباءة

يوم «الهَبَاءة[5]» : وهو « يوم الجفر » لعبس على ذبيان ، وفيه قَتَلَ حذيفة

(١) المروت ــ بفتح الميم وتشديد الراء مضمومة وبعد الواو تاء مثناة ــ إسم نهر ، وقيل : واد بالعالية كانت فيه الوقعة .

(٢) مليحة ــ على زنة المصغر ــ اسم جبل فى غربى سلمى أحد جبلى طيىء ، وبه آبار كثيرة وملح ، وقيل : مليحة موضع فى بلاد تميم .

(٣) هو رئيس بنى شيبان .

(٤) كذا هو فى الأصول ، وليس صحيحا ، وإنما الصحيح « الصلعاء» بالعين المهملة بعد اللام . قال أبو محمد الأسود : أغار دريد بن الصمة على أشجع بالصلعاء وهى بين حاجر والنقرة » اه من ياقوت ، والصليفاء : يوم غير هذا .

(٥) الهباءة : هى أرض ببلاد غطفان كانت فيها الوقعة ، وجفر الهباءة : مستنقع فى هذه الأرض .

ابن بدر وأخوه حَمَل سيدا بنى فزارة ، وكان يقال لحذيفة «ربّ معدّ» .

يوم عراعر

يوم «عُرَاعِر[١]» : لعَبْس على كلب وذبيان ، وفيه قتل مسعود بن مصاد الكلبي ، وكان شريفاً .

يوم الفروق

يوم «الفَرُوق[٢]» : بين عبس و بنى سعد بن زيد مناة ، قاتلوهم فمنعت عبس أنفسها وحريمها ، وخابت غارة بنى سعد ، وقيل لقيس بن زهير — ويقال عنترة — : كم كنتم يوم الفَرُوق ؟ قال : مائة فارس كالذهب ، لم نكثر فنفشل ولم نقل فنذل .

يوم شعب جبلة

يوم « شعب جَبَلَة[٣]» : قال أبو عبيدة : كانت عظام أيام العرب ثلاثة : يوم كلاب ربيعة ، ويوم شعب جبلة ، ويوم ذى قار ، وكان يوم الشعب لبنى عامر ابن صعصعة وعبس حلفائهم على الحليفين أسد وذبيان ، ورئيسهم حصن بن حذيفة يطلب عبساً بدم أبيه ، وتطلب عبس بن بغيض بدم أبيهم ، ومعهم معاوية بن الجون الكندى فى جمع من كِنْدَةَ ، وعلى بنى حنظلة بن مالك والرباب رئيسهم لقيط بن زُرارَة يطلب بدم مَعْبَد أخيه ، ويَثْرِبىّ بن عدس ومعهم حسان بن الجون أخو معاوية — وقيل : بل عمرو بن الجون — وحسان بن مرة الكلبي أخو النعمان ابن المنذر لأمه .

وقال غير أبي عبيدة : كان مع أسد وذبيان معاوية بن شرحبيل بن الحارث

(١) عراعر — بضم العين المهملة الأولى وكسر الثانية — ماء لكلب بناحية الشأم .

(٢) الفروق — بفتح الفاء — عقبة دون هجر إلى نجد بين هجر ومهب الشمال .

(٣) قال ياقوت : « جبلة — بالتحريك — اسم لعدة مواضع : منها جبلة — ويقال : شعب جبلة — الموضع الذى كانت فيه الوقعة المشهورة بين بنى عامر وتميم وعبس وذبيان وفزارة . وجبلة هذه هضبة حمراء بنجد بين الشريف — مصغرا — والشرف . والشريف : ماء لبنى نمير . والشرف : ماء لبنى كلاب .

ابن عمرو بن آكل المُرَار ، ومع بني حنظلة والرِّبَاب حسان بن عمرو بن الجون في جموع من كندة وغيرهم ، فأقبلوا إليهم بوضائع كانت تكون مع الملوك بالحيرة وغيرها ، وهم الرابطة ، وجاءت بنو تميم فيهم لقيط وحاجب وعمرو بن عمرو ، ولم يتخلف منهم إلا بنو سعد ؛ لزعمهم أن صعصعة هو ابن سعد ، ولم يتخلف من بني عامر إلا هلال بن عامر وعامر بن ربيعة بن عامر ، وشهدت غَنِي وباهلة وناس من بني سعد بن بكر وقبائل بجيلة إلا قشيراً ، وشهدت بنو عبس بن رفاعة ابن بهثة بن سُلَيم عليهم مرداس بن أبي عامر أبو العباس بن مرداس صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وشهد معهم نفر من عُكْل ، فانتهى جميع أهل الشعب يومئذ ثلاثين ألفاً .

وجاء الآخرون في عدد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ولم يجتمع قط في الجاهلية جمع مثله ، فانهزمت تميم وذبيان وأسد وكندة ومن لَفَّ لَفَّهم ، وقتل لقيط بن زرارة ، طعنه شريح بن الأحوص ، فحمل مرتثًّا فمات بعد يوم أو يومين ، وأسر حسان بن الجون ، أسره طفيل بن مالك ، وأسر معاوية بن الحارث بن الجون ، أسره عوف بن الأحوص ، وجَزَّ ناصيته وأطلقه على الثواب ، ولقيه قيس بن زهير فقتله ، وأسر حاجب بن زرارة ، أسره ذو الرقيبة مالك بن سلمة بن قشير ، وأسر عمرو بن عمرو بن عدس ، أسره قيس بن المنتفق ، فجز ناصيته وأطلقه على الثواب ، وكان يوم جَبَلَة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة ، وقبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسبع عشرة سنة ، وفي يوم الشعب ولد عامر ابن الطُّفَيل ، هكذا روى محمد بن حبيب عن أبي عبيدة ، وروى عنه غيره خلاف ذلك .

يوم أقرن

يوم « أقرن » : لبني عبس على بني تميم ، وبخاصة بني مالك بن مالك بن حنظلة ، وفي هذا اليوم قتل عمرو بن عمرو بن عدس ، وابنه شُرَيح ، وأخوه ربعي ، وكان عمرو بن عمرو خرج مراغماً للنعمان بن المنذر ، فسبى سبياً من

عبس ، وغنم مالا ، وابتنى بجارية من السبي ، فأدركته عبس فكان من أمره ما كان .

يوم زبالة

يوم « زُبَالَة »[١] : لبني بكر بن وائل ، وبخاصة بني شيبان وبني تيم الله ، رئيسهم بسطام ، على بني تميم ورئيسهم الأقرع بن حابس ، أسر فيه الأقرع وأخوه فراس ، واستنقذهما بِسْطَام بعد أن حكم عليه عمران بن مرة بمائة ناقة .

يوم جدود

يوم « جَدُود »[٢] : لبني سعد بن زيد مَنَاة على بني شيبان ، وكانت بنو شيبان أغارت مع الْحَوْفَزَانِ على سعد ، فأدركهم قيس بن عاصم المنقري فقتلهم واستنقذ ما كان في أيديهم ، وفاته الحوفزان لصَلَابة فرسه ، فلما يئس من أسره حفزه بالرمح في خزانة وركه فانتقضت عليه بعد حول فمات منها ، وسالمت في هذا اليوم بنو يربوع الجيش على تمر أخذوه منهم وفَضْل ثياب ، فعيرتهم بذلك منقر .

يوم الكلاب الأول

يوم « الكُلَاب الأول » لسلمة بن الحارث بن عمرو المَقْصُور ، ومعه بنو تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مَنَاة والصنائع ، على أخيه شرحبيل

---

(١) زبالة ـ بضم الزاي ـ قال ياقوت : « منزل معروف بطريق مكة من الكوفة ، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية ، وقال أبو عبيد السكوني : زبالة بعد القاع من الكوفة ، وقبل الشقوق ، فيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني أسد . ويوم زبالة من أيام العرب ، قالوا : سميت زبالة بزبلها الماء أي بضبطها له ، وقال ابن الكلبي : سميت زبالة باسم زبالة بنت مسعر امرأة من العمالقة نزلتها » اهـ .

(٢) جدود ـ بفتح الجيم ـ اسم موضع في أرض بني تميم قريب من حزن بني يربوع على سمت اليمامة . . . وكانت فيه وقعتان مشهورتان عظيمتان من أعرف أيام العرب اهـ من ياقوت .

ابن الحارث بن عمرو ومعه بكر بن وائل بن حنظلة بن مالك و بنو أسد وطوائف من بنى عمرو بن تميم والرباب ، ولم يكونوا ذلك الوقت يدعون رباباً ، وإنما تَرَبَّبُوا بعد ذلك ، حكاه أبو عبيدة ، فقُتِلَ شرحبيل : قتله أبو حنش عاصم ابن النعمان الجُشَمِي ، ويقال : بل قتله ذو الثنية حبيب بن عتبة الجشمى ، وكانت له سن زائدة ، وهو أخو أبي حَنَشٍ لأمه ، وهى سلمى بنت عدى بن ربيعة أخى مهلهل ، هكذا أثبتوا فى هذا الموضع أن عديا أخو مهلهل ، ويسمى الكُلاَب الأول أيضاً .

يوم الشعيبة (الكلاب الثانى)

يوم « الشُّعيبة[1] » [وهو] يوم « الكلاب الثانى » لبنى تميم و بنى سعد والرَّبَاب رئيسهم قيس بن عاصم ، على قبائل مَذْحِج فى نحو اثنى عشر ألفاً رئيسهم زيد بن المأمور ؛ وهو مذحج وهَمْدَان وكندة ، وفى هذا اليوم أسر عبد يَغُوثَ بن وَقَّاص الحارثى وهُتِمَ فم سمى بن سنان ، بعد أن أسر رئيس كندة : هَتَمَه قيس بن عاصم بقوسه ، وانتزع عبد يغوث من يدى الأهتم بعد أن شرط المأسور لموصله إليه مائة ناقة من الإبل ، انتزعته التيم فقتلوه برئيسهم النعمان بن جساس ، وكان قد قتل ذلك اليوم ، وسمى الكلاب الثانى أيضاً .

يوم حر الدوابر

يوم « حر الدوابر » قال أبو عبيدة : لم يشهد من تيم إلا الرباب وسعد خاصة ، وكان الغَنَاء من الرباب لتيم ، ومن سعد لمقاعس

يوم ذى بيض

يوم « ذى بيض » أغار الحوفزان على بنى يربوع فَسَبَى نسوةً منهم ، فأصرختهم بنو مالك بن حنظلة ، واستنقذوا النسوة ، وأسروا الحوفزان : أسره حنظلة بن بشر بن عمرو ، وزعم قوم أن هذا اليوم يوم « الصمد » .

---

(١) شعيبة - بضم ففتح - واد أعلاه من أرض كلاب ، ويصب فى سد قناة ، وهو واد

يوم عاقل

يوم « عاقل » : لبنى حنظلة على هَوَازن ، وفيه أسر الصِّمَّة بن الحارث ابن جُشَم ، وهزم جيشَهَ ، وكان الذى أسره الجعد بن الشماخ أحد بنى عدى ابن مالك بن حنظلة ، ثم أطلقه بعد سنة ، وجز ناصيته على أن يثيبه ، فأتاه على الثواب فضرب الصمة عنقه ، ثم غزا بنى حنظلة ثانية فأسره الحارث ابن نبيه المجاشعى ، وأَسَرَ رجلٌ من بنى أسد ـ وكان نزيلا عند ابن أخت له فى بنى يربوع ـ ابناً للصمة ، فافتدى الصمة نفسه ، ومضى مع ابن نبيه فى فداء ابنه إلى الأسدى النازل فى بنى يربوع ، فطعنه أبو مرحب بالسيف فقتله ؛ لشىء كان بينهما عند حرب بن أمية ، فبنو مجاشع تُعَيَّر بذلك .

يوم عينين

يوم « عَيْنَيْنِ[١] » : لبنى نَهْشَل على عبد القيس ، منعوا فيه بنى منقر وقد خرجوا مُمْتَارِين من البحرين ، فعرضت لهم عبد القيس ، واستغاثوا ببنى نهشل فحموهم واستنقذوهم .

يوم قلهى

يوم « قَلَهَى[٢] » : منعت بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان بنى عبس الماء وغلبتهم عليه بعد إصلاح فزَارة ومرة ، حتى أخذوا دية عبد العزى بن حِذَار ومالك بن سبيع .

يوم بزاخة

يوم « بُزَاخَةَ » : لبنى ضبة على محرّق الغسانى وأخيه فارس مودود ، أغاروا

---

(١) عينين ، هذا هو صوابه على صورة مثنى العين ، ووقع فى الاصول خطأ « عنين » قال أبو عبيدة : عينان بهجر ، وكان بها بين بنى منقر وعبد القيس وقعة وفيها يقول الفرزدق :

ونحن كففنا الحرب يوم ضرية ونحن منعنا يوم عينين منقرا

(٢) قلهى ـ بفتح القاف واللام جميعا فيما ذكر سيبويه ، وذكر غيره أن اللام ساكنة ـ وفيه وفى هذا اليوم يقول معقل بن عوف الثعلبى :

تظل دماؤهم ، والفضل فينا ، على قلهى ونحكم ماتريد

على بنى ضبة ببزاخة فى طوائف من العرب من إياد وتغلب وغيرهما ، فأدركتهم بنو ضبة ، فأَسَرَ زيد الفوارس مُحرقا ، وأسر أخاه حنش بن الدلف ثم قتلاهما بعد أن هزم مَنْ كان معهما ، وقتل معهما عدة .

يوم إضم

يوم « إضم » : لبنى عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة على الحارث ابن مُزَيْقِيَا الملك الغَسَّانى ، وهو عمرو بن عامر ، وفيهم كان ملك عسان بالشام فى آل جَفْنَةَ ... علثة بن عمرو بن عامر قتل بنى عائذة قتلا ذريعا ، وفى ذلك اليوم قتل الرديم ، وحمل رجل من بنى عائذة بن قيس يدعى عامر بن ضامر فقال : والله لأطعنن طعنة كنحر الثور النعر ، ثم قصد ابن مُزَيْقِيَا فطعنة فقتله وانهزم أصحابه هزيمة فاحشة ، وزعم قوم أن هذا اليوم هو يوم « بزاخة » .

وقال آخرون : بل كانت الواقعة مع عبد الحارث من ولد مزيقيا ، وزعم غيرهم أيضا أنها مع مزيقيا نفسه لا مع ولده ، والله أعلم .

يوم نقا الحسن

يوم « نقا الحسن[1] » : الحسن شجر ، سمى بذلك لحسنه ، وقيل : هو جبل ، وهذا اليوم لبنى ثعلبة بن سعد بن ضبة على بكر بن وائل ، وفيه قتل بسطام بن قيس : قتله عاصم بن خليفة أخو بنى صباح ، وكان رجلا أَعْسَرَ فأصاب صُدْغه الأيسر حتى نجم السنان من الصدغ الأيمن .

يوم أعيار

يوم « أعيار » : وهو أيضاً يوم « النقيعة » لبنى ضَبَّة على بنى عَبْس ، وفيه قتل عمارة الوهاب : قتله شرحاف بن المثلم بابن عم له يدعى مفضالا كان عمارة قد قتله وانطوى خبره ، ثم سمع شرحاف ذكره على شراب ، وكان حينئذ غلاما ، فحين شَبَّ أخذ بثأر ابن عمه يوم النقيعة ، واستنقذت بنو ضبة إبلها من عبس ، وقد كانوا أدركوهم فى المَرَاعِى .

---

(١) فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٩٠) « بلقاء الحسن » .

يوم رحرحان الأول

يوم « رَحْرَحَان الأول » : غزا يثربى بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بنى عامر بن صعصعة ، وعلى بنى عامر قريط بن عبيد بن أبى بكر ، وقتل يثربى .

يوم رحرحان الثانى

يوم « رحرحان الثانى » : لبنى عامر بن صعصعة ، ورئيسهم الأحْوَصُ ، على بنى دارم ، وفى ذلك اليوم أسر مَعْبَد بن زُرَارة : أسره عامر بن مالك وأخوه طفيل وشاركهما فى أسره رجل من غنى يقال له : أبو عميرة عصمة بن وهب وكان أخا طفيل من الرضاعة ، وفى أسرهم مات معبد ، شَدُّوا عليه القِدَّ و بعثوا به إلى الطائف خوفا من بنى تميم أن يستنقذوه ، كان هذا كله بسبب قتل الحارث بن ظالم المرى من مرة بن سعد بن ذبيان خالدَ بن جعفر غدراً عند الأسود بن المنذر — وقيل : عند النعمان — والتجائه إلى زرارة بن عدس ، فلما انقضت وقعة رَحْرَحَان جمع لَقِيط بن زُرَارة ابنى عامر، وألَّبَ عليهم ، وكان بين يوم رحرحان وغزوة جَبَلة سنة واحدة

يوم ضرية

يوم «ضَرِيَّة» : اختلفت سعد والرباب على بنى حنظلة ، وكان بنو عمرو ابن تميم حالفوا بكر بن وائل ، فضاقت حنظلة بسعد والرباب ، فساروا إلى عمرو ابن تميم فردوهم وحالفوهم ، ثم جمعوا لسعد والرباب ورئيسُهم يومئذ ناجية بن عقال ، ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم ، فقال ابن خفاف لسعد والرباب : مَنْ لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلتهم ؟ قالوا : نحن ، قال : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلتكم ؟ قالوا : هم ، قال : فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم ، وتكلم الأهتم بمثل ذلك ورجال من أشراف سعد ، وساروا إلى عمرو وحنظلة إلى النسار من حمى ضرية ، فأجابهم ناجية بن عقال والقعقاع بن معبد بن زرارة وسنان بن علقمة بن زرارة إلى الصلح ، وأبى ذلك مالك بن نُوَيْرة

يوم النسار

يوم « النِّسَار » : وذلك أن عامر بن صَعْصَعة ومن معهم من هوازن

انتجعوا بلاد سعد والرباب ، وهم يمتون إليهم برحم ؛ لأنهم يزعمون أن صعصعة أبا عامر هو ولد سعد بن زيد مناة بن تميم .

وقال آخرون : إنما غضبوا على سعد لما أنهب المعزى بعكاظ ، فلحق ببنى أمه ولد معاوية بن بكر وهوازن ، وكان سعد قد فارقها بعد أن ولدت له صعصعة وتزوجها معاوية بن بكر فضمن سعد والرباب الأهتم ، واسمه سنان بن سمى بن سنان ، وقيل : سمى بن سنان ، وضمن هوازن مرة بن هبيرة ، فسرقت خيل لذى الرقيبة ، ثم اعترفت بعد ذلك بيسير عند الحنيف بن المنتجف ، اعترفها بعض القشيريين ، فضربه القشيرى على ساعده ، وضربه الحنيف فقتله ، فأرادت هوازن القَوَدَ من الرباب ، فطلبهم بذلك ضامن سعد ، فأبت الرباب إلا الدية، ففارقتهم سعد ، وضافرت هوازن، فاستمدت بنو ضبة أسداً وطيئاً والتقوا بالنسار ، فعبأت أسد لسعد والرباب لهوازن ، فانهزمت هوازن وسعد ، وكان حامى أدبار بنى عامر يومئذ قدامة بن عبد الله القشيرى ، فرماه ربيعة بن أبَىّ — وكان أرمى الناس — فقتله ، فلما رأت ذلك بنو عامر منه وسائر هوازن سألوا أن يؤخذ منهم شطور أموالهم وسلاحهم، وقبل ذلك منهم، وهذا يوم «المشاطرة» ويوم «النسار» وهو من مذكورات أيام العرب فى الجاهلية ، وبنو ضبة تزعم أن هذا اليوم قبل يوم جبلة ، وأبو عبيدة لا يشك أنه بعده .

يوم الصرائم

يوم « الصرائم »[1] وهو أيضاً يوم « الجرف » لبنى رياح بن يربوع على بنى عبس ، وفى هذا اليوم أسر الحكم بن مروان بن زنباع العبسى ، أسره

---

(١) قال ياقوت : الصرائم : موضع كانت فيه وقعة بين تميم وعبس ، قال شميت ابن زنباع :

وسائل بنا عبساً إذا ما لقيتها على أى حى بالصرائم دلت
قتلنا بها صبراً شريحاً وجابراً وقد نهلت منا الرماح وعلت

أسيد بن حياة السليطى ، وأسر بنو حميرى بن رياح زنباعاً وفروة ابنى مروان ابن زنباع ، واستنقذوا جميع ما أصابته عبس لربيعة بن مالك بن حنظلة وأسرفوا ذلك اليوم فى قتل بنى عبس

يوم «الغبيط[1]» : لبنى يربوع على بنى شيبان ، وكان الشيبانيون قد غزوهم متساندين على ثلاثة ألوية : الحوفزان بن شريك ، والأسود أخوه ، وبسطام بن قيس ، وفى هذا اليوم أسر الأسود بن الحوفزان وزيد بن الأسود ابن شريك ، وحمى بسطام آخر القوم حتى حسبوه قتل وأسر ، ورثاه بعضهم بمراثٍ عِدَّة ، وزعم سعد عن أبى عبيدة أن يوم الغبيط هو يوم «الأياد» ويوم «العُظَالَى» سمى بذلك لأن بسطام بن قيس وهانىء بن قبيصة ومفروق ابن عمرو والحوفزان بن شريك تعاظلوا على الرياسة . يوم الغبيط

وقال مرة أخرى : لم يشهد الحوفزان يوم العظالى ، قال : وهو أيضاً يوم «الإفاقة» ويوم «أعشاش» ، ويوم «مليحة» .

يوم «ذى نَجَب»[2] لبنى يربوع على بنى عامر ، وفيه قتل حسان بن معاوية بن آكل المُرَار الملك ، قتله حشيش بن نمران من بنى رياح بن يربوع، وقيل : بل هو عمرو بن معاوية — أعنى المقتول — وأما حسان فأسر ، أسره يوم ذى نجب

(١) قال ياقوت : غبيط الفردوس : فى ديار بنى يربوع ، وفيه يوم لبنى يربوع دون مجاشع ، وفيه يقول جرير :

ولا شهدت يوم الغبيط مجاشع ولا نقلان الخيل من قلتى يسر

(٢) قال ياقوت : نجب — بفتح أوله وثانيه — موضع كانت فيه وقعة لبنى تميم على بنى عامر بن صعصعة . . . وفيه يقول سحيم بن وثيل الرياحى :

ونحن ضربنا هامة ابن خويلد يزيد ، وضرجنا عبيدة بالدم

بذى نجب إذ نحن دون حريمنا على كل جياش الأحارى مرجم

دريد بن المنـــذر ، وكانت بنو عامر أتت به تغزو بنى حنظلة بن مالك بعد يوم جبلة بعام ، فتنحى لهم بنو مالك بن عمرو بن عمرو بن عدس ، وتركوا فى صدورهم بنى يربوع ، فهزمت بنو عامر هزيمة عظيمة ، وأسر يومئذ يزيد بن الصَّعِق ، وقتلت بنو نَهْشَل خليف بن عبيد الله النميرى ، وأسر زيد بن ثعلبة المصـــان ، وهو عامر بن كعب بن أبى بكر بن كلاب ، وقتل خالد بن ربعى النهشلى عمرو ابن الأحوص ، وكان رئيس بنى عامر يومئذ .

يوم خزازى

يوم «خزازى»[١] : ويقال : «خزاز» واختلف فيه : فقال قوم : كان رئيس نزار فيه كليب بن ربيعة . وقال آخرون : رئيسهم زرارة بن عدس ، وقال آخرون : بل ربيعة بن الأحوص ، وقد أنكر أبو عمرو بن العلاء جميع ذلك والذى ثبت عنده أنه قال : هو يوم لنزار على ملك من ملوك اليمن قديم لا يعرف مَنْ هو منهم ، وأما ربيعة فيقول : لا شك أنه يوم «خزاز» لكليب بن ربيعة على مَذْحِج وغيرهم من اليمن ، وكان بعقب يوم السُّلاّن، فجمع كليب جموع ربيعة ، فاقتتلوا ، فانهزمت مذحج والذين معهم من اليمن .

يوم ملزق

يوم «ملزق[١]» وهو أيضاً يوم «السُّوبَانِ» كان لبنى تميم على عبس

---

(١) قال ياقوت : ويوم خزاز كان بعقب السلان . وخزاز وكير ومتالع : أجبال ثلاثة بطخفة ، مابين البصرة إلى مكة : فمتالع عن يمين الطريق للذاهب إلى مكة ، وكير عن شماله ، وخزاز بنحر الطريق ، إلا أنها لا يعر الناس عليها ثلاثتها .

(٢) ملزق ــ الأكثرون على كسر الميم وفتح الزاى وآخره قاف ، وفيه يقول أوس بن مغراء :

ونحن بملزق يوما أبرنا فوارس عامر لما لقونا

وعامر بعد أن قاتلت تميم جميع مَنْ أتى بلادها من القبائل ، وهم إياد ، و بلحارث بن كعب ، وكلب ، وطيء ، و بكر ، وتغلب ، وأسد ، كانوا يأتونهم حياً حياً فتقتلهم تميم وتنفيهم عن البلد ، وآخِرُ من أتاهم بنو عبس و بنو عامر .

يوم الوندة

يوم « الوندة » وهى بالدَّهناء ، أغارت بنو هلال على نَعَم ِ بنى نَهْشَل . فأنزلتهم بنو نهشل بالوندة – وهى بالدهناء – فما أفلت من بنى هلال إلا رجل واحد يقال له : فراس طواف ؛ وقيل أواب .

يوم فيف الريح

يوم « فيف[1] الريح » ، ورأيته بخط البصرى « فيفا » مقصوراً فى مواضع من كتاب نوادر أبى زياد الكلابى .

وأنشد أبو زياد لعامر بن الطفيل :

و بالفَيْفا من اليمن استثارت قبائل كان أَلَّبَهم فخاروا

الفيفا : جبل طويل من جبال خثعم يقال له : فيفا الريح ، وكان الصبر فيه والشرف لبنى عامر ، وقد اجتمعت كلها إلى عامر بن الطُّفيل على قبائل مَذْحِج ، وقد غزتهم مذحج فى عدد عظيم من بنى الحارث بن كلب وجعفى وز بيد وقبائل سعد العشيرة ومراد وصدى ونهد ، ورئيسهم الحصين بن يزيد الحارثى ، واستغاثوا بخَثْعَم ، فجاءت شهران وناهس وأكلب عليهم أنس بن مدرك ، وأسرع القتل فى الفريقين ، فافترقوا ، ولم تغنم طائفة منهم طائفة ،

---

(١) فيف الريح – بفتح الفاء وسكون الياء – بأعالى نجد . قال ياقوت : وهو يوم من أيامهم ، فقئت فيه عين عامر بن الطفيل ، فقأها مسهر الحارثى بالرمح ، وفيه يقول عامر :

لعمرى ، وما عمرى على بهين ، لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

وفي هذا اليوم أصيبت عين عامر ، وزعم عبد الكريم وغيره أن يوم فيفا الريح هو يوم « طلح »

يوم ذي بهدى

يوم «ذي[1] بَهْدَى» : لبنى يربوع على تغلب ، أسروا فيه الهذيل ، قال جرير للأخطل يعيره بذلك :

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنا يومَ الهذيلُ بأيدى القوم مقتسر

يوم البشر

يوم « البشر[2] » لبنى كلاب على الأراقم ، ورئيس قيس يومئذ الجَحّافُ ابن حكيم الكلابى، وكان سبب ذلك تعيير الأخطل إياه

يوم الرغام

يوم « الرغام » لبنى ثعلب بن يربوع ، ورئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب ، أغار فيه على بنى كلاب فأطرد إبلهم ، وقتل يومئذ أخوه حنظلة ، قتله الحَوْثَرَةُ ، وأسر الحوثرة ذلك اليوم ، فدفع إلى عتيبة فقتله صبراً بأخيه ، وانهزم الكلابيون بعد أن أسرع فيهم القتل والأسر

---

(١) قال ياقوت : بهدى بوزن سكرى ، ويقال ذو بهدى : قرية ذات نخل باليمامة ، وقيل : هما موضعان متقاربان ، ويوم ذى بهدى من أيامهم . قال ظالم بن البراء الفقيمى :

ونحن غداة يوم ذوات بهدى لدى الوتدات إذ غشيت تميم
ضربنا الخيل بالأبطال حتى تولت وهى شاملها الكلوم
بضرب يلقح الضبعان منه طروقته ويلجئه الأروم

(٢) البشر ـ بكسر فسكون ـ اسم جبل يمتد إلى الفرات من أرض الشام، وكانت بنو تغلب قد قتلت عمير بن الحباب السلمى ، فاتفق أن قدم الأخطل على عبد الملك بن مروان والجحاف بن حكيم جالس عنده ، فقال الأخطل :

ألاسائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر

فخرج الجحاف مغضبا يجر مطرفه ، فكانت الوقعة بسبب ذلك . انظر ياقوت .

يوم «المراميت[١]» للضباب ، وهم معاوية بن كلاب ، على إخوته بنى جعفر ابن كلاب ، وكان هذا اليوم فى زمن عبد الملك بن مروان ، وكذلك يوم البشر يوم المراميت

يوم «الوقيـــظ» كان فى فتنة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو للهازم ، رئيسهم أَبجَر بن بُجَير ، على بنى مالك بن حَنْظَلة ، فأما بنو عمرو بن تميم فأنذرهم ناشب بن بَشَامة العنبرى ، فدخلوا الدَّهْناء فنجوا ، وفى هـذا اليوم أسر ضرار بن القعقاع بن معبد ، أسره القرز الشيبانى ورجل من تَيْم اللاَّتِ ، فجزَّتْ تيم اللات ناصيته ، وخَلَّته تحت الليل مضارة للقرز ، ويسمى أيضا هـذا اليوم يوم «الحنو» يوم الوقيظ

يوم «جزع طلال» لفزارة ورئيسهم عُيَينة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر ، على التيم وعدى وعكل وثور أطحل بنى عبد مناة ، وأخذ يومئذ شريك ابن مالك بن حذيفة من التيم وعكل أربعين امرأة ثم أطلقهن ، وأخذ خارجة ابن حصن نفرا من التيم فأطلقهم بغير فِدَاء ، ثم أغارت فزارة بعد ذلك عليهم ورئيسهم عيينة ، فقتلوا التيم قتلا ذَرِيعاً وأخذوا منهم مائة امرأة فقسمهن عيينة فى بدر ، وجعلهن مع أزواجهن الأسارى ينقلن الخرى هُوناً لهم ، ثم أطلق الجميع بعد ذلك بغير فداء ، وأغارت عليهم بعد ذلك بنو غيظ بن مرة ، ورئيسهم زيد ابن شيبان بن أبى حارثة ، فقتلوا التيم وعدياً وسبوا سبياً كثيراً لم يردوا منه شيئاً ، فنَعَى هذا كله عليهم جرير يوم جزع طلال

يوم «أوارة» الأول : لتغلب والنمر بن قاسط مع المنذر بن ماء السماء ، يوم أوارة الأول

---

(١) قال ياقوت : هراميت آبار مجتمعة بناحية الدهناء ، كان بها يوم بين الضباب وجعفر ، زعموا أن لقمان بن عاد احتفرها ، وقال أبو أحمد : وكان القتال بسبب بئر أراد أحد أن يحتفرها .

على بكر بن وائل مع سلمة بن الحارث ، واسم سلمة معدى كرب ، وهو أيضاً الغَلْفَاءُ ، بعد قتل أخيه شرحبيل ، والذى قتل سلمة الغلفاء بن عمرو بن كلثوم ، عرفه لحمل عليه حتى قنَّعَه السيفَ ، وكان سبب هزيمة بكر بن وائل، وحلف المنذر يومئذ ليقتُلَنَّ بكراً على رأس أوارة حتى يلحق الدم بالحضيض ، فشفع لهم مالك بن كعب العجلى ، وقال للمنذر : أنا أخرجك من يمينك ،فصب المـاء على الدم فلحق الأرض ، و بر يمين المنذر ، فـكفَّ عن القتل ، وكان مالك هذا رضيع المنذر

يوم أوارة الأخير

يوم « أوراة » الأخير : كان لعمرو بن هند على بنى دارم ، وذلك أن ابنا له كان مُسْتَرْضَعاً عند زرارة بن عدس اسمه أسعد ، وكان قد تَبَنَّاه فعبث بناقة لأحد بنى دارم يقال له سويد ، فخرق ضَرْعَها ، فشد عليه فقتله ، وأتى الخبر زرارة ، وهو عند عمرو ، وكان كالوزير له ، فلحق بقومه وأدركه الموت على عقب ذلك ، فغزا عمرو بنى دارم ، وحلف ليقتُلن منهم مائة ، فقتل منهم تسعة وتسعين ، وأتم المائة برجل من البَرَاجِمِ ، وفى حكاية أخرى أنه أحرَقَهم،و بذلك تشهد مقصورة ابن دريد وشعر الطِّرِمَّاح ، وزعم أبو عبيدة أن من زعم أنه أحرقهم فقد أخطأ ، وذُكِرَ [له] شعر الطرماح ،فقال : لا علم له بهذا ، واستشهد بقول جرير :

أينَ الذينَ بسيفِ عَمْرٍو قُتِّلوا أمْ أينَ أسْعَدُ فيكُمُ المسترضعُ

يوم زرود الأول

يوم « زرود » الأول : لشيبان مع الحوفزان ، على بنى عبس ، وأُثخِنَ ذلك اليوم عمارة الوهاب جِرَاحًا ، غير أنه سلم فلم يمت منها

يوم زرود الآخر

يوم «زَرُود » الآخر : أغار حزيمة بن طارق التغلبى على بنى يربوع ، فاستاق النَّعَمَ ، فأدركوه ، فأسره أُسيد بن حناءة السليطى وأنيف بن جبلة الضبى وكان ثقيلا فى بنى يربوع ، وردوا الغنيمة من أيدى التغلبيين

يوم تثليث

يوم « تثليث » غزت سُلَيم مع العباس بن مِرْدَاس مرادا ، فجمع لهم عمرو بن معدى كرب ، فالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ولم تظفر طائفة منهم بالأخرى ، وفى ذلك اليوم صنع العباس قصيدته السينية ، وهى إحدى المنصفات .

يوم ذى علق

يوم « ذى علق » كان بين بنى عامر و بنى أسد ، وفى هذا اليوم قتل ربيعة أبو لَبيدٍ .

يوم العذيب

يوم « العذيب » : كان لبنى سعد بن زيد مَنَاة وعَنَزة ، على مذحج وحمير ، وكان رأس اليمن الأصهب الجعفى ، بعث إليه النعمان ينكر عليه بلوغ سعد وعنزة العذيبَ ، فحشد لهم ولقيهم ، فقتلوه ، قتله الأحمر بن جندل، وانهزمت اليمانية هزيمة شديدة ، وأخذ منهم مال كثير وسبى

يوم الصفقة

يوم « الصفقة » : وهو أيضاً يوم « المُشَقَّر » كان على بنى تميم بسبب عير كسرى التى كان يُجِيزُها هوذة بن على السحيمى ، فلما سارت ببلاد بنى حنظلة اقتطعوها برأى صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، فكتب كسرى إلى المُكَعْبر عامِلِهِ على هَجَر فاغتالهم ، وأراهم أنه يعرضهم للعطاء و يصطنعهم ، فكان أحدهم يدخل من باب المشقر فينزع سلاحه و يخرج من الباب الآخر فيقتل ، إلى أن فَطِنُوا ، وأصفق الباب على مَنْ حصل منهم ؛ فلذلك سميت الصفقة ، وشفع هوذة فى مائة من أساراهم فتركوا له ، فكساهم وأطلقهم يوم الفصح وكان نصرانيا .

يوم ذى قار

يوم « ذى قار » : كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو لبنى بكر بن وائل وقادمة بنى شيبان و بعدهم بنو عجل ، على الأعاجم جنود كسري ومن معهم من العرب رئيسهم إياس بن قبيصة الطائى ، وكان مكان النعمان بن المنذر بعد قتل كسرى إياه ، وتحت يديه طيىء و إياد وبَهْرَاء وقضاعة

والعِباد وتغلب والنمر بن قاسط ، قد رأس عليهم النعمان بن زرعة — أعنى النمر وتغلب — وكان سبب يوم « ذى قار » طلب كسرى تركة النعمان ابن المنذر، وكان النعمان قد تركها وترك ابنا له و بنتا عند هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيبانى ، فمنع رسول كسرى من الوصول إلى ما طلب؛ وكتب كسرى إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ، وكان عاملا له على الطف ، بأن يعين إياسا ، فأنفذ إلى قومه ليلا ، وحرَّضهم على القتال ، وتواطأت العربُ على العجم ، فطارت إياد عن العجم حين تشاجرت الرماح كأنهم مهزمون ، وقتل الهامرز بن خلا بزر عامل كسرى ، وأسر النعمان ابن زرعة التغلبى ، و بسبب ماصنع قيس بن مسعود استدرجه كسرى حتى أتاه فقتله .

يوم الفجار الأول

يوم « الفجار » الأول : كان بين كنانة بن خزيمة و بين عجز هوازن ، بسوق عكاظ أول يوم من ذى القعدة ، و بذلك سمى فجارا ؛ لأنهم فجروا فى الشهر الحرام ، وكان سبب ذلك أن بدر بن معشر الكنانى كان يستطيل على من ورد عكاظ فيمد رجله و يقول : أنا أعز العرب ؛ فمن كان أعز منها فليضربها بالسيف فضربها الأحمر بن هوازن من بنى نصر بن معاوية ، وكان بين القبيلتين تشاجر دون أن يقع بينهما دماء ، وليس هذا الفجار عند ابن قتيبة ، وقد ذكره أبو عبيدة .

يوم الفجار الثانى

يوم « الفجار » الثانى : كان بسبب فتيان مِن غزية قريش وكنانة رأوا امرأة وَضِيئة من بنى عامر بن صَعْصعة بسوق عكاظ ، فسألوها أن تُسْفِر لهم ، فأبت ، فحلّ أحدهم ذيلها إلى ظهر درعها بشوكة ، فلما قامت انكشفت ، فقالوا : منعتنا رؤية وجهك وأريتنا دبرك !! فصاحت : يَالَ عامرٍ

فتهاجوا ، وجرت بين الفريقين دماء يسيرة ، حملها الحارث بن أمية ، وليس هذا الفجار أيضا عند ابن قتيبة ، وقد ذكره أبو عبيدة .

يوم الفجار الثالث

يوم « الفجار » الثالث : كان بسبب دَيْنٍ كان لأحد بنى نصر على أحد [بنى] كنانة ، فأتى النصرى بقرد فقال : من يبيعنى مثل هذا بمالى على فلان ؟ فمر أحد بنى كنانة فقتل القرد ، فتصايح الفريقان ، ثم سكنوا ، وكان هذا سبب الأمر العظيم من قتل البَرّاض الكنانى عُرْوَةَ الرَّحَّال بن عيينة بن جعفر بن كلاب واتبعت هوازن قريشاً ، وكانوا قد أدركوهم بنخلة ، حتى دخلوا الحرم ، وجَنَّهم الليل ، ثم التقوا بعد حول فكانت الوقعة أيضا عليهم ، وهو يوم « شمطة » ثم التقوا أيضا بعد حول، فكانت الكرة على هوازن وفى ذلك اليوم سموا بنى أمية العنابس لما فعل حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان من تقييدهم أنفسهم حتى يَظْفَروا أو يُقْتَلوا ، هذه رواية أبى عبيدة ، وأما ابن قتيبة فجعل ما جرى بين النصرى والكنانى هو الفجار الأول ، وقال فى آخره : ولم يكن بينهم قتال ، إنما كان ذلك القتال فى الفجار الثانى ، وجعل سبب الفجار الثانى أن عيينة بن حصن ابن حذيفة أتى سوق عكاظ فرأى الناس يتبايعون ، فقال : أرى هؤلاء مجتمعين بلا عهد ولا عقد ، ولئن بقيت إلى قابل ليعلمن ، فغزاهم من قابل ، وأغار عليهم، قال : فهذا الفجار الثانى ، والحرب فيه بين كنانة وقيس ، والدائرة على قيس عيلان

يوم الجفار

يوم « الجفار » : للأحاليف فى ضبة وإخوتها الرباب وأسد وطيء ، على بنى تميم ، واستحر القتل يومئذ فى بنى عمرو بن تميم فقتلوا قتلا ذريعا .

يوم الصريف

يوم « الصريف » : كانت هذه الوقعة فى أيام الرشيد ، وهى لبنى ضبة على بنى حنظلة ، وفى ذلك يقول شاعرهم ، وأظنه من ولد جرير :

صَبَرَتْ كُلَيْبٌ لِلطِّعَانِ وَمَالِكٌ ... يوم الصريفِ وَفَرَّت الأحمال

و « الأحمال » : بطون من بنى حنظلة .

وقد أوفيت بما عقدت به فى صدر هذا الكتاب من إثبات ما انتهى إلىَّ من أيام العرب ، مجتهداً فى اختصارها ، بريئا مما وقع فيها من الاختلاف ، وإنما عهدة ذلك على الرواة .

مفاخر بنى شيبان

وسأذكر من مفاخر بنى شيبان لمعاً أختم بها هذا الباب كما بدأته ؛ لأنى لو تقصَّيت ذلك لأفنيت العمر دون تقضى الجزء الذى لا يتجزأ منه قلة ، لكنى ذهبت فيهم وفى سيدهم أبى الحسن مذهب أبى الطيب فى إخوتهم بنى تغلب وفى سيدهم على بن حمدان حيث يقول :

ليتَ المدائح تستوفى مدائحه ... فما كليب وأهل الأعصرِ الأول
خُذْ ماتراه ودَعْ شيئا سمعتَ به ... فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَلِ

وفود ربيعة عند النعمان ابن المنذر

قال أبو عبيدة : قدم على النعمان بن المنذر وفود ربيعة ومضر بن نزار ، وكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطامُ بن قيس والحوفزانُ بن شريك البَكْرِيَّان ، وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس عيلان عامر بن مالك وعامر بن الطُّفَيْل ، ومن تميم قيسُ بن عاصم والأقرعُ بن حابس ، فلما انتهوا إلى النعمان أكرمهم وحَبَاهم ، وكان يتخذ للوفود عند انصرافهم مجلساً : يطعمون فيه معه ، ويشربون ، وكان إذا وضع الشراب سقى النعمان، فمن بدىء به على أثره فهو أفضل الوفد ، فلما شرب النعمان قامت القينة تنظر إلى النعمان من الذى يأمرها أن تسقيه وتفضله من الوفد ، فنظر فى وجهها ساعة ثم أطرق ثم رفع رأسه وهو يقول :

اسقى وُفُودَكِ مما أنتِ ساقيتى ... فابْدَىْ بكاس ابن ذى الجدين بِسْطَام
أغَرُّ ينميه من شيبان ذو أنَفٍ ... حامى الذمارِ وعن أعراضها رامى
قد كان قيسُ بنُ مسعودٍ ووالدُه ... تبــدا الملوك بهم أيام أيامى
فأرضوا بما فعلَ النعمانُ فى مُضَرٍ ... وفى ربيعة من تعظيم أقوام
همُ الجماجمُ والأذنابُ غيرهمُ ... فأرْضَوْا بذلك أو بُوءوا بإرغام

فقال عامر بن الطفيل :

كان التبايعُ فى دهرٍ لهم سلفٌ * وابن المُرَّار وأملاكٌ على الشام
حتى انتهى الملك من لخم إلى مَلِكٍ * بادى السنان لمن لم يرْمِه رامى
أنحى علينـــا بأظفار فطوَّقنا * طَوْقَ الحمـــام بإتعاس و إرغام
إن يمكنِ الله من دَهْر نساء به * نتركك وَخْدَكَ تدعو رَهْطَ بسطامِ
فانْظُرْ إلى الصِّيدِ لم يحموك من مضر * هلْ فى ربيعةَ إن لم تدعنا حامى ؟؟

فأجابه بسطام بن قيس فقال :

لعمرى لئن ضَجَّتْ تميم وعامرٌ * لقد كنتُ يوماً فى حلوقهمُ شَجَى
أرونى كمسعود وقيس وخالدٍ * وعمرو وعبد الله ذى الباع والنَّدَى
وكانوا على أفناء بكر بن وائل * ربيعا إذا ماسال سائلهم جدى
فَسِرْتُ على آثارهم غير تاركٍ * وَصيَّتهم حتى انتهيت إلى مَدَى

مفاخرة عند معاوية بين عامرى وشيبانى

قال : وافتخر رجلان بباب معاوية بن أبى سفيان : أحدهما من بنى شيبان ، والآخر من بنى عامر بن صعصعة ، فقال العامرى : أنا أعد عليك عشرة من بنى عامر ، فعد علىّ عشرة من بنى شيبان ، فقال الشيبانى : هات إذا شئت ، فقال[1] العامرى : خذ عامر بن مالك مُلاَعب الأسنة ، والطفيل بن مالك قائد هوازن وفارس قرزل ، ومعاوية بن مالك معوذ الحكماء[2] ، وربيعة بن مالك فارس ذى علق ، وعامر بن الطُّفَيل ، وعلقمة بن عُلاَثة ، وعتبة بن سنان ، ويزيد بن الصَّعِق ، وأربد بن قيس ، وهو أربد الحتوف ، فقال الشيبانى : خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ، وبسطام بن قيس سيد فتيان ربيعة ، والحوفزان ابن شريك فارس بكر بن وائل ، وهانىء بن قبيصة أمين النعمان بن المنذر ،

(١) لم يذكر العامرى عشرة فيما ذكر المؤلف ، وإنما هم تسعة .
(٢) انظر ص ١٩٦ من هذا الجزء .

وقبيصة بن مسعود وافد المنذر ، ومفروق بن عمرو حاضن الأيتام ، وسنان بن مفروق ضامن الدمن ، والأصم عمرو بن قيس صاحب رءوس بنى تميم ، وعمران ابن مرة الذى أسر يزيد بن الصعق مرتين ، وعمرو بن النعمان ، فقتلا حياً ، فخرج حاجب معاوية فصادفهما على تلك الحال ، فدخل على معاوية فأخبره بالقضية ، فدعا بهما ، فلما دخلا عليه نسبهما ، فانتسبا له ، فقال معاوية : عامر أفخر هوازن ، وشيبان أفخر بكر بن وائل ، وقد كفا كما الله المؤنة ، هذان رجلان من غير قومكما عندى يحكمان بينكما : عدى بن حاتم ، وشريك بن الأعور الحارثى ، احكما بينهما ، ثم قال معاوية للشيبانى : من يعبى لعامر بن مالك ؟ قال الأصم بن أبى ربيعة الذى قتل من تميم مائة رجل على دم ، فقال معاوية للرجلين : ما تقولان ؟ قالا : رجح الأصم على عامر بن مالك ، قال معاوية : فمن يعبى لعامر ابن الطفيل ؟ قال الشيبانى : الحوفزان بن شريك ، قال الحكمان : رجح الحوفزان ، قال : فمن يعبى لعلقمة بن عُلاثة ؟ قال الشيبانى : بسطام بن قيس ، فقالا : رجح بسطام ، قال معاوية : فمن يعبى لعتبة بن سنان ؟ قال الشيبانى : مفروق بن عمرو ، فقالا : رجح مفروق ، قال معاوية : فمن يعبى للطفيل بن مالك ؟ فقال الشيبانى : عمران بن مرة ، فقالا: رجح عمران بن مرة ، فقال معاوية: فمن يعبى لمعاوية بن مالك ؟ قال الشيبانى : عوف بن النعمان ، فقالا : رجح عوف بن النعمان ، قال معاوية : فمن يعبى لعوف بن الأحوص ؟ قال الشيبانى : قبيصة بن مسعود ، فقالا : رجح قبيصة ، قال : فمن يعبى لربيعة بن مالك ؟ قال: هانىء بن قبيصة ، فقالا : رجح هانىء بن قبيصة ، قال معاوية : فمن يعبى ليزيد ابن الصعق ؟ قال: سنان بن مفروق ، فقالا : رجح سنان بن مفروق ، قال : فمن يعبى لأربد بن قيس ؟ قال : الأسود بن شريك ، فقال معاوية للشيبانى : فأين نسيت قيس بن مسعود ؟ قال : أصلحك الله ! قيس ليس من هذه الطائفة فاتهم عنى حيناً طويلاً ، فقال العامرى فى ذلك :

أعدُّ إذا عددتُ أبا بَرَاء ... فكان علا على الأقوام فضلا
وكان الجعفرىُّ أبو علىّ ... إذا ما هاجتِ الهيجاء علاّ
ووالده الذى حُدِّثتَ عنه ... طفيلٌ خيرنا يَفَعاً وطِفلاَ
وكان معودُ الحكم المبارِى ... رياحَ الصيف أعلى القوم فعلا
وقد أورتْ زنادُ أبى لبيدٍ ... ربيعةَ يومَ ذى عَلَقٍ فأبلى
وعلقمة بن أحوص كان كهفاً ... كلابيا رحيبَ الباع سَهلاَ
وعُتْبَةُ والأغرُّ يزيدُ ، إنى ... رأيتهما لكلّ الفخر أهلا
وعَوْفاً ثم أرْبَدَ ذا المعالى ... كفى بهما عليك ندىً وَبذْلاَ
أولئك من كلاب فى ذُرَاها ... وَخَيْرُ قرومها حَسَباً وَنبلاَ

فقال الشيبانى مجيباً له :

أعدُّ إذا عددتُ أبا خفافٍ ... وعمرانَ بن مرةَ والأصما
وهانئاً الذى حُدِّثتَ عنه ... وكان قبيصةُ الأنفَ الأشَمّا
ومفروقاً وذا النّجَدَاتِ عَوْفاً ... وبسْطَاماً ووالدَه الخِضَمّا
وأسود كان خير بنى شريك ... ولم يكُ قرنهُ كَبْشا أجمّا
أولئك من عكابة خير بكر ... وأكرم من يليكَ أباً وأمّا
وأفضل من ينصُّ إلى المعالى ... إذا ما حَصَّلُوا خالاً وعمّا
وأكثر قومهمْ بالشرِّ طَوْقاً ، ... وأبعد قومهمْ فى الخير همّا

فقال معاوية للحكمين : ما تقولان ؟ قالا : شيبان أكرم الحيين ، فقال معاوية : وذاك قولى ، فأكرمهما وحباهما ، وفضل الشيبانى على العامرى .

حديث ذى الجدين

قال : وكان من حديث ذى الجدين أن الملك النعمان قال : لأعطين أفضل العرب مائة من الإبل ، فلما أصبح الناس اجتمعوا لذلك ، فلم يكن قيس بن مسعود فيهم ، وأراده قومه على أن ينطلق ، فقال : لئن كان يريد بها غيرى لاأشهد ذلك

وإن كان يريدنى بها لأعْطَيَنّهَا ، فلما رأى النعمان اجتماع الناس قال لهم : ليس صاحبها شاهداً ، فلما كان من الغداة قال له قومه : انطلق ، فانطلق ، فدفعها إليه الملك ، فقال حاجب بن زرارة : أبيت اللعن ، ما هو أحق بها منى ، فقال قيس ابن مسعود : أنافره عن أكرمنا قعيدة ، وأحسننا أدب ناقة ، وأكرمنا لئيم قوم ، فبعث معهما النعمان من ينظر ذلك ، فلما انتهوا إلى بادية حاجب بن زرارة مروا على رجل من قومه ، فقال حاجب : هذا ألأم قومى ، وهو فلان بن فلان ، والرجل عند حَوْضه ومَوْرد إبله ، فأقبلوا إليه ، فقالوا : ياعبد الله ؛ دعنا نستقى ؛ فإنا قد هلكنا عطشا وأهلكنا ظهورنا ، فتجهم وأبى عليهم ، فلما أعياهم قالوا لحاجب: اسفر ، فسفر فقال : أنا حاجب بن زرارة ، فدعنا فلنشرب ، قال : أنت ؟ فلا مرحباً بك ولا أهلا ، فأتوا بيته ، فقالوا لامرأته : هل من منزل يا أمة الله ؟ قالت: والله مارب المنزل شاهد ، وما عندنا من منزل ، وراودوها على ذلك فأبت ، ثم أتوا رجلا من بكر بن وائل على ماء يورد ، قال قيس : هذا والله ألأم قومى ، فلما وقفوا عليه قالوا له مثل ما قالوا للآخر فأبى عليهم ، وهم أن يضربهم ، فقال له قيس بن مسعود : ويلك أنا قيس بن مسعود ، فقال له : مرحباً وأهلا ، أورد ، ثم أتوا بيته ، فوجدوا فيه امرأته وقدرها يئط ، فلما رأت الركب من بعيد أنزلت القدر و بردت ، فلما انتهوا إليها قالوا : هل عندك يا أمة الله من منزل؟ قالت : نعم أنزلو فى الرحب والسعة ، فلما نزلوا طعموا وارتحلوا ، فأخذوا ناقتيهما ، فأناخوهما على قريتين للنمل ؛ فأما ناقة قيس بن مسعود فتضورت وتقلبت ثم لم تنز ، وأما ناقة حاجب فمكثت وثبتت ، حتى إذا قالوا قد اطمأنت طفقت هاربة ، فأتوا الملك فأخبروه بذلك ، فقال له : قد كنت ياقيس ذا جد ، فأنت اليوم ذو جدين فسمى بذلك ذا الجدين ، وقيل : إنما سمى بذلك لأسيرين أسرهما مرتين ، وقيل : بل سَبَقَ سَبْقَيْن ، هكذا جاءت الرواية .

والذى أعرف أنا أن ذا الجدين إنما هو عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام ،

سُمِّيَ بذلك لأنه اشترى كعب بن مامَةَ من أيدى قوم من عنزة أسروه ، فكتم نفسه ، وعرّفه عبدُ الله [وأظهر] أنه لم يشتره عن معرفة ، فوهبه كلَّ ما لقى فى طريقه من إبل أبيه بعُبْدانها ، وكانت سوداً وحمرا وصُهْباً ، و بلغ به إلى أبيه فأجاز له ذلك ، وأعطاه قبته بما فيها ، فلما أتى الحيرَةَ قال بعض من رآه لصاحبه : إنه لذو جَدّ ، قال الآخر : بل هو ذو جَدَّين ، فسمى بذلك .

(٨٧) — باب فى معرفة ملوك العرب

وأنا أذكر فى هذا الباب من ملوك النواحى مَنْ أخذه حِفْظى ، وبلغته روايتى ، على شريطة الاختصار والتلخيص ، بحسب الطاقة والاجتهاد ، إن شاء الله تعالى .

ملوك اليمن

ملوك اليمن : قال ابن قتيبة وغيره : أول من حُيِّيَ بتحية الملوك «أبَيْتَ اللَّعْنَ» و« أنعم صباحاً » يَعْرُبُ بن قَحْطَان ، فولد له يشجب ، وولد ليشجب سبأ ، وقيل : إنه أول من سَبَى السبْيَ من ولد قحطان . واسمه عبد شمس ، وقيل : عامر ، وأول الملوك المتوجين من ولده حمير بن سبأ مَلَكَ حتى مات هرما ، ولم يزل الملك فى ولد حمير لا يعدو ملكهم اليمن ، حتى مضت قرون ، وصار الملك إلى الحارث الرائش ، وبينه و بين حِمْير خمسة عشر أباً ، فخرج من اليمن ، وغزا وجَلَبَ الأموال ، فَرَاش الناسَ ، و بذلك سمى الرائش ، وفى عصره مات لقمان صاحب النسور ، وهو لقمان الذى بعثته عاد ليستسقى لها بمكة ، وكان مُلْكُ الرائش مائة وخمسة وعشرين سنة ، وذكر نبينا صلى الله عليه وسلم ، وأنشد ابن قتيبة :

وأحمدُ إسمهُ ، ياليْتَ أنى أعَمَّرُ بَعْدَ مبعثه بعام

ثم أبْرَهَةُ ذو المنار بن الرائش ، وكان ملكه مائة وثلاثا وثمانين سنة ، ثم أفريقس بن أبرهة ، وهو الذى بنى أفريقية ، و به سميت ، وكان ملكه

مائة وستين سنة ؛ ثم العبد بن أبرهة ، وهو ذو الأذعار ، سمى بذلك لقوم سباهم مُنْكَرِى الوجوه تزعم العرب أنهم النسناس ، وكان ملكه خمسا وعشرين سنة ، ثم هدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وهو أبو بلقيس ، ملك سنة واحدة ثم بلقيس إلى أن أسلمت على يَدَىْ سليمان صلى الله عليه وسلم ، ثم ناشر بن عمرو ابن يعفر بن شرحبيل ، وكان ملكه خمساً وثمانين سنة ، ثم شمر بن أفريقس ، وهو الذى أخرب مدينة سمرقند ، و به سميت سمركند ، ومعنى كند أخربها ، وهو الذى يسمى شمر يرعش ؛ لارتعاشٍ كان به ، وكان ملكه مائة وسبعا وثلاثين سنة ، ثم ابنه الأقرن بن شمر يرعش ، وكان ملكه ثلاثا وخمسين سنة ، ثم تُبَّع الأكبر بن الأقرن ، وكان ملكه مائة وثلاثا وستين سنة ، ثم ابنه كليكرب ؛ ولم يغز حتى مات ، وكان ملكه خمسا وثلاثين سنة ، ثم تبع بن كليكرب وهو أبو كرب تبع الأوسط ، وكان يغزو بالنجوم ويعمل أعماله كلها بأحكامها ، ويقال : إنه آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو القائل فيه :

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْرِى إلى عُمْرِهِ لَكُنْتُ وزيراً لهُ وابْنَ عَمْ

ثم حسان بن تبع الأوسط ، وهو الذى غزا جديسا وقتل اليمامة التى سميت بها جَوُّ اليمامة ، ثم عمرو بن تبع أخو حسان ، وكان ملكه ثلاثا وستين سنة ، ثم عبد كلال بن مثوب ، وكان على دين عيسى يستر إيمانه ، وكان ملكه أربعا وسبعين سنة ؛ ثم تبع بن حسان وهو الأصغر ، وكان الحارث بن عمرو بن حُجْر جد امرىء القيس ابن أخيه ، وتبع هو الذى عقد الحلف بين ربيعة واليمن ، وهو الذى أدخل فى اليمن دين اليهود ثمانية وسبعين سنة ، ثم أخوه لأمه مرثد بن عبد كلال ، وقيل : مزبد ، وكان ملكه إحدى وأربعين سنة ، ثم ابنه ربيعة بن مرثد ، ملك سبعا

وثلاثين سنة ، ثم أبرهة بن الصباح ، ملك ثلاثا وسبعين سنة ، وكان يكرم معداً ويعلم أن الملك كائن فى بنى النَّضر بن كنانة ، ثم حسان بن عمرو بن تبع بن كليكرب ، ملك سبعاً وثلاثين سنة ، ومدحه خالد بن جعفر بن كلاب لما شفّعه فى أسارَى من قومه ، ثم ذو الشناتر ، واسمه نجيعة ينوف ، ولم يكن من أهل بيت المملكة ، لكنه من أبناء المَقَاول ، قتله ذو نُوَاس ، وكان غلاماً من أبناء الملوك حَسَنَ الوجه له ذؤابتان ، أراده ذو الشناتر على نفسه فوَجَأه بخنجر كان قد أعدّه له فقتله ، ورضيته حمير لنفسها لما أراحها من ذى الشناتر ، وذو نواس صاحب الأخدود الذى ذكره الله عز وجلّ ، وكان يهوديا ، فَخَدَّ الأُخْدُودَ لقوم من أهل نجران تنصروا على يد قَيْلٍ من آل جفنة ، وعلى أيام ذى نواس دخلت الحبشة اليمن ، واقتحم البحر منهزما فغرق ، وكان ملكه ثمانيا وستين سنة ، وقام بعده ذو جدن فهزمته الحبشة ، فاقتحم البحر فهلك ، وملك اليمن أبرهة الأشرم ، وهو الذى زحف إلى مكة بالفيل فهلك جيشه ، وابتلى بالأكلة ، فحمل إلى اليمن فهلك بها ، وملك بعده ابنه يكسوم فساءت سيرته باليمن ، فاستجاش سيف بن ذى يزن كسرى ، فجيَّشَ له جيشاً عظيما ، وقد مات يكسوم ، وولى بعده مسروق أخوه ، وهو أيضاً أخو سيف لأمه ، فقتلته الحبشة ، وسبيت نساؤهم ، فقام سيف ملكا من قبل كسرى حتى غَدَره خُدّامه من الحبشة ولم يجتمع ملك اليمن لأحد بعده ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكشفت به الظلمة ، واهتدت بهديه الأمة ، واستقر الملك فى نصابه ، بعد الخلفاء الأربعة من أصحابه ، ممن وجبت طاعته ، وصحت بيعته ، وأنا واقف عند الشبهة ، قائل فى هذا بما قالت به الجماعة ، فقد تنازع اسم أمير المؤمنين من لا يصلح له ، ولا يسلم إليه ؛ فلذلك أعرضت عن ذكر من لم أذكره ، ولولا ذلك لذكرت كل واحد وزمانه ، ومنتهى عمره ، إلى وقتنا هذا ، وما توفيقى إلا بالله .

ملوك الشام

ملوك الشام : كانت بالشام سليح[1] وهم من غسّان ، ويقال : من قُضاعة وأول ملوكهم النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم من بعده ابنه مالك ، ثم من بعد مالك ابنه عمرو ؛ إلى خروج مُزَيْقيا -وهو عمرو بن عامر- من اليمن فى قومه من الأزد، وسمى مُزَيْقيا لأنه كان يمزق كل يوم حلة لا يعود إلى لباسها ثم يهبها ، ويسمى عامر ماء السماء ؛ لأنه كان يجىء فى المَحْلِ فينوب عن الغيث بالرفد والعطاء [وهو] ابن حارثة[2] الغطريف ، بن امرىء القيس البطريق ، بن ثعلبة البهلول ، بن مازن قاتل الجوع ، بن الأزد[3] ، ومعه رجل يقال له جذع بن سنان ، فنزلوا بلاد عَكّ ، فقتل جذع ملك بلاد عَكّ ، فافترقت الأزد والملكُ فيهم حينئذ ثعلبة بن عمرو بن عامر ، فانصرف عامله فحارب جرهم فأجلاهم عن مكة ، واستولوا عليها زماناً ثم أحدثوا الأحداث ، وجاء قُصَى بن كلاب فجمع معداً - وبذلك سمى مُجَمِّعًا - واستعان ملك الروم فأعانه ، وحارب الأزد فغلبهم ، واستولى على مكة دونهم ، فلما رأت الأزد ضيق العيش بمكة ارتحلت ، وانخزعت خزاعة لولاية البيت - وبذلك سميت - فصار بعض الأزد إلى السَّوَاد فملكوا عليهم مالك بن فهم أبا جَذِيمة الأبرش ، وصار قوم إلى يثرب ، وهم الأوس والخزرج ، وصار قوم إلى عمان ، وصار قوم إلى الشام ، وفيهم جذع بن سنان ، فأتاه عامل الملك فى خَرْج وجَبَ عليه فدفع إليه سيفه رهناً ، فقال الرومى : أدخله فى كذا من أم الآخر ، فغضب جذع وقنَّعَه فقتله ، فقيل : خُذْ من جِذْع ما أعطاك[4] ، وسارت مثلا ، وولوا الشأم ، فكان أولهم الحارث بن عمرو مُحَرِّق ، سمى بذلك لأنه أول من حَرَّقَ العرب فى ديارها ، وهو الحارث الأكبر ، ويكنى أبا شَمِر ، ثم ابنه الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وهو الحارث الأعرج ، وأمه مارية ذات

(١) فى بعض الأصول « سليخ » بالخاء المعجمة .
(٢) فى بعض الأصول « جارية » .
(٣) فى الأصول « من الأزد بن الأزرد » وليس بشىء .
(٤) انظر المثل رقم ١٢٤١ من مجمع الأمثال للميدانى (١/ ٢٣١ بتحقيقنا) .

القُرْطَيْن ، وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الـكندى ، وأختها هند الهنود امرأة حُجْر آكل المُرَار الكندى ، و إلى الحارث الأعرج زحف المنذر الأكبر فانهزم جيشه ، وقتل ، ثم الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر ، وهو ولد الحارث الأعرج[ثم] عمرو بن الحارث ، وكان يقال له : أبو شمر الأصغر ، وله يقول نابغة بنى ذبيان :

عَلَىَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نعمةٍ لوالدهِ لَيْسَتْ بذاتِ عقاربِ

والنعمان بن الحارث هو أخو الحارث الأصغر ، وله يقول النابغة :

هـــذا غُلَامٌ حَسَنٌ وجهُهُ مُسْتَقْبِلُ الخــيرِ سَرِيعُ التمام

وللنعمان هذا ثلاثة بنين : عمرو ، وحُجْر ، والنعمان ، ومن ولد الأعرج أيضاً المنذر ، والأيهم أبو جَبَلَة ، وجَبَلَة آخر ملوك غسان ، كان طوله اثنى عشر شبراً ، وهو الذى تنصَّرَ فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ملوك الحيرة : أولهم مالك بن فَهم بن عمرو بن دَوْس بن الأزد ، مَلَكَ العرب بالعراق عشرين سنة ، ثم ابنه جَذِيمة بن مالك ، وهو الأبرش ، وهو الوَضَّاح ، كان ملـكه ستين سنة ، ثم عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة اللخمى ، ويقال : إن نصراً هو الساطرون صاحب الحضر ، وهو جرمقانى من أهل الموصل ، وقيل : بل هو من أشلاء قنص بن معد بن عدنان ، وعمرو هذا هو ابن أخت جذيمة الأبرش وفيه قيل : « شَبَّ عمرو عن الطَّوْق » ثم امرؤ القيس ابن عمرو بن عدى ، ويقال : بل الحارث بن عمرو ، وإنه الذى يدعى محرقاً ، ثم النعمان بن امرىء القيس، وهو النعمان الأكبر الذى بنى الخَوَرْنَقَ ، ثم المنذر بن امرىء القيس ، وهو المنـذر الأكبر بن ماء السماء أخو النعمان الأكبر ، ثم المنذر بن المنـذر ، وهو الأصغر ، ثم أخوه عمرو بن المنذر ، ملوك الحيرة

وهو عمرو بن هند ، ويسمى محرقا ؛ لأنه حرق بنى تميم ، وقيل : بل حرق نخل اليمامة ، ثم النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى ، وهو آخر ملوك لَخْمٍ ، ثم ولى بعده إياس بن قبيصة الطائى ، ثم ابنه أشهر ، واضطرب ملك فارس وضعفوا ، وكانت ملوك الحيرة من تحت أيديهم ، وأتى الله عز وجل بالإسلام فعز أهله بالنبى صلى الله عليه وسلم .

٨٨ -- باب من النِّسْبَة

الأرحبية قال ابن دريد : الإبل الأرْحَبِيَّةُ منسوبة إلى أرحب بن همدان .

خفية أسْدُ خَفِيَّة(١) وأسد خَفَّان(٢) وهما أجمتان من العذيب على ليلة .

اليزنية الرماح اليزنية : منسوبة إلى ذى يزن الملك ، ويقال الأيزنية ، قال ذو الرمة :

أرين الذى استودعن سَوْدَاء قلبه هوًى مثل شكِّ الأيْزَنِيِّ النَّواجِمِ(٣)

هكذا جاءت الرواية فى هذا البيت .

الفرعونية الدروع تنسب إلى فرعون . قال راشد بن كثير :

بكل فِرْعَوْنِيَّة لونُها مثل بصيص البنفشة الغادية

---

(١) خفية ــ بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مشددة مثناة ــ أجمة فى سواد الكوفة ، بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلا ، ينسب إليها الأسود ، فيقال : أسد خفية ، وانظر ياقوت .

(٢) خفان ــ بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون ــ موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانا ، وهو مأسدة ، قيل : هو فوق القادسية ، وانظر ياقوت .

(٣) وقع فى الأصول * أين الذى . . . . . الأزانى النوجم * وهو تصحيف ، والتصويب عن الديوان .

وتنسب إلى داود ، وسليمان ، وتبّع ، ومحرق ، يريدون بذلك القِدَمَ وجودة الصنعة .

الزغرية
الكنائن الزُّغَرِيَّة : منسوبة إلى زغر[١] وهو موضع بالشام تعمل فيه كنائن حمر مذهبة .

قال أبو دؤاد يصف فرساً :

ككنانة الزُّغَرِيِّ زَيَّنَها من الذهبِ الدلاص

السمهرى
السَّمْهَرِي : الرمح الشديد ، يقال : اسمهرّ الأمر ، إذا اشتد .

الأتحمية
الأتحمية : برود منسوبة إلى أتحم[٢] باليمن .

القعضبية
القَعْضَبِيّة : ضرب من الأسِنَّة ، تنسب إلى قَعْضَب ، رجل قشيري كان يعملها ، وكذلك الشَّرْعَبِيّة أيضا . قال الأعشى :

وَلُدْنٌ من الخَطِّيِّ فيها أسنة ذخائر مما سَنَّ أبزى وشَرْعَبُ[٣]

الشرعبية
والشرعبية أيضاً من الثياب الحارية فى قول امرىء القيس :

فلما دخلناها أضفنا ظهورنا إلى كل حاريٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ[٤]

قال الأصمعى : احْتَبَوْا بحمائل سيوفهم

---

(١) زغر ـ بضم ففتح ـ قرية بمشارف الشام .

(٢) وقال المرتضى : « قال شيخنا : والياء فى الأتحمى ليست للنسب على الأصح » اهـ .

(٣) فى الديوان (ص ١٣٨) « فيه أسنة »

(٤) فى الديوان (ص ٢٠) « فلما دخلناه » ومعنى « أضفنا » أسندنا . والمشطب : المخطط ، على مافسره أبو عبيدة .

قال أبو عبيدة : ما نسبت إلى الحيرة سيوف قط ، وإنما يريد الرحال كما قال الآخر : .

مشدودة برحال الحِيرةِ الجُدُدِ(١)

العلافية والهالكى

قال ابن الكلبى : أول من اتخذ الرحال علاف ، وهو زبان بن جرم ؛ فلذلك قيل للرحال « علافية » وأول من عمل الحديد من العرب الهالك ابن مراد بن أسد بن خزيمة ؛ فلذلك قيل لبنى أسد القيون ، وقيل لكل حداد : هالكى .

قال أبو عبيدة : أجود السهام التى صنعتها العرب فى الجاهلية سهام بلام ، وسهام يثرب ، وهما بلدان قريبان من حجر اليمامة ، وأنشد الأعشى :

* بسهام يثرب أمْ سهام بلام *(٢)

السلوقية

سَلُوق : قرية باليمن ، وإليها تنسب الكلاب والدروع .

المشرفى

سيف مَشْرفى : منسوب إلى مشرف ، وهى قرية باليمن كانت السيوف تعمل بها ، وليس قول من قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف بشىء عند العلماء ، وإن قاله بعضهم .

السريجية

والسيوف السريجية : منسوبة إلى سريج(٣) رجل من بنى أسد ، قال محمد ابن حَبِيبَ : هو أحد بنى معرض بن عمرو بن أسد بن خزيمة ، وكانوا قيونا .

---

(١) هذا عجز بيت للنابغة الذبيانى ، وصدره * والأدم قد خيست فتلا مرافقها * والأدم : البيض من النوق . وخيست : ذللت ، فتلا : بانت عن آباطها مرافقها والرحال : جمع رحل ، وهو شبه السرج ، الجدد : جمع جديد .

(٢) لم يذكر ياقوت بلاما ، والذى فيه وفى القاموس وشرحه ، « ويلمان موضع باليمن أو بالهند أو بالسند منه السيوف البيلمانية الجيدة » ا هـ .

(٣) فى الأصول « الشريجية . . . شريج » وهو تحريف .

الحطمية — الدروع الحُطَمِيَّة : منسوبة إلى حطمة بن محارب بن عمرو بن وديعة بن لُكَيز(١) بن عبد القيس بن أفصى .

وقال ابن الكلبي : هي منسوبة إلى حطم ، وهو أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة ، وقال الأصمعى : لا أعلم ما تنسب إليه .

الخطية — الخط : جزيرة بالبحرين تنسب إليها الرِّمَاحُ ، قال الأصمعى : ليست تنبت الرماح لكن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية .

الدارى — والمسك الدَّارِيُّ : منسوب إلى دارين ، يعنى عطاراً بالبحرين ، زعم ذلك أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى ، والأكثر المشهور عند العلماء أن دارين وغزة موضعان بالشام .

فحول إبل النعمان — عصفور ، وداعر ، وشاعر ، وذا الكلبتين : فحول إبل النعمان بن المنذر .

عصافير النعمان : أولاد عصفور الفحل ، وهو أكرم فحل للعرب فيما يزعمون .

العصفورية — والقسى العصفورية : منسوبة إلى رجل يسمى عصفوراً ، حكاه الجاحظ .

وأنشد لابن بشير :

عطف السيات بواقعٌ فى بذلها ... تُعْزَى إذا نُسِبت إلى عصفور

يعنى قِسِيَّ البندق ، دَعَا بها على حَمَام جاره .

الماسخية — ويقال للقسى أيضاً « الماسخية » منسوبة إلى رجل من الأزد ، واسمه ماسخة هو أول من عملها .

خيار الإبل — والإبل المسجدية والعبدية والعمانية : إبل ضربت فيها الوحوش .

والإبل الشذقمية والجديلية عن غيره منسوبة إلى شُذقم وجديل ، وهما فحلان مشهوران .

الأخدرية — الحمر الأخدرية : منسوبة إلى حمار يسمى أخدر ، وقيل : هو فرس كان لبعض الملوك ، أظنه أزدشير بن بابك ، توحش فضرب فى عانة(٢) فنسبت أولاده إليه ، وهو

(١) فى الأصول « بكير » تصحيف (٢) العانة : القطيع من الأتن ، هنا .

أقْرَاءُ الحمر ، هكذا تزعم العرب ، والعادة أن يكون ما تناتج منه بغالا . فأما الكداد لحمار معروف من الوحشية نتج . قال الفرزدق :

حمار لهم من بنات الكداد يدهمجُ بالوطب والمزود

أول من أنتج البغال

والبغال يزعمون أن قارون أول من أنتجها ؛ فهى تُنْسَب إليه ، وقيل : بل أنتجها قبله أفريدون .

(٨٩) — باب العتاق من الخيل ومذكوراتها

مراكب رسول الله

وأول ما أذكر منها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراكبه ، جريا على العادة فى التبرك باسمه : فمنها « السَّكْب » وهو فرسه يوم أحد ، حكاه ابن قتيبة ، ومنها « المرتجز » وكان له فرس يقال «اللزاز» وفرس يقال له « الضرب» وفرس يقال له « اللجيف » وفرس يقال له «الورد» وزاد غير ابن قتيبة فرسا يقال له « سحة » وكانت بغلته يقال لها « دلدل » وكان حماره يقال له « يعفور » وكانت ركائبه « القُصْوَى » و « الجدعاء » و « العَضْباء » .

خيل غنى

وهذه خيل العرب : قال ابن قتيبة عن أبى عبيده : الغراب والوجيه ولاحق ومذهب ومكتوم كانت كلها لغنى .

أعوج

وقال أحمد بن سعد الكاتب : كان أعوج أولا لكندة ، ثم أخذته سليم ، ثم صار لبنى عامر ، ثم لبنى هلال ، قال ابن حبيب : رُكِبَ رطبا فاعوجت قوائمه وكان من أجود خيل العرب ، وأمه سبل كانت لغنى ، وأم سبل البشامة ، كانت لجعدة ، ولهم أيضا الفياض .

عدة من فحول الخيل

قال ابن سعد : والوجيه ولاحق لبنى سعد ، قيل : وحلاب لبنى تغلب ، والصريح لبنى نهشل ، وزعم غيره أنه كان لآل المنذر ، وجلوى لبنى ثعلب ابن يربوع ، وذو العقال لبنى رياح بن يربوع ، وهو أبو داحس ، وكان داحس

والغبراء لبنى زهير ، وهى خالة داحس ، وأخته من أبيه ذى العقال ، [و] قرزل والخطار والحنفاء لحذيفة بن بدر ، وهى أخت داحس من أبيه وأمه ، [و] قرزل آخر للطفيل بن مالك ، [و] حذفة لخالد بن جعفر بن كلاب ، وحذفة أيضا لصخر بن عمرو [بن] الشريد ، [و]الشقراء لزهير بن جذيمة العبسى ، والزعفران لبسطام ابن قيس ، والوديقة ونصاب وذو الخمار لمالك بن نويرة ، والشقراء أخرى لأسيد ابن حناءة السليطى ، والشيط لأنيف بن جبلة الضبى ، والوجيف لعامر بن الطفيل والكلب والمزنوق والورد له أيضاً ، والخنثى فرس لعمرو بن عمرو بن عدس ، [و]الهداج فرس الريب بن شريق السعدى ، وجزة فرس يزيد بن سنان المرى فارس غطفان ، والنعامة للحارث بن عُبَاد ، وابن النعامة لعنترة ، والنحام فرس السليك بن السلكة السعدى ، والعصا فرس جذيمة بن مالك الأزدى ، والهراوة لعبد القيس بن أفصى ، واليحموم فرس النعمان بن المنذر ، وكامل فرس زيد الخيل ، والربد فرس الحوفزان ، وأبو الزعفران فرس بسطام ، والعَرَادة[1] فرس الكَلْحَبة اليربوعى ، انتهى كلام أحمد بن سعد

وعن ابن دريد : القطيب فرس كان للعرب ، وكذلك البطين واللعاب والعباءة فرس حَرِّى بن ضَمْرَة النَّهْشلى ، والمدعاس فرس النواس بن عامر المجاشعى ، وصهباء فرس النمر بن تَوْلَب ، وحافل فرس مشهور ذكره حرب بن ضرار فى قوله :

كميت عبناة السراة نمى بهـــا ... إلى نسب الخيل الصريح وحافل

والمسجدى لبنى أسد ، والشموس فرس زيد بن حذاق العبدى ، والضيف لبنى تغلب ، وهراوة الغراب فرس الريَّان بن حويص العنبرى ، يقال : إنها جاءت سابقة طول أربع عشرة سنة فتصدق بها على العُزّاب يتكسبون عليها فى السباق والغارات ، والحرون فرس تنسب إليه الخيل ، وكان لمسلم بن عمرو بن أسيد الباهلى

(١) فى الأصول « والجمالة » وانظر (أنساب الخيل ٤٧) .

والزليف فرس مشهور ، وهو من نسل الحرون ، ومناهب فرس تنسب إليه الخيل أيضا ، قال الشمردل .

لأخــل ثلاثة سمينا مناهبا والضيف والحرونا

والعلهان: فرس أبي مليك عبد الله بن الحارث اليربوعي .

ومن أقدم الخيل زاد الراكب ، وَهَبه سليمان عليه السلام لقوم من الأزد كانوا أصهاره .

وكان إسماعيل عليه السلام أول من ذَلَّلَ الخيل وركبها ، وكانت قبلُ من سائر الوحوش .

(٩٠) — باب من المعاني المحدثة

بمن يصح الاستشهاد وسره

قال أبو الفتح عثمان بن جني : المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ ، والذي ذكره أبو الفتح صحيح بين ؛ لأن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا ، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض ، فمصّروا الأمصار ، وحضروا الحواضر ، وتأنقوا في المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعِيانِ عاقبة مادلتهم عليه بَدَاهَةُ العقولِ من فضل التشبيه وغيره ، وإنما خَصَصْتُ التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر ، وأبعدها متعاطًى ، وكل يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف أو قوة ، وعجز أو قدرة ، وصِفَةُ الإنسان ما رأى يكون لا شك أصْوَبَ من صفته ما لم ير ، وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر ، ومن هنا يحكى عن ابن الرومي أن لائمًا لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال : أنشدني شيئا من قوله الذي استعجزتني في مثله ، فأنشده في صفة الهلال :

فانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتهُ حمولة من عَنْبَرِ

فقال : زدني ، فأنشده :

كأنَّ آذَرْيُونَهَا والشَّمْسُ فيه كاليَهْ

مَداهن من ذَهَبٍ فيها بقايا غاليهْ

فصاح : واغَوْثاه ، يالله ، لا يكلفُ الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعُونَ بيته ؛ لأنه ابنَ الخلفاء ، وأنا أى شىءٍ أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى ؟ هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

صفة قوس قزح لابن الرومى

وقد نَشَرَت أيدِى السحاب مَطَارِفاً
على الأرض دُكْنا وهى خُضْرٌ على الأرض
يطرِّزُها قوسُ الغمام بأصفر على أحمرٍ فى أخضرٍ وَسْطَ مُبْيَضِّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غَلَائل مُصَبَّغة والبعض أقصرُ مِن بعض

وصف الرقاقة وخبازها له

وقولى فى قصيدة فى صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبّازاً مررت به يَدْحُو الرقاقة وَشْكَ اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كُرَةً وبين رؤيتها زهراء كالقمر
إلا بمقدار ما تَنْداحُ دائرة فى صفحة الماء يُرْمى فيه بالحجر

وهذا كلام إن صح عن ابن الرومى فلا أظن ذلك أمراً لزمه فيه الدرك ؛ لأن جميع ما أراه ابن المعتز أبوه وجده فى ديارهم — كما ذكر أن ذلك علة للاجادة وعذر — فقد رآه ابن الرومى هنالك أيضاً ، اللهم إلا أن يريد أن ابن المعتز ملك قد شغل نفسه بالتشبيه فهو ينظر ماعون بيته وأثاثه فيشبه به ما أراد ، وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر طالباً به الرزق : أمدح هذا مرة ، وأهجو هذا كرة ، وأعاتب هذا تارة ، وأستعطف هذا طوراً ، ولا يمكن أن يقع أيضاً عندى تحت هذا ، وفى شعره أيضاً من مليح التشبيه مادونه النهايات التى لا تبلغ ، وإن لم يكن التشبيه غالباً عليه كابن المعتز .

ولم أُدَلّ بهذا البسط كله على أن العرب خلت من المعانى جملة ، ولا أنها

أفسدتها ، لكن دلت على أنها قليلة فى أشعارها ، تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ، وهى كثيرة فى أشعار هؤلاء ، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ، ونصبوا الأعلام للمتأخرين ، وإن قال قائل : مابالكم معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلّت فى أيديكم المعانى ، وضاق بكم المضطرَبُ ؟ قلنا : أما المعانى فما قلّتْ غير أن العلوم والآلات ضعفت ، وليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم فى نقص ، وأن الدنيا على آخرها ، ولم يبق من العلم إلا رَمَقُهُ معلقاً بالقدرة ، ما يمسكه إلا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

تكثر المعانى كلما تقدم العصر

وإذا تأملت هذا تبين لك مافى أشعار الصدر الأول الإسلاميين من الزيادات على معانى القدماء والمخضرمين ، ثم مافى أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة التى لا يقع مثلُها للقدماء ، إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا مخضرم ولا إسلامى ، والمعانى أبداً تتردد وتتولد ، والكلام يفتح بعضُه بعضاً

منزلة ابن الرومى فى توليد المعانى

وكان ابن الرومى ضنيناً بالمعانى ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه ، وإلى كل ناحية ، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد ، ثم نجد من بعده [مَنْ] لا ينتهيه فى فى الشعر ، بل لا يعشره ، قد أخذ المعنى بعينه فولّد فيه زيادة ، ووجّه له وجهة حسنة ، لا يشك البصير بالصناعة أن ابن الرومى مع شَرَهه لم يتركها عن قُدْرة ، ولكن الإنسان مبنى على النقصان .

وسأورد عليك من معانى المتقدمين ، وأنظرها بأمثالها من أقوال المولدين لا أعْدُوها ليتبين البرهان ، هذا ، على أننى ذممت إلى المحدثين أنفسهم فى أماكن من هذا الكتاب ، وكشفت لهم عَوَارهم ، ونعيت لهم أشعارهم ، ليس هذا جهلا بالحق ، ولا ميلا إلى بنيات الطرق ، لكن غضاً من الجاهل المتعاطى ، والمتحامل الجافى ، الذى إذا أعطى حقه تعاطى فوقه ، وادّعى على الناس الحسد ،

وقال : أنا ولا أحد ، و إلى كم أعيش لكم ؟ وأى علم بين جنبى لو وجدت له مستودعاً ؟ فإذا عورض فى شعره بسؤال عن معنى فاسد أو مُتّهم ، أو طولب بحجة فى لحنة أو شاذ ، أو نوظر فى كلمة من ألفاظ العرب مُصَحَّفة أو نادرة ، قال : هكذا أعرف ، وكأنما أعطى جوامع الكلم ، حاشَ لله ! وأستغفر الله ، بل هو العمى الأكبر ، والموت الأصغر ، و بأى إمام يرضى ، أو إلى أى كتاب يرجع ، وعنده أن الناس أجمعين بضعة منه ، بل فضلة عنه ، فهو كما قال حَمّادُ عَجْرَدٍ فى يونس بن فروة :

أما ابنُ فروةَ يُونسُ فكأنه ... من كبرهِ أيرُ الحمار القائم

ما الناس عندكَ غير نفسكَ وحدها ... والناس عندكَ ما خلاكَ بهائمُ

بشار يبين سبب تفوقه

وأين من ذكر من بشار بن برد حين قيل له : بم فُقْتَ أهل عمرك وسبقْتَ أبناء عصرك : فى حسن معانى الشعر ، وتهذيب ألفاظه ؟ قال : لأنى لم أقبل كل ما تورده علىّ قريحتى ، ويناجينى به طبعى ، ويبعثه فكرى ، ونظرت إلى مغارس الفِطَنِ ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت إليها بفكر جيد ، وغريزة قوية ، فأحكمت سَبْرَهاَ ، وانتقيت حُرّها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت عن متكلفها ، ولا والله ما ملك قِيادِى الإعجاب بشىء مما آتى به .

وكم فى بلدنا هذا من الخفَاشِ قد صاروا ثعابين ، ومن البَغاثِ قد صاروا شواهين ، إن البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يُعْرَفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جُمْلة من يعد خطله ، ويحصى زلله ؛ لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادَّعَوْها باطلا ، وانتسبوا إليها انتحالا ، وقد بلغنى أن بعض مَنْ لا يتورع عن كذب ، ولا يستحيى من فضيحة ، زعم أنى أخذت عنه

مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الآن ما علمها ، والامتحان يقطع الدعوى ، كما قال بعض الشعراء :

من تَحَلَّى بغير ما هو فيه   فَضَحَ الإمتحانُ مايدعيه

وكنت غنياً عن تهجين هذا الكتاب بالإشارة إلى مَنْ أشرت إليه أنفاً من ذكره ، وعُزُوفاً بهمتى عن الانحطاط إلى مُسَاواته ، ولكن رأيت السكوت عنه عجزاً وتقصيراً ، كما قال أبو تمام :

تَرْكُ اللئيمِ ولم يُمَزَّقْ عرضه   نَقْصٌ على الرجل الكريم وَعَارُ

وكما قال أبو الطيب ، وقد استحق المعنى عليه :

إذا أتتِ الإساءة من وضيعٍ   ولم أَلُمِ المسىء فمن أَلُومُ ؟

ثم أعود إلى التَّسْطير فأطرح عن المحدث المولد ما كان من جنس تشبيه النعامة للطرماح[1] ، وصفة الثور الوحشى له أيضاً ، وصفة مغارز ريش النعامة إذا أمرط للشماخ ، ومثل بيت العنكبوت فيما يمتد من لُغَام الناقة تحت لحييها فى شعر الحطيئة ؛ وتشبيه الذباب بالأجذم ، ولحيى الغراب بالجَلَمَ لعنترة ، وأشباه هذا مما انفردَتْ به الأعراب والبادية كعادتها ، كانفرادها بصفات النيران ، والفَلَوَات الموحشة ، وورود مياهها الآجنة ، وتَعَسُّف طرقاتها المجهولة ، إلى غير ذلك مما لا يعرف عياناً ؛ إذ كان المحدث غير مأخوذ به ، ولا محمول عليه ، ألا ترى إلى أبى نواس — وهو مُقَدَّم فى المحدثين — لما وصف الأسد وليس من معارفه ، ولعله ما شاهده قط إلا مرة فى العمر إن كان شاهده ؛ دخل عليه الوهم فجعل عينيه بارزة وشبههما بعيون المخنوق ، وقام عنده أن هذا أشنع وأشبه بشَتَامة وجة الأسد ، وذهب عنه من صفة أبى زبيد وغيره لغؤور عينيه مما هو أعلم به ممن أخذ عليه ، وأكثر ظنى — والله أعلم — أن أبا نواس إنما رَجَعَ بالصفة

(١) انظر التشبيهات العقم التى أوردها المؤلف فى الباب الأربعين (ج ١ ص ٢٩٦ من هذا الكتاب) .

إلى الرجل المشبه بالأسد ، وجعل ازورار عينيه و بروز جفنيه من علامات الغيظ والحنق على أقرانه فى الحرب .

وكذلك لما تعاطى الأعرابى أبو نُخَيْلَةَ[1] ما لا يعرف قال :

* ولم تَذُقْ من البُقُولِ الفُسْتُقَا *

فجعله بقلا[2] على ما فى نفسه من لعاع البقل .

على أن المحدثين قد شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضاً ، إلا أن أولئك أولى به ، وأحق بالتقدمة فيه ، كما خالطوهم فى صفات النجوم ومواقعها ، والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، و بكاء الحمام ، وكثير مما لا يتسع له هذا الباب ، ولكنى أفرد له كتاباً قائماً بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون ، وآتى ها هنا من هذين النوعين بما يسد خَلَّةَ المفتقر إلى سماعه من المبتدئين .

ما جاء فى طول الليل

قال النابغة يذكر طول ليله :

كلينى لهمٍّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وقال أبو الطيب فى وزنه ورويه :

أعيدوا صَبَاحِي فَهْوَ عندالكواعب وَرُدُّوا رقادى فهو لحظ الحبائب
فإن نهارى ليلةٌ مدلهمةٌ على مقلة من فقدكم فى غياهب

فأنت ترى ما فيه من الزيادة وحُسْنِ المَقْصِدِ ، على أن بيتى النابغة عندهم فى غاية الجودة .

---

(١) فى أكثر الأصول « أبو جبلة » وهو تصحيف ، وقبل هذا البيت قوله : *جارية لم تأكل المرققا* (٢) ويجعله بعضهم «ولم تذق من النقول» جمع نقل ، بالنون.

ما جاء فى حلق الشعر

وقال يزيد بن الطَّثْرِية حين حلق أخوه ثورٌ جُمَّته :

فأصبح رأسى كالصخيرة أشرفت عليها عقابٌ ثم طارت عقابها

وهذا البيت من أفضل الأوصاف وأحسنها بيانًا عند قدامة وغيره

وقال بعض المتأخرين ، وأحسبه الزيادى ، فى غلام حلقت وَفْرَتُه :

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحًا غيرة منهم عليه وشُحًّا
كان صُبْحًا عليه ليلٌ بَهِيمٌ فَمَحَوْا ليلَهُ وأَبْقَوْهُ صُبْحَا

وقال رؤبة بن العجاج :

أمست شَوَاتِى كالصَّفَاة صَفْصَفَا فصارَ رأسى جَبْهَة إلى القَفَا

فقال ابن الرومى وأحسن ما شاء :

يجذب من نقرتهِ طرة إلى مدى يقصر عن نيله
فوجهه يأخذ من رأسهِ أَخْذَ نهارِ الصيف من لَيْلِهِ

ولو تتبعت هذا لأطلت فى غير موضع الإطالة .

مما انفرد به بشار

فأما ما انفرد به المحدثون فمثل قول بشار :

يا قَوم أُذْنى لبعض الحىَّ عاشقة والأُذْنُ تعشق قبلَ العين أحيانًا
قالوا: بمن لا ترى تهذى؟ فقلت لهم : الأُذْنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وكرره فقال :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها قلبى وأمسى به من حبها أثَرُ :
أنَّى ولم ترها تهذى ؟ فقلت لهم: إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

وقوله أيضاً :

وكيف تناسى من كأن حديثه بأذنى ـ وإن غيبت ـ قُرْطٌ مُعَلَّقُ

واختراعاته كثيرة ، واشتهاره بذلك يغنى عن الإنشاد له .

وكقول أبى نواس ، وقد ذكر المبرد أنه لم يُسْبَقْ إليه ، وهو :

مما انفرد به أبو نواس

أيها الرائحان باللوم لوما ... لا أذوق المنام إلا شميما
نالنى بالملام فيها إمام ... لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فإنى ... لست إلا على الحديث نديما
كبر حظى منها إذا هى دارت ... أن أراها أو أن أشم النسيما
فكأنى وما أزين منها ... قعدى يزين التحكيما
كل عن حمله السلاح إلى الحر ... ب فأوصى المطيق أن لا يقيما

« القعدية » : فرقة من الخوارج ترى الخروج وتأمر به ، وتقعد عنه .

وقوله أيضاً :

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم
فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه ... إذاً لاصطفانى دون كل نديم

وهذا المعنى أيضاً لم يتناوله أحد قبله .

وكذلك قوله :

قد قلت للعباس معتذراً ... من ضعف شكريه ومعترفاً :
أنت امرؤ جللتنى نعماً ... أوهت قوى شكرى فقد ضعفا
فإليك منى اليوم تقدمة ... تلقاك بالتصريح منكشفا
لا تسدين إلى عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال أيضاً فى صفة النساء الخمارات ، ويروى لابن المعتز :

وتحت زنانير شددن عقودها ... زنانير أعكان معاقدها السرر

فهذا تشبيه ما علمت أنه سبق إليه .

وقال أيضاً :

لست أدرى أطال ليلى أم لا ... كيف يدرى بذاك من يتقلى ؟
لو تفرغت لاستطالة ليلى ... ولرعى النجوم كنت مخلا

ومعانى أبى نواس واختراعاته كثيرة .

ما انفرد به أبو تمام

وأكثر المولدين معانى وتوليدا ـ فيما ذكره العلماء ـ أبو تمـام ، غير أن القاسم بن مهرويه[1] قد زعم أن جميع ما لأبى تمام من المعانى ثلاثه : أحدها قوله :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاوَرَتْ ما كان يعرفُ طِيبُ عَرْفِ العودِ

والثانى قوله :

بنى مالك،قد نَبَّهَتْ خاملَ الثرى قُبُورٌ لـكم مستشرفات المعالم
غوامض قيدَ الـكفِّ من متناولٍ وفيها عُـلاً لا يرتقى بالسلالم

والثالث قوله :

يأبى على التصريدِ إلا نائلاً إن لم يكنْ محضاً قَرَاحاً يمذقِ
نزراً كما استكرهت عائر نفحة من فأرةِ المسك التى لم تفتقِ

أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى

وأنا أقول : إن أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى ، وسيأتى برهان ذلك فى الـكتاب الذى شرطت تأليفه إن شاء الله سبحانه . . ولا بد هاهنا من نبذ يسيرة أشغل بها الموضع : منها قوله :

عينى لعينكَ حينَ تنظر مَقْتَلُ لـكنّ لحظكَ سَهْمُ حَتْفٍ مرسلُ
ومن العجائبِ أن مَعْنى واحداً هُوَ منكَ سَهْمٌ وَهْوَ منى مقتل

وقوله فى عتاب :

تودَّدْتُ حتى لم أدع مُتَوَدَّدا وأفنيتُ أقلامى عتابا مُرَدَّدَا
كأنىَ أستدعى بك ابن حنيةٍ إذا النزع أدناه من الصدرِ أبعدا

وقوله فى أبيات يتغزل فيها ، وإن كان قد كرر المعنى :

نظرت فأقصَدَتِ الفؤادَ بلحظها ثم انثنتْ عنهُ فظل يهـيم
فالموت إن نظرت وإن هى أعرضتْ وقع السهام ونَزْعُهُـنّ أليم

(١) انظر الموازنة للآمدى (ص ١١٤ بتحقيقنا) وفى الأبيات بعض اختلاف لا يغير المعنى .

وقوله ولم أسمع أحسن منه فى معناه :

وما يعـــتريها آفة بَشَرِيَّةٌ من النوم إلا أنها تتبختر
وغيرُ عجيب طيبُ أنفاسِ روضةٍ مُنوَّرةٍ باتتْ تُراحُ وتُمطَرُ
كذلك أنفاس الرياض بسحرةٍ تطيب ، وأنفاس الورى تتغير

(٩١) — باب فى أغاليط الشعراء والرواة[1]

ولابد أن يؤتى على الشاعر المفلق ، والعالم المتقن ؛ لما بنى عليه الإنسان من النقص والتقصير ، وخير ما فى ذلك أن يرجع المرء إلى الحق إذا سمعه ، ولايتمادى على الباطل لَجَاجة وأَنَفَةً من الخطأ ؛ فإن تماديه زيادة فى الخطأ الذى أنف منه.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن أبى على الآمدى ، عن على ابن سليمان الأخفش ، عن محمد بن يزيد المبرد ، قال : تلاحى مسلم بن الوليد وأبو نواس ، فقال [مسلم] : ما أعلم بيتاً لك يخلو عن سقط ، فقال أبو نواس : اذكر شيئاً من ذلك ، فقال : بل أنشِدْ أنت أى بيت شئت ، فأنشد أبو نواس : بين مسلم وأبى نواس

ذكر الصَّبُوحَ بسحرة فارتاحا وأَمَلَّهُ دِيكُ الصباح صياحا

فقال مسلم : قف عند هذا ، لم أمَلَّه ديك الصباح ، وهو يبشره بالصبوح ، وهو الذى يرتاح إليه ؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى أنت ، فأنشده :

عَاصَى الشَّبَابَ فراحَ غيرَ مُفَنَّدِ وأقامَ بينَ عزيمـــة وتَجَلُّدِ

فقال أبو نواس : ناقضت ، ذكرت أنه راح ، والرواح لايكون إلا بالانتقال من مكان إلى مكان ، ثم قلت «وأقام» فجعلته منتقلا مقيما فى حال ، هذامتناقض .

(١) ألف المرزبانى كتابه « الموشح » فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وألف العسكرى كتاب التصحيف والتحريف فيما ورد فى عبارات الرواة ورواياتهم من التحريف .

قال أبو العباس : وكلا البيتين صحيح ، ولكن مَنْ طلب عيباً وجده ومن طلب له مخرجا لم يفته .

مأخذ للأصمعى على زهير ورده

قال الأصمعى : وأخطأ زهير فى قوله « كأحمر عادٍ[1] » ولا أدرى لم خطأه وقد سمع قول الله عز وجل * (وأنه أهلك عاداً الأولى) * فهل قال هذا إلا وثم عاد أخرى ؟ وهى هلكت بالنمل من ولد قحطان . قال قيس بن سعد ابن عبادة :

* سراويل عَادِىٌّ نمَتْهُ ثمود *

وكان يقال لثمود « عاد الصغرى » .

مأخذ له على الشماخ

وخطأ الشماخ [فى قوله] فى وصف ناقته :

* رَحَى حَيْزُومِهَا كرحَى الطَّحِينِ[2] *

ظنه يصفها بالكبر ، وهو عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير .

مأخذ للآمدى على البحترى

وأخذ ابن بشر الآمدى على البحترى قوله :

---

(١) هذه قطعة من بيت لزهير يقع فى معلقته ، وهو بتمامه :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم

ومحصل اعتراض الأصمعى أن قوله «كأحمر عاد» فيه نسبة قدار عاقر ناقة ثمود إلى عاد، وهو مالا يصادقه عليه العارفون بالأنساب والتاريخ، وقد أجيب عن هذا الاعتراض بما ذكره المؤلف من أن عادا يسمى به جماعاتان ، وأنه يقال لثمود « عاد الأخرى » بدليل الآية ، وأنصار الأصمعى لا يقرون هذا الجواب ويزعمون أن « الأولى » فى قوله تعالى (عادا الأولى) معناه السابقة التى كانت قبل ثمود ، وليس يدل على أن هنالك عادين . ومحصل هذا أن الوصف أتى به للإيضاح لا للاحتراز .

(٢) صدره * فنعم المرتجى ركدت إليه * والمرتجى : الذى يرجى لنوائب الدهر . وركدت إليه : بركت عنده . ورحى حيزومها : كركرتها ، شبهها بالرحى فى الصلابة ، لا فى العظم ؛ لأنه مما يعاب فى الإبل ، وسيذكر لك المؤلف ذلك

هَجَرَتْنَا يَقْظَى وكادتْ عَلَى مَذْ هَبِهَا فى الصُّدود تَهْجُرُ وَسْنَى

قال : هذا غلط[١] ؛ لأن خيالها يتمثل له فى كل أحوالها ، يقظى كانت، أوْ وَسْنَى أو ميتة ، والجيد قوله :

أَرُدُّ دُونَكِ يَقْظَانًا ويأذَنُ لى عَلَيْكِ سُكْر الكرى إن جئتُ وَسْنَانَا

وأنا أقول : إن مراده أنها لشدة هجرها له ونحوها[٢] عليه لاتراه فى المنام إلا مهجوراً ، ولاتراه جملة ، فالمعنى حينئذ صحيح لافساد فيه ، ولا غلط ، ولعل الرواية «وكادت[٣]» وهذا موجود فى كلام الناس اليوم ، ومثله يقولون « فلان لايرى لى مناماً صالحاً » وليس بين بيتى البحترى تناسب من جهة المعنى جملة واحدة ؛ لأنه أولا يحكى عنها ، وثانياً يحكى عن نفسه ، بلى إن فى اللفظ اشتراكاً ظاهراً .

وفى كتاب عبد الكريم من المأخوذ على أبى تمام قوله :

مها الوحش إلا أن هَاتَا أوانسٌ قَنَا الخطِّ إلا أن تلك ذوابل

قال : فيه غلط من أجل أنه نفى عن النساء لين القنا ، وإنما قيل للرماح « ذوابل » للينها وتثنيها ، فنفى ذلك أبو تمام عن قدود النساء التى من أكمل أوصافها اللين والتَّثَنِّى والانعطاف .

قلت أنا : أما أبو تمام فقوله الصواب ؛ لأنهم يقولون « رمح ذابل » إذا كان شديد الكعوب صلباً ، وهو الذى تعرف العرب ، ومنه قولهم « ذبلت شفتاه » إذا يبستا من الكرب أو العطش أو نحوهما ، فأما كلام المعترض فغير معروف إلا عند المولدين ؛ فإنهم يقولون « نوارةٌ ذابلة » وليسوا بقدوة ؛ على أن كلامهم راجع إلى ماقلناه ، إنما ذلك لقلة المائية وابتداء اليبس ، وإنما نقل عبد الكريم كلام ابن بشر الآمدى[٤] .

(١) انظر كتاب الموازنة للآمدى (ص ٣١٤ من الطبعة الثانية بتحقيقنا) .
(٢) كذا ، ولعله « وحنوها عليه » (٣) هى كذلك فى جميع نسخ ديوانه
(٤) انظر الموازنة ١٣٠ .

مأخذ على جرير ورده

قال الأصمعي[1] : قرأتُ على أبي محرز خلف بن حيان الأحمر شِعْرَ جريرٍ ، فلما بلغت إلى قوله :

وليل كابهام الحبارى محبب إلىّ هواه غالب لى باطلُهْ
رزقنا به الصيد الغَزِيرَ ولم نكن كمَنْ نَبْلُه محرومةٌ وحبائله
فيالَكَ يَوْماً خَيْرُهُ قبلَ شره تغيَّبَ واشيهِ وأقصر عاذلُهْ

قال خلف : ويحه ، ماينفعه خير يؤول إلى شر ؟ فقلت : هكذا قرأته على أبي عمرو بن العلاء ، قال : صدقت ، وكذا قال جرير ، وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع ، قلت : فكيف يجب أن يكون قال : الأجود أن يكون « خيره دون شره » فاروه كذلك ، وقد كانت الرواة قديماً تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : والله لا أرويه إلا كذا .

قلت أنا : أما هذا الإصلاح فمليح الظاهر ، غير أنه خلاف الظاهر ، وذلك أن الشاعر أراد أنه كان ليلة في وصال ، ثم فارق حبيبه نهاراً ، وذلك هو الشر الذي ذكر ، والراوية جعله لم يفارق فغير عليه المعنى ، إلا أن تكون الرواية * ويوم كابهام الحبارى * فحينئذ .. على أن « دون » تحتمل ماقصد ، وتحتمل معنى قبل ؛ فهي لفظة مشتركة ، وتكون أيضا بمعنى بعد ؛ لأنها من الأضداد ، ولكن في غير هذا الموضع .

مأخذ على بشامة ابن الغدير

وخطأ الأصمعي بشامة بن الغدير في قوله يصف راحلته :

وصدْر لها مهيع كالخليفِ تخال بأنّ عليه شليلا

لأن من صفة النجائب قلة الوبر .

مأخذ على كعب ابن زهير

وخطأ أيضا كعب بن زهير في قوله يصف راحلته :

* فَعْمٌ مُقَيَّدُهَا ضَخْمٌ مُقَلَّدُها *

لأن النجائب دقيقات المذابح .

(١) انظر الموشح للمرزباني ١٢٥ .

مآخذ على البحترى

ونبه أبو الفضل بنُ العميد على البحترى فى بيت كسره ، وهو قوله :

ولماذا تَتَبَّعُ النفسُ شيئاً جعلَ اللهُ الفردوسَ منه جزاء

قال ننشده :

* جعل الله أُلخُلْدَ منه جزاء *

ليستقيم ، حكى ذلك الصاحب بن عباد . . وأنشد له أيضا :

أبا غالب بالجود تذكر واجبى إذا ماغنىُّ الباخلين نَسِيهِ

وزعم أنه لحن ، ولست أرى به بأسا ، هذا الشاعر أسكن الياء لما يقتضيه بناء القافية ، فإذا أسكن الياء وما قبلها مكسور لم تسكن الهاء إلا مكسورة إتباعاً لما قبلها ، لا سيما وهى طرَفٌ ، وقد فعلوا مثل هذا فى وسط الكلمة . . وقال رؤبة :

* كأنَّ أيديهِنَّ بالقَاع الْقَرِقْ *

ولم يقل أيديهنَّ بالضم استثقالا ، وأيضا فكأنه ـ أعني البحترى — نوى الوقوف ، ثم جر القافية كعادتهم فى تحريك الساكن أبداً إلى الجر

وأنشد الصاحب بن عباد قال : أنشدنى على بن المنجم ، قال : أنشدنى أبو الغوث لأبيه :

وأحقُّ الأيام بالأنس أن يؤ ثر فيه يوم المهرجان الكبير

وأنا أقول : إن أبا الغوث جاء من قبله الخذلان فى هذه الرواية ، فويل للآباء من أبناء السوء ، ودع المثل القديم ، ولا أظن البحترى قال إلا :

وأحقُّ الأيام بالأنسِ أنْ تؤ ثره يومُ المهرجانِ الكبير

مآخذ على المفضل فى رواياته

وأخذ الأحمر على المفضل روايته فى قول امرىء القيس :

* نَمَسُّ بأعرافِ الجيادِ أكفَّنا *

وما هو إلا « نمش » أى : نمسح ، والمشوش المنديل .

وكذلك قول المفضل :

وإذا ألم خَيَالُهَا طرقتْ عينى فماء شُجونها[1] سَجْمُ

وإنما هو « طرفت » بالفاء .

وأخذ عليه الأصمعى فى قول أوس :

* تصمت بالماء تَوْلباً جَذَعا *[2]

وإنما هو « جدعا » بدال مكسورة غير معجمة ، ولأمر ما قال ذو الرمة لموسى بن عمرو : اكتب شعرى ، فالكتاب أعجب إلى من الحفظ ؛ لأن الأعرابى ينسى الكلمة قد تعب فى طلبها ليلة ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام .

مآخذ على الفرزدق، وعلى الأخطل

قال الأخطل : أخطأ الفرزدق حيث قال :

أبنى غُدَانة إننى حَرَّرْتُكُمْ فوهبتكم لِعَطِيَّةَ بن جِعال

لولا عطيةُ لاجتدعت أنوفكم من بين ألأَمِ أوْجُهٍ وسبالِ

كيف يكون وهب له وهو يهجوهم هذا الهجاء ؟ فانبرى له فتى من بنى تميم فقال : وأنت الذى قلت فى سويد بن منجوف[3] :

فما جِذْعُ سوءٍ خرَّقَ السوس بَطْنَه لما حملتـــه وائلٌ بمطيق

أردت هجاءه فزعمت أن وائلا تعصب به الحاجات ، وقَدْرُ سويدٍ لا يبلغ ذلك عندهم ، فأعطيته الكثير ، ومنعته القليل ، وأردت أن تهجو حاتم بن النعمان الباهلى ، وأن تصغر شأنه ، وتضع من قدره ؛ فقلت :

وَسَوَّدَ حاتماً أنْ لَيْسَ فيها إذا ما أوقدَ النيرانَ نارُ

(١) أحسبه * . . . فماء شؤونها . . . *

(٢) صدره * ودات هدم عار نواشرها * وقد عاب قوم على أوس هذا البيت ؛ لأنه سمى الصبى « تولبا » وإنما هو ولد الحمار .

(٣) انظر الموشح للمرزبانى ١٣٣ وما بعدها .

فأعطيته السؤدد من قيس الجزيرة ، ومنعته مالا يضر منعه ؛ وأردت أن تمدح سماكا الأسدى فقلت : .

نعمَ المجيرُ سماكٌ من بنى أسد ... بالطّفّ إذ قَتَلَتْ جيرانَها مُضَرُ
قد كنتُ أحسبُه قينا وأنبؤُه ... فالآن طـــير عن أثوابه الشرَرُ(١)

فانصرف الأخطل خجلا .

قال الحسن لعلىّ بن زيد : أرأيت قول الشاعر :

لولا جريرٌ هلـكتْ بجيله ... نعم الفتى وبئست القبيلة

مدحه أم هجاه ؟ قال : مدحه وهجا قومه ، فقال الحسن : ما مُدِحَ من هُجِىَ قومُهُ .

معذرة عن النابغة

وقال من اعتذر للنابغة فى قوله :

فإنك كالليــلِ الذى هو مدركى ... وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع

إنما قدم الليــل فى كلامه لأنه أهْوَلُ ، ولأنه أول ، ولأن أكثر أعمالهم إنما كانت فيه ؛ لشدة حر بلدهم ، فصار ذلك عندهم متعارفاً .

معذرة عن زهير

وكذلك اعترفوا لزهير [فى قوله] يصف الضفادع(٢) :

يخرجنَ من شَرَبات ماؤها طَحِلٌ ... على الجذوع يخفنَ الغَمْرَ والغرقا

فقال : لم يرد أنها تخاف الغرق على الحقيقة ، ولـكنها عادة من هرب من الحيوان من المـاء ، فـكأنه مبالغة فى التشبيه ، كما قال الله عز وجل : (وإن كان مَكْرُهمْ لتزولَ منه الجبال) وقال : (وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ) والقول فيهما محمول على « كاد » هكذا ذكر الحذاق من المفسرين ، مع أنا نجد الأماكن البعيدة القعر من البحار لا تقربها دابة ، خوفاً على نفسها من الهلـكة ، فـكأنه أراد المبالغة فى كثرة ماء هذه الشربات ، وإنما اقتدى فيه بقول أوس بن حجر :

فباكرن جونا للعلاجيم فوقهُ ... مجالسُ غرقى لا يُحَلَّأ ناهله

(١) فى الأصول « فأنبؤه » (٢) انظر الموازنة ص ٣٥ .

مآخذ على أبى نواس

وعند القاضى الجرجانى من غلط أبى نواس فى الوزن قوله :

رأيتُ كلَّ من كان أحمقاً معتوهاً   فى ذا الزمانِ صار المقدَّم الوجيها
يارَبِّ نذل وضيع نوهته تنوهيها   هجوتهُ لكيما أزيدَه تشويها

ولم يقل أبو نواس ــ فيما علمتُ ــ إلا « رب وضيع نذل » وهذا أفرط فى التعصب والحمية على أبى نواس وغيره لمن لا يُجْرَى فى حَلْبتهم ولا يُشَق غبارهم .

(٩٢) — باب ذكر منازل القمر

سر ذكر المؤلف لهذا الباب

ولما رأيت العرب ــ وهم أعلم الناس بهذه المنازل وأنوائها ؛ لأنها سقف بيوتهم ، وسبب معايشهم وانتجاعهم ــ غلطوا فيها فقال أحدهم : من الأنجم العزلُ والرامحة .. وقال امرؤ القيس .

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تَعَرَّضَتْ(١)

فأتى بتعرض الجوزاء ، ورأيت كل من عُنى بالنجوم من المحدثين واستوفى جميع المنازل مخطئاً ، لا شك فى خلافه ؛ لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلها لا تظهر فى ليلة واحدة ، ولذلك قلت أنا احتياطاً فى الليل من نسيب قصيدة مدحت بها السيد أبا الحسن أدام الله عزه :

قد طالَ حتى خلتهُ   من كل ناحيةٍ وَسَطْ
وتكررت فيه المنا   زلُ مِنْهُ لا مِنِّى الغلط

وجب أن أذكر هذه المنازل وأنواءها ، واختلاف الناس فيها ، وعولت فى ذلك على ما ذكره أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى ، مجتهداً فيما استطعت من البيان والاختصار ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) عجزه * تعرض أثناء الوشاح المفصل * وهو بيت من معلقته .

أجزاء السنة وما يتبعها

السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنْوَاء ، لكل نَوْء ثلاثة عشر يوماً ، إلا نَوْء الجبهة فإنه أربعة عشر يوماً ، زيد فيه يوم لتكمل السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ، وهو المقدار الذى تقطع الشمس فيه بروج الفلك الاثنى عشر ، لكل برج منزلتان وثلث منزلة ، وكلما نزلت الشمس منزلة من هذه المنازل سترته ؛ لأنها تستر ثلاثين درجة : خمسة عشر من خلفها ، ومثلهامن أمامها ، فإذا انتقلت عنها ظهرت ، هكذا قال الزجاجى .

النوء

وإذا اتفق أن تطلع منزلة من هذه المنازل بالغداة ويغرب رقيبه فذلك النوء لا يتفق لكل منزلة إلا مرة واحدة فى السنة ، وهو مأخوذ من « ناء ينوء » إذا نَهَضَ متثاقلا ، والعرب تجعل النوء للغارب ؛ لأنه ينهض للغروب متثاقلا ، وعلى ذلك أكثر أشعارها ، وتفسير بعض العلماء فى قوله تعالى : (ما إنَّ مفاتحهُ لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى : تميل بهم إلى الأرض ، وهذا التفسير أوجه من قول من جعل الكلمة من المقلوب ، قال : وبعضهم يجعله للطالع ، وهذا هو مذهب المنجمين ؛ لأن الطالع له التأثير والقوة ، والغارب ساقط لا قوة له ولا تأثير . قال المبرد : النوء على الحقيقة للطالع من الكوكبين ، لا الغارب ، وهذه المنازل كلها يطلع بها الفلك من المشرق ، ويغرب فى المغرب ، كل يوم وليلة ، وتلك دورة من دورانه .

الربع الأول من السنة الربيع

الربع الأول من السنة ، وابتداؤه من سبعة عشر يوما من آذار ، وبعضهم يجعله فى عشرين يوما منه ، فيستوى حينئذ الليل والنهار منه ، ويطلع مع الغداة فرع الدَّلو الأسفل ، وهو المؤخر ، ويسقط العوّاء ، وإليها ينسب النوء ، وهى تمد وتقصر ، وصفتها خمسة كواكب كأنها أَلِفٌ معطوفة الذنب إلى اليسار ،

العواء

وبذلك سميت ، وتقول العرب : عويتُ الشىء ، إذا عطفته ، وقال آخرون : بل هى كأنها خمسة أكلب تعوى خلف الأسد ، قال ابن دريد : هى دبر الأسد ، والعواء فى كلامهم الدبر .

نوء السماك

النوء الثانى : السِّماك ، وهما سماكان : أحدهما السماك الأعزل ، نجم وقاد، شبهوه بالأعزل من الرجال ، وهو الذى لا سلاح معه ، وهو منزل القمر ، والآخر : كوكب تقدمه آخر ، شبهوه بالرمح ، وهما ساقا الأسد ، وسمى سماكا لعلوّه ، ولا يقال لغيره إذا علا سماك ، هكذا قال سيبويه مما حكى الزجاجى عن أبى إسحاق الزجاج ، غير أنه قال فى الأعزل : وقيل إنما سمى أعزل لأن القمر لا ينزل به .

وأنا أقول : القول الآخر خلاف ما عليه جميع الناس ، ورؤية العين تدركه على غير ما يزعم الزاعم .

الغفر

النوء الثالث : الغفر ، وهو ثلاثة كواكب غير زُهْر ، وبذلك سميت ، من قولك : غَفَرْتُ الشىء ، إذا غطّيته ، ومنه سميت المغفرة التى تلبس ، وقيل : إنما سمى غفراً من الغفرة ، وهى الشعر الذى فى طرَف ذَنَب الأسد ، وقال أبو عبيدة : الغفر كل شعر صغير دون الكثير ، وكذلك هو فى الريش ، وقال قوم : هو من النكس فى المرض ، يقال : أغفر المريض ، إذا نكس، كأن النكس غطاء العافية .

الزبانان

النوء الرابع : الزبانان ، كوكبان مفترقان ، وهما قَرْنَا العقرب ، وقيل : يداها ، وسميا زبانين لبعد كل واحد منهما عن صاحبه ، من قولهم : زَبَنْتُ كذا ، إذا دفعته لتبعده عن نفسك ، ومنه اشتقاق الزّبانية ؛ لأنهم يدفعون أهل النار إليها .

الإكليل

النوء الخامس : الإكليل ، ثلاثة كواكب على رأس العقرب ، وبذلك سميت إكليلا .

القلب

النوء السادس : القلب ، كوكب أحمر وقاد : جعلوه للعقرب قلباً ، على معنى التشبيه .

الشولة

النوء السابع : الشولة ، كوكبان أحدهما أخفى من الآخر ، وهما ذَنَبَا العقرب،

وذنب العقرب شائل أبداً ، فشبه به ، هذا قول بعضهم ، و بعضهم يجعل الشولة الإبرة التى فى ذنب العقرب ، وهم أهل الحجاز ، وهو أصح على مذهب من زعم أنهما كوكبان فقط .

الربع الثانى من السنة الصيف

الربع الثانى : الصيف ، أولُ أنوائه « النعائم » وهى ثمانية كواكب نيرة : أربعة منها فى المجرّة تسمى الواردة ، وأربعة خارجةمنها تسمى الصادرة ، وشبهت بالخشبات التى تكون على البئر يعلق بها البكرة والدلاء .

البلدة

الثانى من الصيف « البلدة » وهى فرجة لطيفة لا شيء فيها ؛ لكن بجوارها كواكب تسمى القلادة ، وإنما قيل لتلك الفرجة البلدة تشبيها بالفرجة التى بين الحاجبين ، إذا لم يكونا مقرونين ، يقال منه : رجل أَبْلَدُ ، و يقال : بل شبهت بالبلدة ، وهى باطن الراحة كلها ، وقيل : باطن ما بين السبّابة والإبهام .

سعدالذابح

الثالث منه « سعد الذابح » وهما نجمان صغيران : أحدهما مرتفع فى الشمال معه كوكب آخر يقال هو شاته التى تذبح ، والآخر هابط فى الجنوب .

سعدبلع

الرابع منه « سعد بُلَعَ » وهما كوكبان صغيران مستويان فى المجرة ، شبها بفم مفتوح ، يريد أن يبتلع شيئاً ، وقيل : إنما قيل بلع كأنه بلع شاته ، و بُلَعَ غير مصروف ؛ لأنه معدول من بالع ، مثل زُفَر وقُثَم ، وسعدٌ مضاف إليه .

سعد السعود

الخامس منه « سعد السعود » وهما كوكبان : أحدهما أنور من الآخر ، سمى بذلك لأن وقت طلوعه ابتداء كمال الزرع وما يعيش به الحيوان من النبات .

سعد الأخبية

السادس منه «سعد الأخبية» وهما كوكبان عن شمال الخباء ، والأخبية أربعة كواكب : واحد منها فى وسطها يسمى الخباء ؛ لأنها على صورة الخباء ، وزعم ابن قتيبة أنه سمى بذلك لطلوعه وقت انتشار الحيات والهوام ، وخروج ما كان مختبئاً .

فرع الدلو الأعلى

السابع : فرع الدلو الأعلى ، وهو المقدم ، و بعضهم يسميه العرقوة العليا تشبيها

بعرقوة الدلو ، وهما كوكبان مفترقان نيران ، وقيــل له « دلو » لأنه تأتى فيه الأمطار العظيمة ، ويقال : بل سميا بذلك لأنهما مثل صليب الدلو الذى يفرغ منه الماء .

ربع السنة الثالث الخريف

الربع الثالث : الخريف ، أول أنوائه « فرع الدلو الأسفل » وصورته كوكبان مضيئان بينهما بعد صالح يتتبعان العرقوة العليا .

الحوت

ثم الحوت ، وهو كوكب أزهر نير فى وسط السمكة .

الشرطان

ثم الشرطان ، وهما كوكبان مفترقان مع الشمال ، منهما كوكب دونه فى القدر ، وسميا شرطين لأن سقوطهما علامة ابتداء المطر واتصاله ، وكل من جعل لنفسه علامة فقد شرطها ، ومنه سمى الشُّرَط ؛ لأن لهم علامة عرفوا بها .

البطين

ثم البطين : وهو ثلاثة كواكب طُمْس خَفِيَّات ، وهو بطن الحمل ، إلا أنه قد صغر .

الثريا

ثم الثريا ، وهو النجم ، وصورتها ستة كواكب متقاربة حتى كادت تتلاصق ، وأكثر الناس يجعلها سبعة ، وقد جاء الشعر بالقولين جميعا ، سميت بهذا لأن مَطَرَهَا عنه تـكون الثروة وكثرة العدد والغنى ، وهى تصغير ثَرْوَى ، ولم ينطق بها إلا مصغرة .

الدبران

ثم الدبران ، كوكب وَقَّاد على أثر نجوم تسمى القلاص ، وقيل له « دبران » لأنه دبر الثريا ، أى : جاء خلفها ، ويقال له أيضاً « الراعى » و « التالى » و « التابع » و « الحادى » على التشبيه .

الهقعة

ثم الهقعة ، سميت بهذا تشبيها بالدائرة التى تـكون عند عقب الفارس فى جنب الفرس ، وصورتها ثلاثة أنجم صغار متقاربة كآثار رءوس أصابع ثلاث فى ثرى إذا جمعت الوسطى والسبابة والإبهام ، وهى رأس الجوزاء .

الربع الرابع الشتاء

الرابع: الشتاء ، وهو آخر أرباع السنة ، وأول أنوائه « الهنعة » سميت بذلك لأنها كوكبان مقترنان كل واحد منهما منعطف على صاحبه ، من قولك : هنعه ، إذا عَطَفَ بعضَه على بعض ، واقترانهما فى المجرة بين الجـــوزاء والذراع المقبوضة .

الذراعان

ثم الذراعان ، وهى ذراع الأسد المبسوطة والمقبوضة : كوكبان نَيِّرَان بينهما كواكب صغار تسمى الأظفار .

النثرة

ثم النثرة ، وهى لطخة لطيفة بين كوكبين ، وهى عندهم ما بين فم الأسد وأنفه ، ومن الإنسان فرجة ما بين الشار بين حِيَالَ وَتَرَةِ الأنف ، وقيل : إنما سميت نثرة لأنها كقطعة سحاب نثرت .

(الطرف) عينا الأسد

ثم الطرف ، عينا الأسد ، وهما كوكبان صـغيران بينهما نحو قامة فى مَرْأى العين .

الجبهة

ثم الجبهة ، أربعة كواكب معوجة ، في اليمانى منها بريق ، وهى جبهة الأسد عندهم .

الزبرة

ثم الزبرة ، نجمان يرى أحـــدهما أكبر من الآخر ، ويقال لهما « الخرتان » كأنهما نفذا إلى جوف الأسد ، والعيان يبطل ذلك ، كما قال الزجاجى .

الصرفة

ثم الصرفة ، كوكب وقاد عنـده كواكب طُمْس ، سمى بذلك لانصراف البرد لسقوطه .

فهذه عدة المنازل وصفاتها ، وإنما أضيفت إلى القمر دون الشمس ، وحظهما فيه واحد ؛ لظهورها معه ، وتسمى نجوم الأخذ ، كأن الأرض تأخذ عنها بركات المطر ، وقيل : لأخذ الشمس والقمر سَمْتَهما فى سيرها .

(٩٣) — باب فى معرفة الأماكن والبلدان

حد الحجاز

قال أبو عبيدة : الحِجَاز هو ما بين الُجحْفَة وجبل طيء ، وإنما سمى حجازاً لأنه حَجَز ما بين نجد والغَوْر ، وحكى ابن قتيبة عن الرياشى عن الأصمعى : إذا خلفت حِجْراً مُصْعِداً فقد أنجدت ، فلا تزال مُنْجِداً حتى تنحدر من ثنايا ذات عِرْقٍ ، فإذا فعلت فقد أتْهَمْتَ إلى البحر ، فإذا عرضت لك الِحرَارُ وأنت مُنْجِد فتلك الحجاز ، وإذا تَصَوَّبْتَ من ثنايا العَرْج واستقبلك المَرْخ والأراك فقد أتهمت ، وسمى حجازاً لأنه حجز ما بين نجد وتهامة ، فأما محمد بن عبد الله الأسدى فقال : حد الحجاز الأول بطن نَخْلة وظهر جدة ، والحد الثانى مما يلى الشام شَغْبَى[1] وبَدَا ، والحد الثالث مما يلى تهامة بدر والسقيا ورهاط وعكاظ ، والحد الرابع ساية [و] ودان ، ثم تنحدر إلى الحد الأول بطن نخل .

الجزيرة

وأما الجزيرة فإنها ما بين دِجْلَة والفُرَات والموصل ، والسوادان : سواد البصرة والأهواز ودست ميسان وفارس ، وسواد الكوفة كسكر إلى الزاب وحلوان إلى القادسية.

جزيرة العرب

وجزيرة العرب قال أبو عبيدة : هى فى الطول ما بين حَفِيرِ أبى موسى إلى أقصى اليمين ، وفى العَرْضِ ما بين يَبْرِين إلى السماوة .

وقال الأصمعى : هى ما بين نَجْرَان والعُذَيْب، حكاه ابن قتيبة عن الرياشى،

---

(١) فى الأصول « شعب » بالعين المهملة ، وصوابه ما أثبتناه ، وفيه وفى « بدا » يقول كثير :

وأنت التى حببت شغبى إلى بدا إلى ، وأوطانى بلاد سواهما

قال : وحكى عنه أبو عبيدة أنها فى الطول من أقصى عدن إلى ريف العراق، وفى العرض من جدة وما والاها من طراز البحر إلى طراز الشام .

العراق

وقيل : سمى العراق تشبيهاً بعراق المَزَادة ، وهو موضع الخَرْز المستطيل فى أسفلها ، وقال بعضهم : هو جمع عِرْق ؛ لاشتباك عروق النخل والشجر فى تلك الأرض ، وقيل : إن اسمه كان بالفارسية « إيران شهر » أى : أسفل الأرض، فعربت .

الشام واليمن

وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشؤمى ، وهى الشِّمال ؛ لأن الذى يستقبل الشمس تكون اليمن عن يمينه والشام عن شماله ، ويقال « شأم » بالهمز والتخفيف ، ومنهم من جعل الشام جمع شامة ، وهى النكتة تكون فى الجسم سوداء أو نحو ذلك ، وكذلك فى الأرض .

قال ذو الرمة :

وإن لم تكونى غيرَ شامٍ بقفرةٍ تجرُّ بها الأذيال صيفية كدرُ

(٩٤) — باب من الزجر والعيافة

الفرق بين الفأل والطيرة

وعنهما يكون الفأل والطِّيَرَةُ ، وبين الطيرة والفأل فرْقَانِ عند أهل النظر والمعرفة والحقائق ؛ وذلك أن الفأل تقوية للعزيمة ، وتحضيض على البغية ، وإطماع فى النية ؛ والطِّيَرَة تكسر النية ، وتصد عن الوجهة ، وتَثْنى العزيمة ، وفى ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير .

الرسول يحب الفأل ويكره الطيرة

وقد تفاءل النبى صلى الله عليه وسلم ونَهَى عن الطِّيَرَة فى قوله : « لا عَدْوَى ، ولا طِيَرَةَ ، ولا هامة ، ولا صَفَر » وقد تقدم ذكرها ، وقيل فى الهامة : إنها هذه المعروفة .

اشتقاق الطيرة

والطيرة من أحد شيئين : مشتقة إما من الطيَرَان ، كأن الذى يرى ما يكره أو يسمع يطير ، كما قال بعضهم :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئب إذ عَوَى
وَصَوَّتَ إنسانٌ فَكِدْتُ أطيرُ

وإما من الطير ، وهو الأصل والمختار من الوجهين ، هكذا ذكر الزجاجى.

الزجر عند العرب

وكانت العرب تزجر الطير والوَحْش ؛ فمن قال بالقول الأول احتج بأن الوحش يُطَّيَّر بها ، وزجرت مع الطير ، ومن قال بالقول الثانى قال : إنما كان الأصل فى الطير ، ثم صار فى الوحش ، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه ويرادان جميعاً .

أنشد الجاحظ :

ما يعيفُ اليومَ فى الطير الدوَح من غُرَابِ البَيْنِ أو تيسٍ بَرَح

قال : فجعل التيس من الطير ؛ إذ قدم ذكر الطير وجعله من الطير فى معنى التطير ، والعرب تتطير بأشياء كثيرة : منها العطاس(١) ، وسبب تطيرهم منه دابة يقال له العاطوس يكرهونها ، والغراب أعظم ما يتطيرون به ، والقول فيه أكثر من أن يُطْلَب عليه شاهد ، ويسمونه حاتماً ؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق ، ويسمونه الأعور على جهة التطير بذلك ؛ إذ كان أصح الطير بصراً ، ويقال : سمى أعور لقولهم : « عَوَّرْتُ الرجلَ عن حاجته » إذا

---

(١) وفيه يقول امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد مشيع الجيب ، نعم المطلق

أراد أنه يتنبه للصيد قبل أن يتنبه أحد لئلا يسمع عطاسا فيتشاءم به ؛ وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له : « عمرا وشبابا » وإذا عطس من يبغضونه قالوا له « وريا وقحابا » والورى — بفتح فسكون — داء يصيب الكبد فيفسدها ؛ وكان الرجل منهم إذا عطس قال : « بكلابى » وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد .

رددته عنها ، وقد اعتذر أبو الشِّيصِ للغراب وتَطَيَّرَ بالإبل — و إن كان غيره سبقه إلى المعنى — فقال :

الناسُ يَلحَوْنَ غرا بَ البينِ لما جهلوا
وما على ظهـــر غرا بِ البينِ تُطوَى الرحلُ
ولا إذا صـاحَ غرا بٌ في الديار احتملوا
ما فرّق الأحبابَ بعــــد الله إلا الإبلُ
وما غـرابُ البينِ إ لاّ ناقةٌ أو جَمَلُ

هكذا رويته ، و بعضهم يجعل الشعرَ * ماقرب الأحباب * و بعده * والناس يلحون . . * بواو مكان الهمزة يعطف بها

وقال آخر فملح وظرف :

زعموا بأنّ مَطِيَّهُمْ عَوْنُ النوى والمؤذناتُ بِفُرْقَةِ الأحبـاب
لو أنها حَتْفِي لما أبغضــــتها ولهابهم سَـبَبٌ من الأسباب

مما يتطيرون به ويتطيرون بالصُّرَد ، ومن أسمائه الأخْيَل ، والأخْطَب ، ويقال : الأخيل الشقراق، ويقال : بل طائر يشبهه، والواق أيضاً الصرد ، قال[1] زبان بن منظور الفزَارى فى حديث له كان مع نابغة بنى ذبيان — وقد تطير من جرَادة سقطت عليه فرجع من الغزو ومضى زبان فظفر وغنم :

(١) روى المؤلف هذه القصة معكوسة ، ولم يصب فى ضبط أعلامها . والصواب فيها أن النابغة الذبيانى كان يسير مع زياد بن سيار يريدان الغزو ، فرأى زياد جرادة،فقال : حرب ذات ألوان ، ثم رجع،ومضى النابغة فى سبيله ، فلما رجع غانما قال:

يلاحـظ طيرة أبدا زياد لتخبره ، وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير

و بعد هذين البيتين البيتان اللذان رواهما المؤلف (وانظر ديوان النابغة ص٦٥).

تعلّم أنه لا طـيرَ إلاّ على مُتَطَيِّرٍ، وهي الثبورُ
بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا ، وباطله كثيرُ

يقولها في أبيات لا أقف على[1] جملتها .

وقال شاعر قديم لزبان أيضاً :

لا يمنعنك من بِغَــا ءِ الخير تَعْقَادُ التمـائمْ
لا ، والتشــاؤمُ بالعُطا س ولا التيامنُ بالمقاسمْ
ولقد عدوت وكنتُ لا أعـدُو على وَاقٍ وحاتمْ
وإذا الأشائمُ كالأيا من ، والأيامنُ كالأشائمْ
قــدخُطَّ ذلك في الزبو ر الأولياتِ القدائمْ

ويتشاءمون بالثور الأعضب ، وهو المكسورُ القرْنِ .

وقال الكميت ينفى الطير ويدفعها عن نفسه :

ولا أنا مِمَّنْ يزجرُ الطيرَ هَمُّهُ أصاحَ غرابٌ أم تعرّض ثعلب
ولا السانحاتُ البارحات عشيّةً أمرَّ صحيحُ القرن أمْ مرَّ أعضب

والبيت الأول من هذين يشبه بيت الأعشى الذى أنشده الجاحظ .

ومن أمثال العرب «فلان كبارح الأروى» وفيه قولان : أحدهما أن الأروى يُتَشَاءم بها ، فإذا كانت بارحا فقد عظم الأمر ، والآخر أنها إنما تكون فى قرون الجبال ، ولا تكاد تكون سانحة ولا بارحة .

السانح والبارح

وفى السانح والبَارح اختلاف : قال عمرو بن العلاء : سأل يونس رؤبة عن السانح والبارح ، فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مياسره ،

(١) انظر الهامشة التى قدمناها فى الصفحة السابقة .

قال ابن دريد : السانح يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح ، ويخالفهم أهلُ العالية فيتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح .

قال الشاعر الهذلى يذكر امرأته :

زَجَرْتُ لها طير السنيح فإن يكن هواك الذى تهوى يصبك اجتنابها

قال : والسانح: الذى يلقاك وميامنه عن ميامنك ، والبارح الذى يلقاك وشمائله عن شمائلك ، والجابه والناطح : اللذان يستقبلانك ، والقعيد : الذى يأتيك من ورائك .

قال صاحب الكتاب : الكارس الذى ينزل عليك من الجبل ، حكاه الثعالبى ، قال أبو جعفر النحاس : السنيح عند أهل الحجاز : ماأتى عن اليمين إلى اليسار ؛ والبارح عندهم: ما أتى من اليسار إلى اليمين ، وهم يتشاءمون بالسانح ، ويتيمنون بالبارح ، وأهل نجد بالضد من ذلك ، والسانح عندهم هو البارح عند أهل الحجاز .

وقال المبرد : السانح : ما أراك مياسره فأمكن الصائد ، والبارح : ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له .

وقد يتطيرون من البازى والغراب وأشياء كثيرة من جهة التسمية ، ويتيمن بها آخرون .

من مليح الزجر

ومن مليح ما رأيت فى الزجر والعيافة ، قال الصولى : كان لأبى نواس إخوان لا يفارقهم ، فاجتمعوا يوماً فى موضع أخفوه عنه ؛ ووجَّهُوا إليه برسول معه ظهر قرطاس لم يكتبوا فيه شيئاً ، وحزموه بزير وختموه بقار ، وتقدموا إلى رسولهم أن يرمى بالكتاب من وراء الباب ، فرمى به، فلما رآه استعلم خبرهم فعلم أنه من فعلهم وتعرف موضعهم وأتاهم فأنشدهم :

زجرت كتابكم لما أتانى كزَجْرِ سَوَانح الطير الجوارى

نظرت إليه مخـــزوماً بزير على ظهر ، ومختوماً بقـــار
فقلتُ : الزير مُلْهية ومُـــلْهٍ وقلت : القار من دن العقار
وقلت : الظهر أهيف ذو جمال تركّبَ صُدْغُه فوق العذار
فجئت إليكم طرباً وشوقاً فما أخطأت داركم بداري
فكيف ترونني وترون زَجْري ألَسْتُ من الفلاسفة الكبار؟!

(٩٥) — باب ذكر المعاظلة والتثبيج

حقيقة المعاظلة واشتقاقها

العظال في القوافي : التضمين ، حكاه الخليل بن أحمد ، وزعم قدامة أن المعاظلة سوء الاستعارة ، وهو عندهم مشتق من التداخل والتراكب ، ومنه « تعاظلت الجراد والكلاب » وأنشد قدامة بيتَ أوس بن حَجَر:

وذات هِدْمٍ عارٍ نواشِرُهَا تُصْمِتُ بالماء تَوْلَبًا جدعا (١)

لأنه قد أساء الاستعارة عنده ؛ لجعله الطفل تولبا ، وهو ولد الحمار .

التثبيج

وأما التثبيج فهو طول الكلام واضطرابه ، ولا يقال « كلام مثبج » حتى يكون هكذا ، ويقال : رجل مثبج الخلْقِ ، إذا كان طويلا في اضطراب ، والتثبيج عند الصولي في الخط ألا يكون بيِّنا ، وكذلك هو الكلام .

رأى آخر في المعاظلة

وزعم قوم أن المعاظلة تداخل الحروف وتراكبها ، كما عيب على كعب بن زهير قوله :

تجلو عوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت كأنه مُنْهَلٌ بالراح مَعْلُولُ

وعاب ابن العميد حبيباً لقوله :

كريم متى أمْدَحْه أمدحه والورى معي ، ومتى مالمته لمته وحدى

بالتكرير في « أمدحه أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء في كلة ، وهما معاً من حروف الحلق ، وقال : هو خارج عن حد الاعتدال ، نافر كل النفار ، حكى ذلك عنه الصاحب بن عباد .

(١) انظر ص ٢٥٠ السابقة .

وزعم آخرون أنها تركيب الشيء فى غير موضعه ، كقول الكميت ابن زيد : رأى ثالث فى المعاظلة

وقد رأينا بها حُوراً مُنَعَّمَةً   بيضاً تكَمَّلَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ

وهذا البيت مما عابه عليه نصيب .

ومثله عندى قول أبى الطيب :

يحمل المسك عن غدائرها الريـــح ويَفْتَرُّ عن شنيب[1] بَرُودِ

(٩٦) — باب الوَحْشى المتكلِّف، والركيك المُسْتَضْعَف

الوَحْشى من الكلام : ما نفر عنه السمع ، والمتكلف : ما بَعُدَ عن الطبع ، والركيك : ماضعفت بنيته ، وقَلَّتْ فائدته ، واشتقاقه من الرِّكَّةِ ، وهى المطر الضعيف ، وقيل : من الرك ، وهو الماء القليل على وجه الأرض . الوحشى من الكلام والتكلف والركيك

وأنشد النحاس

تهادى كموم الرَّكِّ يقطعه الحيا   بأبطحَ سهلٍ حين تمشى تأَوَّدَا

و«فلان ركيك» أى : ضعيف العقل ، ويقال للوحشى أيضا : حُوشِيٌّ ، كأنه منسوب إلى الحوش ، وهى بقايا إبل وَبَارٍ بأرض قد غلبت عليها الجن فعمرتها ونفت عنها الإنس ، لا يطؤها إنسى إلا خَبَلُوه.

قال رؤبة :

* جَرَّتْ رجالاً من بلادِ الحوش *

و إذا كانت اللفظة خَشِنة مستغربة : لا يعلمها [إلا] العالم المبرز ، والأعرابى القحُّ ؛

(١) فى الأصول « عن شنب » وهو تصحيف ، والشنيب : الثغر الذى فيه الشنب ، وهو حدة الأسنان ، وقيل : الرقة والعذوبة . والبرود — بفتح الباء — البارد

فتلك وَحْشية ، وكذلك إن وقعت غير موقعها ، وأتى بها مع ما ينافرها ، ولا يلائم شكلها .

أبو تمام وولعه بالوحشى والمتنبى

وكان أبو تمام يأتى بالوَحْشِى الخشن كثيراً و يتكلف.

وكذلك أبو الطيب كان يأتى بالمستغرب ليدل على معرفته ، نحو قوله :

* كل آخائهِ كرام بنى الدنيا ولٰـكِنَّهُ كريمُ كرامِ *

وهذا مع غرابته وتكلفه غير محمول على ضرورة يكون فيها عذر ؛ لأن قوله « كل إخوانه » يقوم مَقَامه بلا بغاضة .

أمثلة من التكلف

ومن التكلف قول إبراهيم بن سيار للفضل بن الربيع ، ويروى أيضاً لإبراهيم بن شبابة :

هبنى ظلمتُ وما ظلمتُ بلى ظلمـــت أقرُّ كى يزداد طَوْلُكَ طولا
إن كان جُرْمِى قد أحاط بحرمتى فأحِطْ بجرمى عَفْوك المأمُولا

فتبارك الله كأنهما لم يخرجا من ينبوع واحد .

قال إبراهيم بن المهدى لعبد الله بن صاعد كاتبه : إياك وتَتَبُّعَ الوَحْشى من الكلام طمعاً فى نيل البلاغة ؛ فإن ذلك هو العِىُّ الأكبر ، عليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل .

من كلام أبى تمام فى البلاغة

وقال أبو تمام يمدح الحسنَ بن وَهْب بالبلاغة :

لم يتبع شنع اللغات ، ولا مَشَى رَسْفَ المقيدِ فى طريق المنطق
ينشقُّ فى ظُلَمِ المعانى إن دَجَتْ منه تباشيرِ الكلام المفـــلقِ

وقال على بن بسام :

ولاخيرَ فى اللفظِ الكريهِ استماعُهُ ولافى قبيح اللَّحْنِ والقصدُ أزْيَنُ

أسباب إشكال الكلام

قال على بن عيسى الرُّمانى : أسباب الإشكال ثلاثة : التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، و إيقاع المشترك ، وكل

ذلك اجتمع فى بيت الفرزدقْ :

وما مثلهُ فى الناسَ إلا مملكاً أبو أمـهِ حىٌّ أبوه يقاربه

فالتغيير عن الأغلب سوء الترتيب ؛ لأن التقدير « وما مثله فى الناس حى يقارب به إلا مملكا أبو أمه أبوه » يريد بالملكِ هشامَ بنَ عبد الملك ، والممدوح هو إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك ؛ وأما سلوك الطريق الأبعد فقوله « أبو أمه أبوه » وكان يُجْزِئه أن يقول « خاله » وأما المشترك فقوله « حى يقارب به » لأنها لفظة « حى » تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان [المتصف] بالحياة، قال : و إذا تفقدت أبيات المعانى رأيتها لا تخرج عن هذه الأسباب الثلاثة .

للبحترى فى وصف البلاغة

وحكى الصولى قال : أنشدنى بعض الكتاب عن أحمد بن يحيى ثعلب قول البحترى للحسن بن وهب :

و إذا دَجَتْ أقلامهُ ثم انتحت بَرَقَتْ مصابيحُ الدجى فى كُتْبِهِ
فاللفظُ يقربُ فهمه من بعدهِ مِنّا ، و يبعد نَيْـلُه فى قربهِ
حكمٌ سحائبها خـلالَ بنانه هطّالةٌ ، وقَليبها فى قلبـهِ
كالروض مؤتلفاً بحمرةِ نورهِ و بياض زهرته وخضرة عُشْبِهِ
وكأنها والسمعُ معقودٌ بها وجه الحبيب بدا لعين محبـه

واستعادها أبو العباس حتى فهمها ، ثم قال : لو سمع الأوائل هـذا الشعر لما فَضَّلوا عليه شعراً .

(٩٧) — باب الإحالة والتغيير

وهذه لمح أتيت بهـا تدل من عَرَفَها على رداءتها ، وتدعو إلى كراهتها واجتنابهـا ، وقد وقعت فى أشعار الجِلّةِ من المتقدمين ، والتمس لهم فيها العذر لأنهم أربابُ اللغة وأصحاب اللسان ، وليس المولد الحضرى منهم فى شىء

أمثلة من الإحالة

فمن الإحالة قولُ ابن مقبل :

أما الأداةُ ففينا ضمرٌ صَنَعٌ جودٌ حواجز بالألبادِ واللجمِ
ونسج داود من بيضٍ مُصاَعفةٍ من عهدعادٍ، و بعدَ الحىِّ من إرم

فكيف يكون نسج داود من عهد عاد ؟ اللهم إلا أن يريد فينا ضمر صنع من عهد عاد ؛ فذلك له على سبيل المبالغة ، مع أن الإحالة لم تفارقه ، وكم بين قيس عيلان و بين عاد ، فضلا عن بنى العجلان ؟ !

وقال عبد الرحمن بن حسان :

و إنْ مالَ الضجيع بِهاَ فَدِعْصٌ من الكُثْبَانِ مُلْتَبِدٌ مَهِيلُ

قالوا : وكيف يكون ملتبداً مَهيلا ؟ هذا مستحيل متناقض ، والذى عندى فيه أنه صواب ؛ لأنه إنما أراد بالْتِبَاده صلابة ملمس العجيزة ، وأنها غير مُسترخية وجعله مهيلا لارتعاده واضطرابه من العظم ، كما قال ابن مقبل :

يمشينَ هَيْلَ النَّقَاسالتْ جَوَانِبُهُ يَنهاَلُ طوراً، و ينهاهُ الثّرى حِيناً

فقد جعله مرة ينهال ، ومرة ينهاه الثرى والثنى الذى فيه . .

أمثلة من التغيير

وقال جميل فى التغيير :

لاحسنها حُسْنٌ ، ولا كدلالها دَلٌّ ، ولا كوقارها توقيرُ

فحذف كاف التشبيه فصار المعنى كأنه ليس حسنها حسنا (١) ، وقد يغيرون اللفظ كما قال النابغة :

ونَسْجِ سُلَيمِ كُلَّ قَضَّاء ذائلِ (٢)

وهذا أسهل من قول الآخر :

---

(١) هذا فى قولها « لا حسنها حسن » لأنه يريد لا مثل حسنها حسن ، أو نحوه

(٢) فى الأصل « ذابل » بالباء موحدة ، وفى الديوان « ذائل » بالهمز ، وصدر هذا قوله * وكل صموت نثلة تبعية * والصموت : الدرع الثقيلة التى =

مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ أَبِى سَلَّامِ

وهذا كثير يخرج منه فى هذا الموضع ما ذكرت .

(٩٨) باب الرخص فى الشعر

هل يجوز للمولد ارتكاب الضرورة ؟

وأذكر هنا ما يجوز للشاعر استعماله إذا اضْطُرَّ إليه ، على أنه لا خير فى الضرورة ، على أن بعضها أسهل من بعض ، ومنها ما يسمع عن العرب ولا يعمل به ؛ لأنهم أتوا به على جِبِلَّتِهم ، والمولد المحدث قد عرف أنه عيب ، ودخوله فى العيب يلزمه إياه .

مثل من الضرورات

فمن ذلك قصر الممدود على مذاهب أهل البصرة والكوفة جميعا ، وله ـ على ما أجاز الكوفيون ـ وصل ألف القطع ، وهو قبيح . . قال حاتم طيء :

أبوه أبى ، والأمهاتُ امّهَاتُنَا فأنعِمْ فداكَ اليومَ أهلى ومعشرى

قال بعضهم : إنما الرواية « والأم من أمهاتها »

وله تخفيف المشدد فى القافية ، وأما فى حشو البيت فمكروه جداً ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وربما حذفوا النون الساكنة . . كما قال :

فلست بآتيهِ ولا أستطيعهُ وَلاَكِ اسْقِنِى إن كان ماؤكَ ذا فضل (١)

وأن يحذف للألف واللام أو الإضافة ما يحذف للتنوين مثل قول خُفَاف :

= إذا صبت لم يسمع لها صوت . والنثلة ـ ومثلها النثرة ـ الواسعة من الدروع ، والقضاء : الدرع المسحورة الخشنة المس من جدتها لم تنسحق بعد . والذائل : الطويلة الذيل ، ويقال : درع ذائل ودائلة .

(١) البيت للنجاشى (انظر كتاب سيبويه ج ١ ص ٩) . وأصل الكلام : « ولكن اسقى » لكنه لما اضطر حذف نون « لكن » تشبيها لها بالتنوين

كَنَوَاحِ رِيشِ حمامة نجدية ومسحت بِاللِّثَتَيْن عَصْفَ الإِثْمِد(١)

وأن يحذف حرفا من الكلمة كقول العجاج :

* قَوَاطِنًا مكةَ من وُرْق الحَمِى *(٢)

وحرفين كقول عَلْقَمة بن عبدة :

* مُفَدَّم بسَبَا الكتان مَلْثُومُ *(٣)

يريد بسبائب الكتان ، وأن يحذف من المكنى فى الوصل ما يحذف منه فى الوقف . كقول الشاعر :

* سأجعلُ عينيهِ لِنَفْسِهِ مَقْنَعًا *(٤)

وأقبح منه أن يحذف من المكنى المنفصل كقول الآخر :

فَبَيْنَاهُ يَشْرِى رَحْلَهُ قال قائل : لمنْ جَمَلٌ رِخْوُ المِلاَطِ نَجِيبِ؟

وأقبح من ذلك أن يحذف الألف من ضمير المؤنث . أنشد قطرب :

أما تقولُ به شاةٌ فيأكلها أو [أن] تبيعهَ فى بعض الأراكيب

أراد « تبيعها » فحذف الألف ، قال : ولا يجوز استعمال هذا للمحدث

---

(١) أراد « كنواحى ريش - إلخ » فحذف الياء مع الإضافة ضرورة تشبيها بحال الإفراد والتنوين وحال الوقف ، يصف شفتى امرأة فشبههما بنواحى ريش الحمامة فى رقتهما ولطافتهما وحوتهما ، وأراد أن لثاتها تضرب إلى السمرة فكأنها مسحت بالإثمد .

(٢) أراد « الحمام » فغيرها إلى ماترى ، وفى ذلك وجوه أحسنها أن يكون قد حذف الميم الثانية للضرورة ثم قلب الألف ياء بعد كسر الميم الأولى .

(٣) صدره * كأن إبريقهم ظبى على شرف *

(٤) هذا عجز بيت لمالك بن خريم الهمدانى ، وصدره * فإن يك غثا أو سمينا فإننى * أراد « لنفسهىْ » فحذف الياء ضرورة . وصف ضيفا فهو يقول : سأقدم إليه ماعندى غثا كان أو سمينا ، وأحكمه فيه ليختار أفضل ماترى عيناه فيقنع بذلك .

لشذوذه وقبحه ، ويجوز له حذف الياء والواو من المضمر المذكر لكثرته واطراده ، وللشاعر أن يحذف اسم « ليتِ » إذا كان مضمراً . . أنشد المفضل لعدىّ ابن زيد :

فليتَ دفعتَ الهمَّ عنىَ ساعةً فبتنا على ما خيلتَ نَاعِمَىْ بال

يريد « ليتك » وله حذف الفاء من « افتعلته » من التقوى وماتصرف منها ، أنشد المفضل لخداش بن زهير :

تَقُوهُ أيها الفتيانُ؛ إنى رأيتُ اللهَ قد غلبَ الجدودا

وأنشد أبو زيد الأنصارى :

إنَّ المنيةَ بالفتيانِ ذاهبةٌ وإن تَقُوهَا بأرماحٍ وأدراعِ

وحذف الفاء من جواب الجزاء كما قال :

يا أقْرَعُ بْنَ حابسٍ يا أقرعُ إنك إن يُصْرَعْ أخُوكَ تُصْرَعُ[1]

قال سيبويه : تقديره[1] إنك إن يُصرع أخوك فتصرع .

ومثله أيضاً :

مَن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها والشر بالشرّ عند الله مثلان

يريد « فالله يشكرها » وهذا أبين من الأول ، وحذف النون من تثنية « الذى » وجمعه

---

(١) فى الأصول * إنك إن تصرع أخاك تصرع * وهو غير رواية سيبويه وغيره من النحويين ، ولذلك أثبتنا روايتهم ، وفيما نقله المؤلف عن سيبويه خطأ غير وجه الكلام وجعل المعنى فاسدا ، وعبارة سيبويه (ج ١ ص ٢٣٦) هكذا «أراد إنك تصرع إن يصرع أخوك» ومعنى هذا أن جواب الشرط محذوف ، وجملة « تصرع » مع نائب الفاعل فى محل رفع خبر إن .

قال الأخطل :

أبنى كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا قَتَلاَ المُلُوكَ وفَكَّكاَ الأَغْلاَلاَ

وأنشد سيبويه :

وإنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يا أُمَّ خَالِدِ

أراد « الذين » وعلى هذا قال أبو الطيب :

ألستَ من القوم الذى من رماحهم نَدَاهُمْ ، ومن قَتْلاَهُم مُهْجَةُ البُخْلِ

ويجوز أن يكون جعل « الذى » للجماعة والواحد كما جعل « مَنْ » وقد حكى ذلك الزجاجى .

قال ابن قتيبة فى قول الله عز وجل : (كمثل الذى استوقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حوله ذهب الله بنورهمْ وتركهمْ فى ظلماتٍ لا يبصرون) : إن « الذى » ههنا بمعنى الذين ، والله أعلم .

وحذف الياء من « الذِى » فمنهم من يسكن الذال بعد الحذف ، ومنهم من يدَعُها مكسورة على لفظها ، أنشد البصريون والكوفيون جميعاً :

فَظلْتَ فى شَرٍّ من اللَّذْ كِيدَا كَمَنْ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيدَا

ويروى * كاللذْ تزبى زبيةً فاصطيدا * فجمع بين اللغتين[1] . ونظير هذا حذف الياء من « التى » وإسكان التاء ، وأنشدوا :

فَقُلْ لِلَّتْ تَلُومُكَ : إنَّ نَفْسِى أَرَاهَا لاَ تُعَوَّذُ بالتَّمِيمِ

وحذف الياء والتاء من « اللواتى » ، أنشد الزجاجى :

---

(١) كلا ، بل هما لغة واحدة ؛ فإن ذال الكلمتين فى الشطر الأول والثانى على الرواية الثانية — وهى المشهورة المعروفة فى أكثر كتب النحو والأدب — ساكنة ، يعلم ذلك من له أدنى مسكة بعلم .

جَمَعْتَهَا مِنْ أَيْنُقٍ غِـــزَارِ مِنَ اللَّوَا شرفنَ بالصِّرَارِ

وحذف الموصول وترك الصلة . كما قال يزيد بن مُفَرِّغ :

عَدَسْ ما لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهٰذَا تحملينَ طليقُ

أراد « وهذا الذى تحملين » فحذف(١) .

وحذف اسم « إن » و «لـكن» .كما قال :

ولـكنَّ مَنْ لاَ يَلْقَ أمراً يَنُوبُهُ بِعُدَّتِهِ يَنزِلْ به وَهْوَ أَعْزَلُ

فحذف الهاء من « لـكنه » لأنه قد جازى بمن ، ولو أعمل فيها « لـكن » لم يجز أن(٢) يجازى بها .

ومثله قول الآخر(٣) :

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الـكنيسةَ يوماً يَلْقَ فيهـــا جآذرا وظباء

أرادْ « إنه » . ويبدلون من الحروف السالمة حروف المد واللين ، وأنشدوا :

---

(١) فى كلام المؤلف خطأ ، وبيان الموضوع أن الـكوفيين ذهبوا إلى جواز مجىء أسماء الإشارة أسماء موصولة مع اتصال حرف التنبيه بها ، واستشهدوا على ذلك بهذا البيت فقالوا : إن « هذا » اسم موصول بمعنى الذى ؛ فليس هو من حذف الموصول وإبقاء صلته عندهم ، والبصريون يمنعون مجىء « هـذا » وغيره من أسماء الإشارة مع حرف التنبيه أسماء موصولة ، وعندهم أن « هذا » اسم إشارة مبتدأ ، وخبره « طليق » فى آخر البيت ، وجملة « تحملين » فى محل نصب على الحال ، أى وهذا طليق حال كونه محمولا عليك ؛ فتخريجه للبيت لايوافق أحد المذهبين .

(٢) أى : لأن أسماء الشرط لها الصدارة فى الـكلام فـلا يعمل ما قبلها فيها ، ومن الذى تستحقه أن يتأخر عنها ما يعمل فيها نحو قوله تعالى : (أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وهنا لا يمكن ذلك ؛ لأن « لـكن» حرف ، وهو لا يعمل متأخرا فلذلك تقدم « لـكن » وقدر اسمه ضمير شأن ، وجملة الشرط والجواب فى محل رفع خبر « لـكن » فافهم ذلك .

(٣) ينسب للأخطل .

لها أشاريرُ من لحم تُتَمِّره من الثعالى ووخزٌ من أرانيها

أراد « من الثعالب » « ومن أرانبها » ويلينون الهمزة . وذلك كثير جدا جائز فى المنثور والفصيح ، وله حذف ألف الاستفهام ، كما قال الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أم رأيت بواسطٍ غَلَسَ الظلامِ من الرَّبَابِ خَيَالاَ

وهذا ردىء فى المنثور جداً .

ونقصان الجموع عن أوزانها لضرورة القافية كما قال رؤبة :

* حتى إذا بلَّتْ حلاقيم الحُلقْ *

يريد « الحُلُوق » وترك صرف ماينصرف ؛ لأنه يحذف منه التنوين وهو يستحقه ، وهو غير جائز عند البصريين ، إلا أنه قد جاء فى الشعر . قال عباس بن مرداس يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وما كان حِصْنٌ ولا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فى مَجْمَعِ

وعلى هذا المذهب قال أبو نواس :

عَبَّاسُ عباسٌ إذا احتدم الوغا والفَضْلُ فَضْلٌ والربيعُ ربيعُ

ويروى * إذا حضر الوغا * والفراء يرى ترك الصرف لعلة واحدة ، وهى التعريف ، والبصريون يخالفونه فى ذلك ويأبونه .

ومن أقبح الحذف حذف حركة الإعراب للضرورة، وأنشدوا لامرىء القيس :

فاليوم أشربْ غيرَ مُستَحْقِبٍ إثمًا مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

ومثله للفرزدق :

رُحْتِ وفى رِجْلَيْكِ ما فيهما وَقَدْ بَدَا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

وزعم قوم أن الرواية الصحيحة فى قول امرىء القيس * اليوم أُسْقَى * وبذلك كان المبرد يقول ، وقال الآخرون: بل خاطَبَ نفسَه كما يخاطب[1] غيره ،

(١) يريد أن قوله « اشرب» فعل أمر مبنى على السكون ، وليس فعلا مضارعا فورد على هذا أن الهمزة فى « أشرب » همزة قطع ، ونحن نعلم أن همزة أمر الثلاثى همزة وصل ، فقيل: إن الرواية «فاليوم فاشرب» وقد أشار المؤلف إلى هذا الجواب .

فقال : فاليوم فاشْرَبْ ، وفى بيت الفرزْدق * وقد بدا ذَاكِ من المَرْزِ * كناية عن الهن ، وهذا مما يسمع ويحكى ، ولا يقاسُ عليه البتة .

هذا صدر جيد مما علمته يجوز للشاعر من الحذف والنقصان .

ضرورات الزيادة

والذى يجوز له من الزيادات أنا ذا كرمنه أيضاً ماوسعته قدرتى، إن شاء الله تعالى: فمن ذلك صرف مالا ينصرف ، وإجراء المعتل مجرى الصحيح ؛ فيعرب فى حال الرفع والخفض ، تقول : هذا القاضىُ ، ومررت بالقاضىِ ، وزيد يَقْضِىُ ويَغْزُوُ ، ولا يجوز فى المنثور من الكلام ، وعلى هذا قول قيس ابن زهير :

ألم يأتيكَ والأنباء تنمى ... بما لاقت لَبُونُ بنى زياد

كأنه يقول فى الرفع يأتيُك بضم الياء ، فلما جزمها أسكنها.

ومنهم من يبدل من الياء همزة ، وهو القليل ، فيقول : القاضىْ ، والغازىْ ، وأنشد :

يا دارَ سلمى بدكاديك البُرَقْ ... سقياً وإن هيجت شوق المُشْتَئِقْ

همز الياء ، وليس أصلها الهمزة .

وله إظهار التضعيف كقوله :

يشكو الوَجَى من أظللٍ وأظلل

وإنما هو « الأظلّ » وهو باطن خف البعير.

وتثقيل المخفف فى وصل الكلام على نية من يقف على التثقيل ، وأنشدوا :

ببازِلٍ وجناء أو عَيْهَلّ ... كأنّ مَهْوَاهَا عَلَى الكَلْكَلّ

موقع كَفَّىْ راهبٍ يُصَلّى

فثقل « العيهل » وهى السريعة ، و « الكلكل » فى صلة الشعر، وهما مخففتان

وله إدخال النون الخفيفة أو الثقيلة فى الواجب ، وإنما تدخل فيما ليس بواجب ، نحو الأمر والنهى والاستفهام . قال القطامى :

وهمُ الرجالُ ،وكلُّ ذلك منهمُ يحزنَّ فى رَحْبٍ وفى مُتَضَيِّقِ

وأنشدوا لآخر ، وهو جَذِيمة الأبرش:

رُبَّمَا أوفَيْتُ فى عَــلَمٍ تَرْفَعَنْ ثوْبِى شمَالاتُ

وله إدخال الفاء فى جواب الواجب ، والنصب بهـا على إضمار « أن » .
قال طرفة :

لنا هَضْبَةٌ لا يَنْزِلُ الذلُّ وَسْطَهَا ويأوى إليها المستجيرُ فيُعْصَما

فنصب بالفاء على الجواب .

وقال آخر :

سأترك مَنزلى لبنى تميمٍ وألحَقُ بالحجاز فأستريحا

وقَطْعُ ألف الوصل لأنه زيادة حركة ، والجزم بحرف وحرفين ، وأكثر من ذلك ، وقد مضى فيما تقدم من هذا الـكتاب .

وزيادة حرف فى الجموع نحو قول الشاعر :

تنفى يَدَاهَا الحصى فى كل هاجرةٍ نَفْىَ الدَّراهيمِ تنقادُ الصياريفِ

فزاد ياء فى « الدراهم » وياء فى « الصيارف » إن لم تكن الرواية تختلف، على أن الدراهم لا يضطر فيهـا إلى زيادة الياء ؛ إذ كان الوزن يقوم دونها ، وإن قيل فى بعض اللغات « دِرْهَام » .

وله على مذاهب الـكوفيين خاصة مد المقصور ، وقد ألزم ابن ولادٍ البصريين مده على مذهب سيبويه فى امتناع الحركة

ويجوزله التقديم والتأخير ، كما قال العُجَيْر السَّلولى :

وما ذاكَ إن كان ابنُ عمى ولا أخى ولـكن متى ما أملك الضرَّ أنفعُ

بالرفع ، أراد ولـكن أنفع متى ما أملك الضر ، ولا أدرى ما الفرق بين هذا و بين * إن يُصْرَعْ أخوك تصرع* حيث فرقوا بينهما[1] غير أنا نسلم لهم كما سلم من هو أثقب منا حسا وأذكى خاطرا

وقال عمرو بن قميئة :

لما رأت ساتيدَما استعبرتْ   لله درُّ اليومَ مَنْ لامَهَا

وهذه أشياء من القرآن وقعت فيه بلاغة وإحكاماً لا تصرفا وضرورة ، وإذا وقع مثلها في الشعر لم ينسب إلى قائله عجز ولا تقصير ، كما يظن من لا علم له ولا تفتيش عنده :

الإخبار عن واحد من اثنين

من ذلك أن يذكر شيئين ثم يخبر عن أحدهما دون صاحبه اتساعا ، كما قال الله عزّ وجلّ : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) . أو يجعل الفعل لأحدهما و يشرك الآخر معه ، أو يذكر شيئاً فيقرن به ما يقارب به ويناسبه ولم يذكره ، كقوله تعالى في أول سورة الرحمن : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقد ذكر الإنسان قبل هذه الآية دون الجان ، وذكر الجان بعدها .

وقال المثقب العبدى :

فما أدرى إذا يممتُ أرضا   أريد الخيرَ أيُّهما يلينى
أألخيرُ الذى أنا أبتغيه   أم الشرُّ الذى هو يبتغينى

فقال « أيهما » قبل أن يذكر الشر ؛ لأن كلامه يقتضى ذلك .

حذف جواب القسم وغيره

وأن يحذف جواب القسم وغيره ، نحو قوله عز وجل : (ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم) وقوله : (والنازعات غرقا) إلى قوله : (يوم ترجف الراجفة) فلم يأت بجواب ؛ لدلالة الكلام عليه ، وقال عز وجل :

---

(١) قد عرفت مما نقلناه لك عن سيبويه أن مخرجهما في العربية واحد ، ولا محل لما قال .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤفٌ رحيم) أراد « لعذبكم » أو نحوه
ومن هذا قول امرىء القيس :

ولو أنها نفسٌ تموتُ جَميعَةً ولكنها نفسٌ تَسَاقَطُ أنفسا

وقد تقدم ذكره .

إضمار مالم يجر له ذكر.

ومن ذلك إضمار مالم يذكر كقوله جل اسمه : (حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس ، وقوله : (فأثرن به نقعاً) ولم يجر للوادى ذكر

وقال حاتم طيء :

أماويّ ، مايغنى الثراء عن الفتى إذاحَشْرَجَتْ يَوْماًوضَاقَبها الصَّدْرُ؟

يعنى النفس ، وأنشد ابن قتيبة عن الفراء :

إذا نُهِيَ السفيه جرى إليـه وخالف ، والسفيه إلى خلاف

يعنى « جرى إلى السَّفَه »

حذف « لا » وزيادتها

وحذف « لا » من الكلام وأنت تريدها ، كقوله تعالى (أن تجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم) وزيادة « لا » فى الكلام كقوله سبحانه (ومايشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) فزاد « لا » لأنهم لا يؤمنون ، هذا قول ابن قتيبة ، وقال جل اسمه : (مامنعك أن لا تَسْجُدَ) أى : مامنعك أن تسجدَ ، قال : وإنما تزاد « لا » فى الكلام لإباء أو جَحْد ، وقال : (لِئَلاَّ يعلم أهلُ الكتاب أن لايقدرونَ على شىء من فضل الله) أى : ليعلمَ .

وقال أبو النجم :

* فما ألوم النجمَ أن لا تسهرا *

يريد « أن تسهرا » .

حذف المنادى

وحذف المنادى كقوله تعالى : (ألاَّ يا اسجدوا لله) كأنه قال « ألا يا هؤلاء اسجدوا لله » وقال ذو الرمة فى مثل ذلك :

الا يا سلمى يا دارَمىّ على البلى ولا زال مُنْهلاً بجَرْعائك القَطْر

خطاب الواحد كالاثنين والجماعة

وأن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين والجماعة ، أو يخبر عنه ، كقوله تعالى : (إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات) وإنما كان رجلا واحدا ، وقوله (ألقيا فى جهنم) و إنما يخاطب مالكا خازن النار ، وقيل : بل أراد ألقِ ألقِ ، فثنى[1] الفعل ، وقوله : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فخاطب الاثنين بخطاب الواحد ، وقوله : (فقد صَغَتْ قلوبكما) وقوله : (وألقى الألواح) وهما لوحان فيما زعم المفسرون ، حكاه ابن قتيبة ؛ وأن يصف الجماعة بصفة الواحد كقوله : (وإن كنتم جُنُبا) .

مجىء المفعول بلفظ الفاعل وعكسه

ومن غرائب هذا الباب أن يأتى المفعول بلفظ الفاعل ، كقوله تعالى : (لاعاصم اليوم من أمر الله) أى : لا معصوم ، وكذلك قوله : (من ماء دافق) أى : مَدْفوق ، وقوله : (فى عِيشَةٍ راضية) أى : مَرْضِى بها ، وقوله : (وجعلنا آية النهار مُبْصِرة) أى : مُبْصَرٌ فيها ، وأن يأتى الفاعل بلفظ المفعول به كقوله تعالى : (إنه كان وعده مَأْتِيًّا) أى آتيا.

وقد جاء الخصوص فى معنى العموم فى قوله تعالى: (يا أيها النبىُّ إذا طلقتم النساء)

وجاء العموم بمعنى الخصوص فى قوله: (يا أيها الرسُلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا)

الحمل على المعنى

ومن الحمل على المعنى قوله تعالى : (وكذلك زين لكثير من المشركين قَتْلُ أولادِهم شركاؤهم) كأنه قيل : مَنْ زينه ؟ فقيل : شركاؤهم .

والحمل على المعنى فى الشعر كثير ، ومن أنواعه التذكير والتأنيث ، ولا يجوز أن تؤنث مذكراً على الحقيقة من الحيوان ، ولا أن تذكر مؤنثاً .

---

(١) وقيل : الألف هى نون التوكيد الخفيفة ، عاملها فى الوصل معاملتها فى الوقف ، ولنا فى هذا الموضوع بحث طويل ووجوه كثيرة من الاستدلال فى شرحنا على المعلقات .

قال ابن أبى ربيعة المخزومى :

فـكان مِجَنِّى دون من كنت أتقى ثَلاَثُ شُخُوصٍ كاعبان ومُعْصِرُ

فأنث الشخوص على المعنى . وكل جمع مكسر جائز تأنيثه وإن كان واحدهُ مذكراً حقيقياً .

ومما أنث من المذكر حملا على اللفظ قول الشاعر ، أنشده الـكسائى :

أبوك خليفة وَلَدَتْهُ أُخْرَى وأنت خليفة، ذاك الـكمال

ومثل هذا فى الشعر كثير موجود .

٩٩ — باب السرقات ، وماشا كلها

لايدعى السلامة منه أحد .

وهذا باب متسع جداً ، لا يقدر أحد من الشعراء أن يَدَّعى السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة ، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة ، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل ، وقد أتى الحاتمى فى «حلية المحاضرة» بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حققت : كالاصطراف ، والاجتلاب ، والانتحال ، والاهتدام ، والإغارة ، والمرافدة ، والاستلحاق ، وكلها قريب من قريب ، وقد استعمل بعضها فى مكان بعض ، غير أنى ذاكرها على ما خيلت فيما بعد .

رأى الجرجانى

وقال الجرجانى — وهو أصح مذهبا ، وأكثر تحقيقا من كثير ممن نظر فى هذا الشأن — : ولست تعد من جهابذة الـكلام ، ولا من نُقَّادِ الشعر ، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصل بين السَّرَق والغصب وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه والمبتذل الذى ليس واحد أَحَقَّ به من الآخر ، وبين المختص الذى حازه المبتدى فملـكه واجتباه السابق فاقتطعه .

السرقة عند عبد الـكريم

قال عبد الـكريم : قالوا : السَّرَقُ فى الشعر مانقل معناه دون لفظه ، وأبعد

فى أخذه ، على أن من الناسَ من بعد ذهنه إلا عن مثل بيت امرىء القيس وطرفة(١) حين لم يختلفا إلا فى القافية ؛ فقال أحدهما « وتحمل » ، وقال الآخر « وتجلد » ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى ، ويكون الغامض عندهم بمنزلة الظاهر ، وهم قليل .

فيم تكون السرقة ؟

والسرق أيضاً إنما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، لا فى المعانى المشتركة التى هى جارية فى عاداتهم ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يُورِده أن يقال إنه أخذه من غيره.

قال : واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز ، وتركه كل معنى سُبِقَ إليه جَهْل ، ولكن المختار له عندى أوسط الحالات .

أنواع السرقة

وقال بعض الحذاق من المتأخرين : مَنْ أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقاً ، فإن غَيَّرَ بعض اللفظ كان سالخا ، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قَلَبه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه .

وأما ابن وكيع فقد قدم فى صدر كتابه على أبى الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم ، وسماه « كتاب المنصف » مثل ماسمى اللديغ سليما ، وما أبعد الإنصاف منه .

الاصطراف

والاصطراف : أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ، فإن

---

(١) هما بيتان متشابهان وقعا فى معلقتى امرىء القيس وطرفة بن العبد : أما بيت امرىء القيس فقوله :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسى وتحمل

وأما بيت طرفة فقوله :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون : لاتهلك أسى وتجلد

فأنت ترى أن البيتين لم يختلفا إلا فى القافية كما حكى المؤلف .

بقية أنواع السرقة

صرفه إليه على جهة المثل فهو اختلاب واستلحاق ، وإن ادعاه جملة فهو انتحال ، ولا يقال «منتحل» إلا لمن ادَّعى شعراً لغيره وهو يقول الشعر ، وأما إن كان لا يقول الشعر فهو مُدَّعٍ غير منتحل ، وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة فتلك الإغارة والغصب ، وبينهما فرق أذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى ، فإن أخذه هبة فتلك المرافدة ، ويقال : الاسترفاد ، فإن كانت السرقة فيما دون البيت فذلك هو الاهتدام ، ويسمى أيضاً النسخ ، فإن تساوى المعنيان دون اللفظ وخفى الأخذ فذلك النظر والملاحظة ، وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر ، ومنهم من يجعل هذا هو الإلمام ، فإن حول المعنى من نسيب إلى مديح فذلك الاختلاس ، ويسمى أيضاً نقل المعنى ، فإن أخذ بنية الكلام فقط فتلك الموازنة ، فإن جعل مكان كل لفظة ضدها فذلك هو العكس ، فان صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر — وكانا فى عصر واحد — فتلك المواردة ، وإن ألف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض فذلك هو الالتقاط والتلفيق ، وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب ، ومن هذا الباب كَشْفُ المعنى والمجدود من الشعر ، وسوء الاتباع ، وتقصير الأخذ عن المأخوذ منه ، وسأورد عليك مما رويته أو تأدى إلى فهمه لكل واحد من هذه الألقاب مثالا يعرفه العالم ، ويقتدى به المتعلم ، إن شاء الله تعالى .

الاصطراف على ضربين

أما الاصطراف فيقع من الشعر على نوعين : أحدهما : الاجتلاب ، وهو الاستلحاق أيضاً كما قدمت ، والآخر : الانتحال ؛ فأما الاجتلاب فنحو قول النابغة الذبيانى :

وصهباء لا تُخْفِي القذى وَهْوَ دونها ... تصفقُ فى راووقها حين تقطبُ
تمززتها والديكُ يدعو صباحَهُ ... إذا ما بنو نعشٍ دَنَوْا فتصوَّبوا

فاستلحق البيت الأخير فقال

وإجانةٍ رَيّا السرورِ كأنها إذا غمستْ فيها الزجاجةُ كوكبُ
تمززتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعشٍ دَنَوْا فتصوّبُوا

وربما اجتلب الشاعر البيتين على الشريطة التى قدمت ؛ فلا يكون فى ذلك بأس ، كما قال عمرو ذو[1] الطوق :

صددت الكأسَ عنا أمَّ عمرو وكان الكأسُ مجراه اليمينا
وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

فاستلحقهما عمرو بن كلثوم ؛ فهما فى قصيدته ، وكان عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً ، وقد يصنع المحدثون مثل هذا .

قال زياد الأعجم :

أشَمُّ إذا ما جئتَ لِلعُرْفِ طالبا حَبَاك بما تحوى عليه أنامِلُهْ
ولو لم يكن فى كفه غَيْرُ نَفْسِهِ لجادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سائلُهْ

ويروى هذا لأخت يزيد بن الطَّثْرِية ، واستلحق البيت الأخير أبو تمام فهو فى شعره .

وأما قول جرير للفرزدق وكان يرميه بانتحال شعر أخيه الأخطل بن غالب :

ستعلمُ من يكون أبوه قيناً ومن كانت قصائدهُ اجتلابا

فإنما وضع الاجتلاب موضع السَّرَقِ والانتحال لضرورة القافية ، هكذا ذكر العلماء من هؤلاء المحدثين ، وأما الجمحى فقال : من السرقات ما يأتى على سبيل المثل ليس اجتلابًا ، مثل قول أبى الصَّلْتِ بن أبى ربيعة الثقفى :

تلك المكارمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ شِيبا بماء فعادا بَعْدُ أبوالاَ

ثم قاله بعينه النابغة الجعدى لما أتى موضعه ، فبنو عامر ترويه للجعدى ، والرواة مجمعون أنه لأبى الصَّلْتِ ؛ فقد ذهب الجمحى فى الاجتلاب مذهب جرير أنه انتحال ، ولم أر محدثًا غيره يقول هذا القول .

الانتحال

والانتحال عندهم قول جرير :

(١) هو عمرو بن عدى ، ابن رقاش أخت جذيمة الأبرش .

إن الذين غَـدَوْا بلُبِّكَ غادَرُوا وَشَـلاً بعَيْنِكَ لا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لي : ماذا لقيتَ من الهـوى ولقينا ؟

فإن الرواة مجمعون على أن البيتين للمَعْلُوط السعدى انتحلهما جرير ، وانتحل أيضًا قول طُفَيْل الغنوى :

ولما التقى الحَيَّانِ أُلْقِيَتِ العَصَى وماتَ الهوى لما أصيبت مقاتله

ولذلك قال الفرزدق :

إن تذكروا كَرَمى بلؤم أبيكمُ وأوابدى تَتَنَحَّلوا الأشْـعارَا

وكانا يتقارضان الهجاء ، ويعكس كل واحد منهما المعنى على صاحبه، وليس ذلك عيبًا فى المناقضات ، ولما قال الفرزدق فى بنى ربيع :

تمنت ربيع أن يجىء صغارها بخير ، وقد أعيا ربيعا كبارها

أخذه البَعِيثُ بعينه فى بنى كليب رهط جرير فقال الفرزدق :

إذا ما قلتُ قافيـة شَرُوداً تنحّلها ابنُ حَمْرَاء العِجان

يعنى البعيث ؛ وكان ابن سُرِّيّة .

وأما قول البحترى :

رَمَتْنِي غُوَاةُ الشِّعْرِ منْ بَيْنِ مُفْحَمٍ ومُنْتَحِـلٍ مالم يَقُـلْهُ ومُدَّعِي

فيشهد لك بما قدمت ذكره ؛ لأنه قسمهم ثلاثة أقسام : مفحم قد عجز عن الكلام فضلا عن التحلي بالشعر غير أنه يتبع الشعراء ؛ والآخر منتحل لأجود من شعره ، والثالث مدع جملة لا يحسن شيئًا .

الإغارة

والإغارة : أن يصنع الشاعر بيتًا ويخترع معنى مليحًا فيتناوله مَنْ هو أعظم منه ذكرًا وأبعد صوتًا ، فيروى له دون قائله ، كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد :

ترى النَّاسَ ما سِرْنا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وإنْ نحنُ أوْمَأْنا إلى النَّاسِ وَقَفُوا

فقال : متى كان المُلْكُ فى بنى عُذْرَةَ ؟ إنما هو فى مُضَرَ وأنا شاعرها ، فغلب الفرزدق على البيت ، ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره .

وقد زعم بعض الرواة أنه قال له : تجافَ لى عنه، فتجافى جميل عنه ، والأول أصح ؛ فما كان هكذا فهو إغارة ، وقوم يرون أن الإغارة أخذ اللفظ بأسره والمعنى بأسره ، والسَّرَقُ أخذ بعض اللفظ أو بعض المعنى ، كان ذلك لمعاصر أو قديم .

الغصب

وأما الغصب فمثل صنيعه بالشمردل اليربوعى ، وقد أنشد فى محفل :

فما بَيْنَ مَنْ لم يُعطِ سَمْعاً وطاعةً ... وبين تميم غَـيْرُ حَزِّ الحلاقم

فقال الفرزدق: والله لتدَعَنَّه أو لتدعَنَّ عِرْضَكَ، فقال: خذه لا بارك الله لك فيه.

وقال ذو الرمة بحضرته : لقد قلت أبياتاً ، إن لها لعروضاً و إن لها لمراداً ومعنى بعيداً ، قال : وما قلت ؟ فقال : قلت :

أحِينَ أعاذَتْ بى تميمٌ نِسَاءها ... وَجُرِّدْتُ تجريدَ اليمانى من الغمدِ

وَمَدَّتْ بَضَبْعَىَّ الرِّبابُ ومالكٌ ... وعمرٌو وسالت[1] من ورائى بنو سَعْدِ

ومن آل يربوع زهاء كأنه ... دجى الليل محمود النكاية والرفد

فقال له الفرزدق : إياك و إياها لا تعودَنَّ إليها ، وأنا أحق بها منك ، قال: والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبداً إلا لك

وسمعت بعض المشايخ يقول : الاصطراف فى شعر الأموات كالإغارة على شعر الأحياء ، إنما هو أن يرى الشاعر نفسه أولى بذلك الكلام من قائله .

---

(١) فى الديوان « وشالت » وبعد الأبيات الثلاثة التى رواها المؤلف قوله :

تمنى ابن راعى الإبل شتمى، ودونه ... معاقل صعبات طوال على العبد

معاقل لو أن النميرى رامها ... رأى نفسه فيها أذل من القرد

المرافدة

وأما المرافدة فأن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له ، كما قال جرير لذى الرمة : أنشدنى ما قلت لهشام المرئى(١) ، فأنشده قصيدته :

نَبَتْ عيناكَ عنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى   مَحَتْـهُ الرِّيحُ وامتنح القطارا

فقال : ألا أعينك ؟ قال : بلى بأبى وأمى ، قال : قل له :

يَعُدُّ الناسبونَ إلى تميم   بُيُوتَ المجدِ أربعَةً كِباراً
يعدُّون الرِّبَابَ وآلَ سعدٍ   وعمراً ثم حنظلةَ الخيارا
ويهلك بينها المرئىُّ لَغْوا   كما ألغيتَ فى الدِّية الحوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيد ، أعده ، فأعادهُ ، فقال : كلا والله ، لقد عَلَكهن من هو أشد لحيَيْنِ منك ، هذا شعر ابن المراغة .

واسترفد هشام المرئى جريراً على ذى الرمة فقال فى أبيات :

يُمَاشى عَدِيًّا لؤمها ما تجنـــه   من الناس ما ماشتْ عديًّا ظلالُهَا
فقـــلْ لعدىٍّ تستعنْ بنسائها   علىَّ فقد أعيا عَدِيًّا رجالهـــا
أذا الرمّ ، قد قلدتُ قومك رمةً   بطيئًا بأيدى العاقدينَ انحلالها

ويروى * بأيدى المطلقين * فقال ذو الرمة لما سمعها : يا ويلتا ، هذا والله شعر حنظلى ، وغلب هشـام على ذى الرمة بعد أن كان ذو الرمة مستعلياً عليه .

وقد استرفد نابغة بنى ذبيان زهيراً فأمر ابنه كعباً فرفده .

والشاعر يستوهب البيت والبيتين والثلاثة وأكثر من ذلك ، إذا كانت

---

(٢) فى الأصول « المرى » وهو خطأ ، وصوابه « المرئى » كما أثبتناه ، وهشام أحد بنى امرىء القيس بن سعد مناة ، هذا ، ورواية الديوان (ص ٣٣) فى البيت الثانى * يعدون الرباب لهم وعمرا * وسعدا ثم . . . ورواية البيت الثالث فى غير هـذا الكتاب * ويسقط بينها المرئى . . . *

شبيهة بطريقته ، ولا يعد ذلك عيبا ؛ لأنه يقدر على عمل مثلها ، ولا يجوز ذلك إلا للحاذق المبرز .

الاهتدام

والاهتدام نحو قول النجاشى :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رَمَتْ فيها يَدُ الحدثان

فأخذ كثير القسمَ الأولَ واهتدم باقى البيت فجاء بالمعنى فى غير اللفظ ، فقال:

* ورجل رَمَى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ *

النظر والملاحظة

وأما النظر والملاحظة فمثل قول مهلهل :

أنبضوا معجس القسىّ وأبرقـنا كما توعد الفحولُ الفحولاَ

نظر إليه زهير بقوله :

يطعنهم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطَّعَنُوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعْتَنَقَا

وأبو ذؤيب بقوله :

ضَرُوبٌ لهاماتِ الرجالِ بسيفه إذا حَنَّ نَبْعٌ بينهم وشريجُ

الإلمام

والإلمام : ضرب من النظر ، وهو مثل قول أبى الشيص :

* أجِدُ الملامَةَ فى هواكِ لذيذةً *

وقول أبى الطيب :

* أأحبه وأحبُّ فيه ملامة *

البيت ، وقد تقدم[1] ذكرهما فى التغاير .

الاختلاس

وأما الاختلاس فهو قول أبى نُوَاس :

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فى القلوبِ مِثَالُه فـكأنّه لم يَخْلُ مِنْهُ مَـكَانُ

اختلسه من قول كُثَيِّر :

---

(١) انظر (ص ١٠٣) من هذا الجزء ، وفيها تمام بيتى أبى الشيص والمتنبى .

أرِيدُ لأنسَى ذِكرَها فكأنّما تمثَّلُ لِي لَيْلَى بكُلّ سبيلِ

وقولُ عبد الله بن مصعب :

كأنكَ كُنتَ محتكما عليهم تخَيَّرُ في الأبوةِ ما تشاء

ويروى * كأنك جئت محتكما عليهم * اختلسه من قول أبي نواس :

خُلِّيتَ وَالْحُسْنَ تأخذُهُ تنتقى منه وتنتخبُ

فاكْتَسَتْ منه طرَائِفَهُ ثُمّ زَادتْ فَضْلَ ما تَهَبُ

أردت البيت الأول .

ومن هذا النوع قولُ امرىء القيس :

إذا ما ركبنا قال وِلْدانُ حَيِّنَا تعالَوْا إلى أن يأتِنا الصَّيْدُ نحطب[1]

نقله ابن مقبل إلى القدح فقال :

إذَا امْتَحَنَتْهُ من مَعَدٍّ عِصَابَةٌ عدارية[2] قبل الإفاضةِ يقدح

نقله ابن المعتز إلى البازى فقال :

قد وثِقَ القومُ له بما طَلَبْ فهو إذا عرّى لصيد واضطرب

عروا سكاكينهمُ من القُرُبْ[3]

نقلته أنا إلى قوس البندق فقلت :

طيرٌ أبابيلُ جاءتنا فما بَرِحَتْ إلاّ وأقواسُنَا الطيرُ الأبابيلُ

تَرْميهُمُ بحَصَى طَيْرٍ مُسَوَّمَةٍ كأنّ معدنها للرمى سِجِّيلُ

تَغْدُو على ثِقَةٍ منا بأطيبها والنارُ تقدحُ والطنجيرُ مغسول

والموازنة مثل قول كثير : الموازنة

تقولُ مَرِضْنَا فما عُــدْتَنَا وكَيْفَ يَعُودُ مَرِيضٌ مريضاً

وازن في القسم الآخر قول نابغة بني تغلب :

---

(١) في الديوان « ولدان أهلنا » . (٢) في نسخة « غذارية » .

(٣) في ديوان ابن المعتز (٤ / ٧) « فهو إذا جلى » وفي نسخة منه « فهو إذا حلى » وفي نسخة في ثالث هذه الأبيات « سلوا سكاكينهم » .

بَخِلْنَا لِبُخْلِكِ قد تعلمينَ وكَيْفَ يَعيبُ بَخِيلٌ بَخيلا؟

العكس

والعكسُ قولُ ابن أبي قيس ، ويروى لأبي حفص البصري :

ذهب الزمانُ برهطِ حَسّانَ الأولى كانت مَنَاقبهم حديثَ الغابرِ
وبقيتُ في خلف يَحُلُّ ضُيُوفُهُمْ منهم بمنزلة اللئيم الغــــادر
سود الوجوه لئيمةٍ أحسابهم فُطْسِ الأنوف من الطراز الآخر

وقد عاب ابن وكيع هذا النوع بقلة تمييز منه أو غفلة عظيمة .

الموارِدة

وأما الموارِدة فقد ادعاها قوم في بيت امرىء القيس[1] وطرفة ، ولا أظن هذا ممـا يصح ؛ لأن طرفة في زمان عمرو بن هند شابٌ حول العشرين ، وكان امرؤ القيس في زمان المنذر الأكبر كهلا واسمه وشعره أشهر من الشمس ؛ فكيف يكون هذا موارِدة ؟ إلا أنهم ذكروا أن طرفة لم يثبت له البيت ، حتى استحلف أنه لم يسمعه قط فحلف ، وإذا صح هذا كان موارِدة ، وإن لم يكونا في عصر ، وسئل أبو عمرو بن العلاء: أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ لم يلق واحد منهما صاحبه ولم يسمع شعره ؟ قال : تلك عقول رجال توافت على ألسنتها ، وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال : الشعر جادة ، وربما وَقَعَ الحافر على موضع الحافر .

الالتقاط والتلفيق

وأما الالتقاط والتلفيق فمثل قول يزيد بن الطَّثْرِية :

إذا مارآني مُقْبِلاً غَضَّ طرفه كأن شعاعَ الشمسِ دوني يقابله

فأوله من قول جميل :

إذا ما رأوْني طالِعًا من ثَنِيَّةٍ يقولون: من هذا؟ وقد عَرَفُوني

(١) ذكرناها أول الباب فانظر (ص ٢٨١) من هذا الجزء.

ووسطه من قول جرير :

فَغُضَّ الطرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلاَ كعباً بَلَغْتَ ولاَ كلابا

وعجزه من قول عنترة الطائى[(١)] :

إذا أبصرتنى أعرضتَ عنى كأن الشمسَ من حولى تَدُورُ

كشف المعنى

فأما كَشْفُ المعنى فنحو قول امرىء القيس :

نمشُّ بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقال عبدة بن الطبيب بعده :

ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَة أعرافهن لأيدينا مناديلُ

فكشف المعنى وأبرزه .

الشعر المجدود

وأما المجدود من الشعر فنحو قول عنترة العبسى :

* وكما عَلِمْتِ شَمَائِلِي وتَكَرُّمِي *[(٢)]

رزق جدا واشتهاراً على قول امرىء القيس :

وشمائلى ما قد علمت ، وما نَبَحَتْ كِلاَبُكِ طَارِقاً مِثْلِى

متى يكون الآخذ أولى بالمعنى ؟

ومنه أخذ عنترة ، والمخترع معروف له فضله ، متروك له من درجته ، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده ــ بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزاً ، أو يبينه إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سَفْسَافاً ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا ــ فهو أولى به من مبتدعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر ، فأما إن ساوى المبتدع

(١) هو عنترة بن عكبرة الطائى ، وهى أمه ، وأبوه الأخرس بن ثعلبة : فارس شاعر ، ذكره الآمدى فى المؤتلف والمختلف .

(٢) صدره * وإذا صحوت فما أقصر عن ندى *

فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ، فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه ، وسقوط همته ، وضعف قدرته .

فمما أجاد فيه المتبع على المبتدع قول الشماخ :

إِذَا بَلَّغتنى وَحَمَلْتِ رَحْلِي   عَرَابَةَ فاشْرَقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

فقال أبو نواس :

أقولُ لناقتى إذ بَلَّغَتْنِي   لَقَدْ أَصْبَحْتِ منى باليمين

فلم أَجْعَلْكِ للغربان نحلا   ولاقلتُ «اشرقى بدمِ الوتين»

وكرره فقال :

وإِذَا الْمَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمَّداً   فظهورهُنَّ على الرجال حَرَامُ

قرَّبْنَنا من خيرمن وَطِيءالحَصَى   فلها علينا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

ومما يتساوى فيه السارق والمسروق منه قول امرىء القيس * فلو أنها نفسٌ[1] * البيتَ ، وقول عبدة بن الطبيب * فما كان قيس[2] * البيت .

سوء الاتباع

وسوء الاتباع أن يعمل الشاعر معنى رديا ولفظا رديا مستهجنا ثم يأتى من بعده فيتبعه فيه على رداءته ، نحو قول أبى تمام :

باشَرْتُ أسبابَ الْغِنَى بمدائِحٍ   ضَرَبتْ بأبوابِ الملوك طُبُولاَ

فقال أبو الطيب :

إذا كَانَ بَعْضُ الناسِ سَيْفاًلِدَوْلَةٍ   فَفِي النَّاسِ بُوقاتٌ لَهَا وَطُبُولُ

---

(١) هذه قطعة من بيت سبق ذكره مرارا ، وهو بتمامه :

فلو أنها نفس تموت جميعة   ولكنها نفس تساقط أنفسا

(٢) هذه قطعة من بيت ، وهو بتمامه :

فما كان قيس هلكه هلك واحد   ولكنه بنيان قوم تهدما

وسبق ذكره مرارا أيضا .

فسرق هذه اللفظة لئلا تفوته .

ومما قصر فيه الآخذ عن المأخوذ منه قولُ أبي دهبل الجمحي في معنى بيت الشماخ:

ياناقُ سيري وأشرقي بدمٍ إذا جئتِ المُغيرَهْ
سَيُثيبُني أُخرى سِوَا كِ ، وتلكَ لي منه يسيره

فأنت ترى أين بلغت همته ؟؟

مما يعد سرقاً وليس بسرق

ومما يعد سرقاً وليس بسَرَقٍ اشتراكُ اللفظ المتعارف كقول عنترة :

وخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لهـا بخيلٍ عليها الأُسْدُ تَهتصرُ اهتصارا

وقول عمرو بن معدى كرب :

وخَيْلٍ قد دلفتُ لهـا بِخَيْلٍ تحيةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

وقول الخنساء ترثي أخاها صخراً :

وخَيلٍ قد دلفتَ لهـا بخيل فَدَارَتَ بَيْنَ كَبْشَيْهَا رَحَاهَا

ومثله :

وخيل قد دَلفت لهـا بخيل تَرَى فُرْسانها مِثْلَ الأُسُودِ

وأمثال هذا كثير .

أولى الشاعرين بالمعنى

وكانوا يقضون في السرقات أن الشاعرين إذا ركبا معنى كان أولاهما به أقدمهما موتا ، وأعلاهما سنا ، فإن جمعهما عصر واحد كان ملحقا بأولاهما بالإحسان ، وإن كانا في مرتبة واحدة روى لهما جميعا ، وإنما هذا فيما سوى المختص الذي حازه قائله ، واقتطعه صاحبه ، ألا ترى أن الأعشى سبق إلى قوله :

وَفِي كُلِّ عامٍ أنتَ جاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُدُّ لأقصاها عَزِيمَ عَزَائِكَا(١)
مُوَرِّثَةٍ مجداً ، وفي الأصل رِفْعَةً لمـا ضاع فيها من قروء نسائكا(٢)

(١) روى أبو عبيدة * . . . حاشم رحلة *

(٢) في الديوان (ص ١٢) * مورثة مالا وفي المجد . . . * وروى أبو عبيدة * . . . . وفي الذكر رفعة * ولو ضاع . . . .

فأخذه النابغة فقال :

شُعَبُ الْعُلاَفِيَّاتِ بَيْنَ فُرُوجِهِمْ وَالْمُحْصَنَاتُ عَوَازِبُ الأَطْهَارِ(١)

و بيت النابغة خير من بيت الأعشى باختصاره ، و بما فيه من المناسبة بذكر الشعب بين الفروج وذكره النساء بعد ذلك ، وأخذه الناس من بعده ، فلم يغلبه على معناه [أحد] ، ولا شاركه فيه ، بل جعل مقتدياً تابعاً ، وإن كان مقدماً عليه فى حياته ، وسابقاً له بمماته .

وقال أوس بن حجر :

كأنّ هرا جنيباً عند غرضتها والتف ديكٌ برجليها وخنزيرُ

فلم يقر به أحـد ، وكذلك سائر المعانى المفردة والتشبيهات العُقْم تجرى هذا المجرى .

نظم النثر وحل الشعر

وأجل السرقات نظم النثر وحل الشعر ، وهـذه لمحة منه . قال نادب الإسكندر « حركنا الملك بسكونه » فتناوله أبو العتاهية فقال :

قَدْ لَعَمْرِى حكيت لى غُصَصَ المَوْ تِ وَحَرَّكْتَنِي لَهَا وسَكَنْتَا

وقال أرساطاطاليس يندبه « قد كان هذا الشخص واعظاً بليغاً ، وما وعظ بكلامه عظة قط أبلغ من موعظته بسكوته » وقال أبو العتاهية فى ذلك :

وكانت فى حياتك لى عِظاتٌ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

وقال عيسى عليه السلام : تعملون السيئات وترجون أن تُجَازَوْا عليها بمثل ما يُجَازَى به أهلُ الحسنات ، أجل لا يُجْـنَى الشوك من العنب .

---

(١) شعب : جمع شعبة ، وهى فرج بين أعواد الرحل ، ومن السرج مابين قربوسه ومؤخرته . والعلافيات : رحال منسوبة إلى حى من اليمن اسمه علاف (وانظر ص ٢٣٢ السابقة).والمحصنات : يعنى نساءهم.عوازب : بعيدات . الأطهار : جمع طهر . يريد أنهم دائما على صهوات الخيل فوق السروج أو فوق رحال الإبل ؛ فلا يشتغلون عن الغزو بنسائهم .

فقال ابن عبد القدوس :

إذا وَتَرْتَ امرأً فاحْذَرْ عَدَاوَتَه مَنْ يزْرَعِ الشوكَ لايَحْصُدْ به عِنبَا

وأخذ الكتاب قولهم « قدمت قبلك » من قول الأقرع بن حابس ، ويروى لحاتم :

إذا ما أتى يومٌ يُفرِّقُ بيننا بِمَوْتٍ فكن أنت الذى تتأخر

وقولهم « وأتم نعمته عليك » من قول عدى بن الرقاع العاملى :

صَلّى الإلّه على امرىء وَدَّعْتُهُ وأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عليه وزادها

فما جرى هذا المجرى لم يكن على سارقه جناح عند الحذاق ، وفى أقل ما جئت به منه كفاية .

(١٠٠) — باب الوصف

أكثر الشعر يرجع الى الوصف

الشعر إلا أقلَّه راجعٌ إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ، وهو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، وليس به ؛ لأنه كثيراً ما يأتى فى أضعافه ، والفرق بين الوصف والتشبيه أن هـذا إخبار عن حقيقة الشىء ، وأن ذلك مجاز وتمثيل .

أحسن الوصف

وأحسن الوصف ما نعت به الشىء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع ، كما قال النابغة الجعدىّ يصف ذئباً افترس جُؤْذَراً :

فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمسى ويصبح مفطرا
إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا

فأنت ترى كيف قام هـذا الوَصْفُ بنفسه ، ومَثَّلَ الموصوف فى قلب سامعه . قال قدامة : الوصف إنما هو ذكر الشىء بما فيه من الأحوال والهيئات ،

ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم وصفا مَنْ أتى فى شعره أكثر المعانى التى الموصوفُ بها مركب فيها ، ثم بأظهرها فيه ، وأولاها به ، حتى يحكيه و يمثله للحس بنعته .

وقال بعض المتأخرين : أبلغ الوصف ما قلب السمع بصَراً . وأصل الوصف الكشف والإظهار ، يقال : قد وصف الثوبُ الجسمَ ، إذا نمّ عليه ولم يستره ، ومنه قول ابن الرومى :

إذَا وصفَتْ مافوق مَجْرَى وِشَاحِها ... غَلائِلُهَا رَدَّتْ شَهادَتَها الْأُزُرْ

إلا أن من الشعراء والبلغاء مَنْ إذا وصف شيئاً بالغ فى وصفه ، وطلب الغاية القُصْوَى التى لا يعدوها شيء : إن مدحا فمدحا ، و إن ذما فذما .

تفاضل الناس فى الوصف

والناس يتفاضلون فى الأوصاف ، كما يتفاضلون فى سائر الأصناف : فمنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد وَصْفَ آخر ، ومنهم من يجيد الأوصاف كلها و إن غلبت عليه الإجادة فى بعضها : كامرىء القيس قديما ، وأبى نُوَاس فى عصره ، والبحترى وابن الرومى فى وقتهما ، وابن المعتز ، وكشاجم ؛ فإن هؤلاء كانوا متصرفين مجيدين الأوصاف ، وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها ، والقِفَار ومياهها ، وحُمُر الوحش ، والبقر ، والظلمان(1) ، والوُعُول ؛ ما بالأعراب وأهل البادية ؛ لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفا ليجرى على سَنَنِ الشعراء قديما ، وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما فى تلك الطرائق ما هو مشهور فى أشعارهم : كرائية الحسن فى الخصيب ، وجيمية ابن المعتز المردفة فى الضرب الثانى من الكامل .

والأَوْلَى بنا فى هـذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلهما ، وما كان مناسباً لهما كالكؤوس والقنانى والأباريق ، وتفاح التحيات ، وباقات الزهر

(١) الظلمان : جمع ظليم ، وفى الأصول «والظلمات» وأعتقد أنه تحريف ما أثبت

إلى ما لا بد منه من صفات الخدود ، والقدود ، والنهود ، والوجوه ، والشعور ، والريق ، والثغور ، والأرداف ، والخصور ، ثمّ صفات الرياض والبرك والقصور ، وما شا كل المولّدين ؛ فإن ارتفعت البضاعة فصفات الجيوش وما يتصل بها من ذكر الخيل ، والسيوف ، والرماح ، والدروع ، والقِسِيّ ، والنبل ، إلى نحو ذلك من ذكر الطبول ، والبُنُود ، والمنحرفات ، والمنجنيقات ، وليس يتسع بنا هذا الموضع لاستقصاء ما فى النفس من هذه الأوصاف ؛ فحينئذ أدل على مظانها دلالة مجملة ، وأذكر مما قل شكله وعز نظيره شواهدَ وأمثلةً يعرف بها المتعلم كيف العمل فيها ومن حيث المسلك إليها ، إن شاء الله تعالى .

ذكر شعراء اشتهروا فى وصف أشياء

أما نعّات الخيل فامرؤ القيس ، وأبو دؤاد ، وطُفَيل الغَنَوِى ، والنابغة الجعدى ، وأما نعّات الإبل فطَرَفة فى معلقته من أفضلهم ، وأوس بن حَجَر ، وكعب بن زهير ، والشماخ ، وأكثر القدماء يجيد وصفها ؛ لأنها مراكبهم ، ألا ترى رؤبة لما غلط فى وصف الفرس كيف قال : أَدْنِنِى من ذَنَبِ البعير ، وكان عُبَيد بن حُصَين الراعى النميرى أوصفَ الناس للابل ، ولذلك سمى راعيا ، وأما الحمر الوحشية والقِسِىُّ فأوصف الناس لها الشماخ ، شهد له بذلك الحطيئة والفرزدق ، وهذان يجيدان صفات الخيل والقِسِىّ أيضاً والنبل ، وأما الخمر فمن أوصاف الأعشى والأخطل وأبى نُوَاس وابن المعتز ، ولأبى نواس أيضاً وابن المعتز الصيد والطرد ، فما شئت من هذه الأوصاف فالتمسها حيث ذكرتُ ، ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤبة يصف الفيل :

وصف فيل

أجردُ الخَصْرِ طويل النّابَيْنْ مشرب اللحى صغير الفقمين(١)

---

(١) لا يتفق هذا ووزن الرجز ، وقد وقع فى نسخة :

أبيض كالحصن طويل النابين مشرف اللحى صغير العينين

ولم أجد هذا البيت فى ديوان أراجيزه .

* عليه أذنانِ كفضل الثوبين *

وقال آخر يصفه، أنشده عبد الكريم :

من يركب الفيل فهذا الفيلُ إن الذى يحمــله محمولُ
على تهاويلَ لهـا تهويلُ كالطَّوْد إلاَّ أنه يجـول

* وأذْنٍ كأنها منديلُ *

هكذا أنشده، و بين البيتين الأخيرين أبيات كثيرة أسقطتها، وقد أنشدها غلام ثعلب عنه عن ابن الأعرابى.

في وصف الفيل أيضا

وقال عبد الكريم لجمع ما فرقاه وزاد عليهما :

وأضخمَ هندىّ النجار تُعِدّهُ ملوكُ بنى ساسان إن رابها أمرُ
من الورق لا من ضربه الورق ترتعى أضاخ ولا من ضربه الخمس والعشر
يجىء كطَوْد جائل فوق أربع مُضَبَّرة لمتْ كما لمت الصخر
له فخذان كالكثيبين لبــدا وصدرٌ كما أوفى من الهَضْبَة الصَّدْرُ
ووجهٌ به أنف كراووق خمرة ينالُ به ما تدركُ الأنمل العشر
وأذْنٌ كنصف البرد يسمعه الندا خفيا وطرف ينقصُ الغيب مزورُّ
ونابان شقًّا لا يريك سواهما قناتين سمراوين طَعْنُهما نَـثْرُ
له لونُ ما بين الصباح وليـله إذا نطق العصفور أو غلس الصقر

في وصف زرافة

وصنعت أنا فى زرافة أتت فى الهدية من مصر إلى مولانا خلد الله ملكه من قصيدة طويلة :

وأتتك من كَسْب الملوك زَرَافَةٌ شتى الصفات لكونها أثناء
جمعت محاسنَ ماحكت فتناسبت فى خلقها وتنافت الأعضاء
تحثها بين الخَوَافق مشية بادٍ عليهـا الـكبرُ وَالْخُيَلاَء

وتمدُّ جيــداً فى الهواء يزينها فــكأنه تحت اللِّوَاء لواء
حُطَّتْ مآخرها وأشْرَفَ صدرها حتى كأنَّ وُقُوفَها إقعاء
وكأن فِهْرَ الطيب ما رجَمَتْ به وجه الثرى لو لمت الأجزاء
وتخيرتْ دون الملابس حُلَّةً عَيِيَتْ لصنعةِ مثلها صَنْعاء
لوناً كلون الزبل إلاّ أنهُ جَلَّى وجزعَ بعضَهُ الجلاء
أو كالسحاب المكفهرِّ خيطت فيــهِ البُرُوقُ ، وميضها إيماء
أو مثل ماصدئت صفائحُ جَوْشَنٍ وَجَرَى على حافاتهنَّ جلاء
نعم التجافيف التى ادَّرَعَتْ به منْ جلدها لو كان فيــه وقاء

وصنعت أنا أيضاً :

ومجنونة أبداً لم تكن مُذَلَّلَةَ الظهر للرَّاكبِ
قد اتصل الجيد من ظهرها بمثل السَّنامِ بلا غاربِ
مُلمَّعَةً مثــل ما لمَّعتْ بحِنَّاء وَشْيٍ يَدُ الــكاعب
كأنَّ الجوارىَ كَنَّفْنَها لخالخَ من كل جانبٍ[؟][1]

فى وصف اسطرلاب

وقال كشاجم يصف اصطرلاباً :

ومستدير كجرم البــدر مسطوح عن كل رابعة الأشكال مصفوح
صُلْب يُدَارُ على قطب يُلَقِّيهُ تِمْثَال طَرْفٍ بشكم الحذق مشبوح
مثل البنان وقد أوفتْ صفائحهُ على الأقاليم فى أقطارهــا الفيح
كأنما السَّبْعَةُ الأفلاك مُحْدِقَةٌ بالماء والنــــار والأرضين والريح
تنبيك عن طالعِ الأبراج هيئتُه بالشمس طوراً وطوراً بالمصابيح
وإن مَضَتْ ساعةٌ أو بعضُ ثانية عَرَفْتَ ذاك بعــلم منهُ مشروح
وإن تَعَرَّضَ فى وقت يقدِّرهُ لك التشككُ جلاَّه بتصحيح

(١) كذا ، وليس عندنا بمستقيم.

مميزٌ فى قياساتِ النجوم لنـــا بين المَشَائم منهـــا والمناجيح
له على الظهر عَينا حكمةٍ بهما يحوى الضياء ويجنيه من اللوح
وفى الدوائر من أشكاله حكمٌ تُلقِّحُ الفهم منا أىَّ تلقيح
لا يستقلُّ لمـــا فيها بمعرفة إلا الحصيف اللطيفُ الحِسِّ والروحِ
حتى تَرَى الغَيْبَ عنه وهو منغلق الــأبواب عمن سواه جدَّ مفتوح
نتيجة الدهر والتفــكير صَوَّره ذوو العقول الصحيحات المراجيح

وقال أيضا يصف تخت حساب الهندسة :

وقلم مِـــــداده تُرَابُ فى صحف سُطُورُهَا حساب
يكثر فيــه المحو والإضراب من غير أن يُسَوِّد الـكتاب
حتى يَبين الحقُّ والصواب وليس إعْجَام ولا إعراب
فيه ولا شَكٌّ ولا ارتياب

وقال يستهدى بركارا : فى وصف بركار

جُدْلِى ببركارك الذى صنعت فيـــه يدَا قَيْنَة أعاجيبا
مُلَاَّم الشُّفْرَتَيْنِ مُعْتَدِلٌ مَاشِينَ من جانب ولا عِيبا
شخصان فى شكل واحد قدرا وركبا فى العقول تركيبا
أشبه شيئين فى اشتباههما بصاحب لا يَمَلُّ مصـحوبا
أوثق مسماره وغُيِّب عن نَوَاظر النـاقِدِينَ تغييبا
فعين من يجتليه تحسبه فى قالب الاعتدال مصبوبا
وضم شَطْريه محكم لهما ضَمَّ مُحِبٍّ إليـــه محبوبا
يزداد حرصاً عليــه مبطره ما زاده بالبنان تقليبا
فقوله كُلَّمَا تأمله طُوبى لمن كان ذاله طُوبَى

ذو مُقْلة بصرته مذهبة لم تأله زينــة وتذهيباً
ينظر منه إلى الصواب به فلا يزال الصواب مطلوبا
لولاه ماصحَّ شكلُ دائرة ولا وجدنا الحساب محسوبا
الحق فيه. فإن عدلت إلى سواه كان الحساب تقريبا
لوعَيْنُ إقليدس به بَصُرَتْ خر له بالسجود مكبوبا
فابعثه واجْنُبْه لى بمسطرة تلق الهوى بالثناء مجنوبا
لا زلتَ تجدى وتجتدى حكما مستوهباً للصديق موهوبا

في وصف البنكام

وقال في صفة البنكام :

روح من الماء في جسم من الصُّفُرِ مؤتلف بلطيف الحس والنظر
مستعبر لم يَغِبْ عن إلفه سَكَنٌ ولم يبت قَطُّ من طعن على حذر
له على الظهـــر أجفان مُحَجَّرة ومقلة دمعها يجرى على قَدَرِ
تنشا له حركات في أســافله كأنها حركات الماء في الشجر
وفي أعاليــه حسبان يُفَصِّلُهُ للناظرين بلا ذهن ولا فكر
إذا بكى دار في أحشائه فَلَكٌ خافى المسير وإن لم يبك لم يَدُرِ
مترجم عن مواقيت تخبرنا عنها فيوجد فيها صادق الخبر
تقضى به الخمس في وقت الوجوب ، وإن
غَطَّى على الشمس سِتْر الغيم والمطر
وإن سَهِرْتُ لأسبابٍ تؤرقنى عَرَفْتُ مقدار ما ألقى من السهر
مُحَرَّرٌ كل ميقاتٍ تخيره ذوو التخير للأسفار والحضر
ومخرج لك بالإجراء ألطفها من النهار وقوس الليل والسحر
نتيجة العلم والأفكار صَوَّره يا حبذا بدعُ الأفكار في الصور

وقال يصف زرمانج آبنوس :

في وصف زرمانج

نعم المعين على الآداب والحكم صحائف حلك الألوان كالظلم
لاتستمد مداداً غير صبغتها فَسِرُّ ذى اللب منها غير مكتتم
خفت وجفت فلم تدنس لحاملها ثوبا ولم يَخْشَ منها نَبْوَةَ القلم
وأمكن المحو فيها الكف فاتسعت لما تضمن من نثر ومنتظم
حليتها بلجين وانتخبت لها وقاية من ذَكِيِّ العود لا الأدم
فالكم يعبق منها حين تودعه عَرْفا تَنَسَّمَ منها أطيب النسم
لو كُنَّ ألواح موسى حين يغضبه هارونُ لم يلقها خوفا من الندم

وله من قصيدة ذكر فيها طاووسا مات له :

في وصف طاووس

رُزِئْتُهُ روضَـةً يَرُوقُ ، ولم نَسْمَعْ بروض يمشى على قدم
جَثْلَ الذُّنَابَى كأنَّ سندسةً زُرَّتْ عليه مَوْشِيَة العلم
مُتَوَّجا خلقة حَبَاه بها ذو الفِطَرِ المعجزات والحكم
كأنه يَزْدجِرْدُ مُنْتَصِبا يبنى فَيُعْلِى مآثِرَ العجم
يُطْبِق أجفانه ويَحْسِرُ عن فَصَّيْنِ يستصبحان فى الظلم
أَدَلَّ بالحسن فاستذال له ذيلا من الكبر غير محتشم
ثم مَشَى مِشْيَةَ العروس ؛ فمن مستظرف معجب ومبتسم

فهذا طرف مما شرطته كافٍ ، يرى به المتعلم نهج هذه الطريقة ، إن شاء الله تعالى .

(١٠١) باب الشطور ، وبقية الزحاف

حد الشطور

القول فى الشطور على أحد وجهين : إما أن يراد بالشطر نصف البيت ، وإما أن يراد به القصد ، وذلك أنهم إذا ذكروا الشطور فربما أنشدوا أبياتا كاملة ، وليست أقسمة ؛ فيكون هـذا من قوله تعالى : (فَوَلِّ وَجْهَكَ شطرَ

المسجدِ الحرام) وكذلك القَسيمُ أيضاً : يجوز أن يكون نصف البيت ، ويجوز أن يكون بمعنى الحظ من الوزن ؛ لأن الحظ يقال له قَسيم وقسم .

قال جرير :

أتارِكَةٌ أُكْلَ الخزيرِ مُجاشع ... وقد خسّ إلا في الخزيرِ قَسيمُها

يريد حظها . وقالت ابنة[1] المنذر بن ماء السماء :

بِعَينِ أُبَاغَ قَاسَمْنا المَنايَا ... فَكانَ قَسِيمُها خَيْرَ القَسِيمِ

وهذا حين أبدأ بذكر الشطور على مذهب الجوهري لقلة حشوه .

الطويل — الطويل : مثمن قديم ، مسدس محدث ، أجزاؤه « فَعُولن مفاعيلن » ثماني مرات[2] وزحافه : القَبْض ، الثلم ، الثرم ، الكف ، الحذف . ومسدسه أن يحذف منه مفاعيلن الآخرة من كل قسم .

المديد — المديد : مثمن محدث ، مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « فاعلاتن فاعلن » ثماني مرات[2] وعلى ذلك أتى محدثه ، وبيت مربعه السالم :

بُؤسَ لِلْحَرْبِ التي ... غَادَرَتْ قَوْمِي سُدَى

قال : وهذا شعر قديم ، إلا أن الخليل لم يذكره . زحافه : الخبن ، الكف ، الشكل ، القصْر ، الحذف ، الصلم .

البسيط — البسيط : مثمن قديم ، مسدس قديم ، مربع محدث ، أجزاؤه « مستفعلن فاعلن » ثماني مرات[2] ومسدسه « مستفعلن فاعلن مستفعلن » مكررة ، قال :

---

(١) الذي في ياقوت أن هذا البيت لابنة فروة بن مسعود ترثي أباها ، وكان قد قتل بعين أباغ ــ بضم الهمزة ، وفي آخره غين معجمة ــ وبعد هذا البيت :

وقالوا سيدا منكم قتلنا ... كذاك الرمح يكلف بالكريم

(٢) صوابه « أربع مرات » .

وله مسدس آخر يسميه الخليل السريع ، وقد نقص منه « فاعلن » الأولى والثالثة و بيته المربع المحدث :

دَارٌ عَفَاهَا الْقِـــدَمْ بَيْنَ الْبِـــلَى وَالْعَدَمْ

زحافه : الخبن ، الطَّىُّ ، الخبل ، القطع ، الإذالة ، التخليع . ومعنى التخليع : قطع « مستفعلن » فى العروض والضرب جميعاً .

الوافر : مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « مفاعلتن » ست مرات ، ولم يجىء عن العرب فى مسدسه بيت صحيح . زحافه : العصبُ ، القطف ، النقص ، العقل ، العضب ، القصم ، العقص ، الجم . الوافر

الكامل : مسدس قديم ، مربَّع قديم ، أجزاؤه « متفاعلن » ست مرات ، زحافه : الإضمار ، الوقص ، الخزل ، القطع ، الخرم ، الترفيل ، الإذالة الكامل

الهزج : مسدس محدث ، مربع قديم ، أجزاؤه « مفاعيلن » أربع مرات ، بيته المسدس المحدث : الهزج

أَلاَ هَلْ هَاجَكَ الأَظْعانُ إذ بانوا وإذ صَاحَتْ بِشَطِّ الْبَيْنِ غِرْبَانُ

زحافه : الخزم ، الكف ، القبض ، الخرب ، الشتر ، الحذف .

الرجز : مسدس ، مربع ، مثلث ، مُثَنًّى ، كله قديم ، موحد محدث ، أجزاؤه « مستفعلن » ست مرات ، زحافه : الخبن ، الطى ، الخبل ، القطع ، الفرق ، الوقف ؛ ومعنى قوله الفرق : أن يفرق الوتد المجموع فى حشو مسدسه فيعود مستفعلن مستفعنل — بتقديم النون — فيكون وزنه مفعولات . الرجز

قال : وهو الذى يسميه الخليل المنسرح ، ولم يجىء ضربه إلا مَطْوِيّاً ، وفى صدر مربعه ، قال : وهو الذى يسميه الخليل المقتضب ، وفى ضرب مثناه ومثلثه إلا أنه ساكن اللام ؛ لأن آخر البيت لا يكون إلا متحركاً ، وذلك هو الوقف .

الرمل — الرمل : مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « فاعلاتن » ست مرات ، زحافة : الخبن ، الكف ، الشكل ، الحذف ، القصر ، الإسباغ .

الخفيف — الخفيف : مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن » مكرر ، ومربعه « فاعلاتن مستفعلن » قال : وقد ركب منه مربع آخر ، وهو الذى يسميه الخليل مجتثاً ، وقد نقص منه « فاعلاتن » الأولى والرابعة . زحافه : الخبن ، الكف ، الشكل ، الحذف ، القطع ، التشعيث ، الإسباغ ، الطى .

المضارع — المضارع : مربع قديم لا غير ، أجزاؤه « مفاعلن فاعلاتن » مكرر ، ولم يجىء عن العرب فيه بيت صحيح . زحافه : القبض ، الكف ، الحذف ، الشتر ، الخبن .

المتقارب — المتقارب : مثمن قديم ، مسدس مربع محدث ، أجزاؤه « فعولن » ثمانى مرات . زحافه : القبض ، الثلم ، الثرم ، القصر ، الحذف ، البتر ، و بيت مربعه المحدث :

وَقَفْنَا هُنَيَّهْ بِأَطْلالِ مَيَّهْ

المتدارك — المتدارك : مثمن قديم ، مسدس محدث ، أجزاؤه « فاعلن » ثمانى مرات ، و بيته السالم من مثمنه :

لَمْ يَدَعْ مَنْ مَضَى لِلَّذِى قَدْ غَبَرْ فَضْلَ عِلْمٍ سِوَى أَخْذِهِ بِالْأَثَرْ

وشعر عمرو الجنى مخبون . زحافه : الخبن ، القطع ، الإذالة ، الترفيل . .

وهذا شرح الألقاب عن أبى زهرة النحوى وغيره . كل ما حذف ثانيه الساكن فهو مخبون ، وكل ما حذف رابعه الساكن منه فهو مطوى ، وما حذف خامسه الساكن فهو مقبوض ، وماحذف سابعه الساكن فهو مكفوف ، وما حذف ثانيه ورابعه الساكنان فهو مخبول ، وما حذف ثانيه وسابعه الساكنان

فهو مشكول ، وما حذف ثانيه المتحرك فهو موقوص ، وما حذف خامسه المتحرك فهو معقول ، وما حذف سابعه المتحرك فهو مكشوف عند الخليل ، ولم يعتد به الجوهرى ، وما حذف رابعه الساكن وأسكن ثانيه المتحرك فهو مخزول ، وما أسكن ثانيه المتحرك فهو مُضْمَر ، وما أسكن خامسه المتحرك فهو معصوب ، وما أسكن سابعه المتحرك فهو موقوف ، وما حذف ساكن سببه وأسكن متحركه فهو مقصور ، وإن كان هذا العمل فى وَتِدٍ فهو مقطوع ، وكل سبب زيد عليه حرف ساكن ليس من الجزء الذى هو فيه فهو مُسَبَّغ ، وإن كان ذلك فى وتد فهو مُذَيَّل ؛ فإن زيد على الوتد حرفان فهو مُرَفَّل ، وكل ما حذف منه وتد مجموع فهو أحَذُّ ، فإن حذف وتد مفروق فهو أصْلَم ، وإذا حذف من الجزء سبب وأسكن المتحرك الذى يليه فهو مقطوف ، وكل وتد مجموع كان فى مبتدأ البيت فحذف أولُ الوتد فهو مخروم ، وإن كان ذلك فى « فعولن » فهو أثْلَم ، فإن كان فيه مع الخرم قبض فهو أثرم ، وإن كان الخرم فى « مفاعلتن » فهو أعصب وإن كان مع ذلك عصب فهو أقصم ، وإن كان فيه مع الخرم قبض فهو أعقص ، وإن كان فيه مع الخرم عَقْل فهو أجَمُّ ، وإذا خرمت « مفاعيلن » فهو أخرم وإذا كَفَفْته مع ذلك فهو أخرب ، وإذا خرمته وقبضته فهو أشتر ، وما ذهب منه جزآن من العروض والضرب فهو مَجْزُو ، وما يذهب منه شطره فهو مشطور ، وما ذهب ثلثاه فهو مَنْهُوك ، وما سلم من الزحاف ــ وهو يجوز فيه ــ فهو سالم ، وماسلم من الخرم فهو موفور ، وما استوفى دائرته فهو تام ، وما استوفى أجزاء دائرته وكان فى بعض الأجزاء نقص فهو وَافٍ ، وكل جزء كان فى ضرب أو عروض فكان بمنزلة الحشو فهو صحيح ، وإن خالف الحشو فهو معتل ، ومخالفة الحشو : أن يدخل فيه من النقص والزيادة مالا يدخل الحشو ، أو يمتنع من النقص

الذى يدخل الحشو ، والمعتدل على أربعة أوجه : ابتداء ، وفصل ، وغاية ، واعتماد . وقد شرحتها فيما تقدم .

(١٠٢) — باب بيوتات الشعر والمُعْرِقِينَ فيه

بيت أبى سلمى

منها فى الجاهلية بيتُ أبى سُلْمى : كان شاعراً واسمه ربيعة ، وابنه زهير كان شاعراً ، وله خؤولة فى الشعر : خاله بَشَامَةُ بن[1] الغدير ، وكان كَعْب وبُجَير ابنا زهير شاعرين ، وجماعة من أبنائهما .

بيت حسان بن ثابت

ومن المخضرمين حَسَّان بن ثابت بن المنذر بن حرَام ، وهو وأبوه وجده وأبو جده شعراء ، وابنه عبدالرحمن شاعر ، وسعيدبن عبد الرحمن شاعر ، ذكر ذلك المبرد

بيت النعمان بن بشير

وبعد هذين بيت النعمان بن بشير ، وبنوه : أبان ، وبشير ، وشبيب ، وابنته حميدة ، ومن بنى بنيه عبد الخالق بن عبد الواحد ، وعبد القدوس بن عبدالواحد ابن النعمان ، وأم النعمان عمرة بنت رَوَاحة شاعرة ، وخالُهُ عبد الله بن رواحة أحد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم .

بيت نهشل بن حرى

ومن المعرقين فى الشعر — عن عبد الكريم — نَهْشَل بن حَرِّىّ بن ضمرة بن جابر بن قطن ، ستة ليس يتوالى فى بنى تميم مثلهم شعراً وشرفاً وفعالا .

وعن ابن قتيبة القاسم بن أمية بن أبى الصَّلْتِ ، وهو القائل :

قوم إذا نزل الغريبُ بدارهم ... تركوه رَبَّ صَوَاهل وقيان

وربيعة بن أمية عن غير ابن قتيبة .

بيت جرير

ومن بيوتات الشعر فى الإسلام بيت جرير : كان هو وأبوه عطية وجده الخَطَفَى شعراء ، وكان بنوه وبنو بنيه شعراء . . قال أبو زياد الكلابى :

---

(١) فى الأصول «أسامة بن العذير» وهو تصحيف من وجهين ، وصوابه ما أثبتنا

رأيت باليمامة نوحا و بلالا ابنَيْ جرير وهما يتسايران ولهما جمال وهيئة وقدر عظيم، وأشعر من باليمامة يومئذ حَجْناء بن نوح بن جرير، وكان عقيل بن بلال شاعراً، وعمارة ابنه شاعراً، أدرك الطائى حبيباً ولقيه المبرد.

ابن رؤبة بن العجاج

ومن المعرقين عُقْبة بن رؤبة بن العجاج.

بيت أبى حفصة

ومن البيوتات بيت أبى حفصة: كان مروان شاعراً، وجماعة بيته شعراء يضربون بألسنتهم أنوفَهم، حكاه الجاحظ، وكان يحيى جد مروان شاعراً يهاجى اللَّعِينَ المنقرى، وجريراً، وأكثر أهل بيته شعراء رجالا ونساء.

بيت أبى عيينة

و[بيت] أبى عيينة بيت شعر: منهم محمد و بنوه أبو عيينة وعبد الله وداود وعباد بن داود لقبُه المخرق لقوله:

أنا المخرِّقُ أعراضَ اللئام كما كان الممزق أعراض اللئام أبى

بيت الرقاشيين

و بيت الرقاشيين منهم عبد الصمد بن الفضل وابناه الفضل والعباس، وأكثرهم شعراء.

بيت اللاحقيين

و بيت اللاحقيين: كان حَمْدَان شاعراً، وابنه، وأبوه أبان شاعرا، وجده عبد الحميد شاعرا، ولاحق أبوعبد الحميد شاعر، و إليه نُسِبُوا، وهو مولى الرقاشيين، وأكثر أهل هذا البيت شعراء.

بيت أمية الكاتب

و بيت أمية الكاتب ذكرهم دعبل، وهم أمية و إخوته: على، ومحمد، والعباس وسعيد، ومن أولاد هؤلاء أبو العباس بن أمية وأخواه على وعبد الله، وابن عمهم محمد بن على بن أبى أمية.

بيت رزين

و بيت رزين بيت شعر، منهم عبد الله شاعر، وابنه أبو الشِّيصِ شاعر، واسمه محمد، ومنهم على شاعر، وَابناه دعبل وَعلى شاعران.

بيت حميد

و بيت حميد بن عبد الحميد: كان حميد شاعرا، وَبنوه أهرم وَأبو عبد الله وَأبو نصر وَأبو نَهْشَل شعراء، ذكرهم دعبل

الفرق بين المعرق وذى البيت

والفرق بين المُعرِقِ وبين ذى البيت أن المعرق مَنْ تكرر الأمر فيه وفى أبيه وفى جده فصاعدا ، ولا يكون مُعْرِقاً حتى يكون الثالثَ فما فوقه ، وعلى هذا فسر قول أبى الطيب :

العارضُ الهتنُ ابن العارض الهتنِ ابــــن العارض الهتن ابن العارض الهتن

قالوا : إنما أراد أنه مُعْرِق ، وزاد واحداً على الشرط المتعارف ، و إنما أخذه أبو الطيب من قول محمد بن عبد الملك الزيات :

ما كان يندرنا ويؤمن سربنا ويجيرنا من شر كل مخيفة

إلا مقامُ خليفة لخليفة لخليفة لخليفة لخليفة

يعنى الواثق بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، فصدَق وحسن فى معناه ، ونقص المتنبى بواحد بعد سرقته .

وذو البيت من عم الأمرُ جميعَ أهلِ بيته أو أكثرهم ، فهذا فرق بينهما .

من الشعراء الإخوة

ومن الإخوة ومن لم يعرق : لبيد وأخوه لأمه أربد ، والشماخ وأخواه جَزْء ويزيد ــ وهو مُزَرِّد ــ وبنو ابن مقبل وهم عشرة إخوة ، تميم ، وفضالة وحيان : ورفاعة ، وو برة ، والمضاء ، وأعقد ، وعبد الله ، وخفاف ، وأبو الشمال ، وأم تميم ابنة أمية بن أبى الصلت ، وفى أولاد إخوته المذكورين آنفا شعر ؛ وقيس ابن عمرو النجاشى وأخوه خديج ، وعمرو بن أحمر وأخواه سنان وسيّار ، وغيلان ذو الرمة وإخوته : أوفى ، ومسعود ، وهشام ، وحرقاس ، شعراء خمستهم ، ومسلم ابن الوليد وأخوه سليمان الكفيف ، وأشجع السُّلَمى وأخوه أحمد .

الثنيان من الشعراء

وأما الشاعر ابن الشاعر فقط فيقال له « الثُّنْيَان » حكاه عبد الكريم عن غيره ، وهو كثير لو أخذنا فى ذكرهم لطالت مسافة الباب .

(١٠٣) — باب حكم البسملة قبل الشعر

الاختلاف فى جواز كتابتها

قال أبو جعفر النحاس : اختلف العلماء فى كَتْبِ « بسم الله الرحمن الرحيم » أمام الشعر ؛ فكره ذلك سعيد بن المسيب والزهرى ، وأجازه النخعى ، وكذا يروى عن ابن عباس ، قال : أُكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » أمام الشعر وغيره ؛ قال أبو جعفر : ورأيت على بن سليمان يميل إلى هذا ، وقال : ينبغى أن يكتب أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنه يجىء بعده « قال فلان » وما أشبه ذلك . . قلت أنا : إنما هذا فى الشعر إذا دُوِّنَ ، فأما قصيدة رفعها الشاعر إلى ممدوحه فلا يكتب قبلها اسم قائلها ، لكن بعدها ، وإذا كان الأمر هكذا فلا سبيل إلى كتاب البسملة ؛ لأن العذر حينئذ ساقط .

(١٠٤) — باب أحكام القوافى فى الخط

ياء الوصل وواوه

إذا صارت الواو الأصلية والياء الأصلية وصلا للقافية سقطت فى الخط كما تسقط واو الوصل وياؤه ، مثل واو « يغزو » للواحد ، و (يغزوا) للجماعة إذا كانت القافية على الزاى ، ألا ترى أنهم أسقطوها فى اللفظ فضلا عن الخط . .

قال الراجز :

* كريمة قَدْرُهُمُ إذا قَدَر *

يريد « إذا قدروا » قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن السمين وقد سألته عن هذا : لا يجوز حذف هذه الواو إلا فى أشد ضرورة ، للعرب لا للمولدين ؛ لأنها علامة جمع وإضمار ؛ فحذفها يلتبس بالواحد ، قال : وهذا مذهب سيبويه والبصريين ، ومثل واو « يغزو » وياء « يقضى » للغائب « وتقضى »

للمؤنثة الغائبة والمذكر المخاطب . وكذلك ياء « القاضي والغازي » إذا كانا معرفين بالألف واللام ، هـذا هو الوجه ، فإن كتب بإثبات الواو واليـاء فعلى باب المسامحة ، والأجود أن تـكون الواو واليـاء خارجاً فى الغرض ، وكذلك ياء الضمير نحو « غلامى » إذا كانت القافية الميم فالوجه سقوط الياء ، فإن كتبت مسامحة ففى الغرض كما قدمت ، وقد أسقطها بعضهم فى اللفظ . أنشدنى أبو عبد الله للأعشى :

ومنْ شانِيءٍ كاسِفٍ وجهُهُ إذا ما انْتَسَبْتُ له أنْكَرَنْ

قال : يريد « أنكرنى » فحذف الياء ، فأما ما يكون مُنَوَّناً نحو « قاض ، وغاز » أو مجزوماً نحو « لم يقض ، ولم يغز » فلا يجوز أن يثبت فيهما الياء والواو على المسامحة ؛ لأنهما سقطا بالتنوين والعامل . . ومن العرب من يقول « هذا الغاز ، ومررت بالقاض » بغير ياء ، وهذا تقوية لمذهب مَنْ حذفها فى الخط إذا كانت وَصْلا للقافية .

وإن كان فى قوافى قصيدة ما يكتب بالياء وما يكتب بالألف كتبا جميعا بالألف لتستوى القوافى ، وتشتبه صورتها فى الخط .

(١٠٥) — باب النسبة إلى الروى

كيف تنسب إلى ما كان على حرفين

إذا قلت قصيدة فنسبتها إلى ما [كان] على حرفين قلت هذه قصيدة بائية وحائية ، وكذلك أخواتهما ، وإن شئت جعلت الهمزة واواً فقلت : باوية ، وكان أبو جعفر الرقاشي ينسب إلى ما كان على حرفين يقول : هذا يبوىٌّ ، ويَتَوِى ، وكذلك أخواتهما ، إلا «ما» و «لا» فإنه يقول : مَوَوِى ، ولَوَوِىّ على فَعَلِى ، وتقول على هذا القول : قصيدة مووية ولووية ، قال ثعلب : ما كان على ثلاثة أحرف الأوسط ياء فليس فيه إلا وجه واحد ، تقول : سينت سيناً ، وعينت عيناً ، إذا كتبت سينا وعيناً ، فيقول على هذا : قصيدة مسينة ومعينة

وسينية وعينية ، وكذلك قصيدة ميمية ، ولا تقول « مؤومة » فإنه خطأ ، وتقول في الواو وهي على ثلاثة أحرف الأوسط ألف بالياء لا غير ؛ لكثرة الواوات ، فتقول : وَوَّيْتُ واواً حسنة ، وبعضهم يجعل الواو الأولى همزة لاجتماع الواوين فيقول : أويت واواً حسنة ، فالقصيدة على هذا واوية ومؤواة وموواة ، وقال بعضهم في « ما » و « لا » من بين أخواتهما : مويت ماء حسنة ، ولويت لاء حسنة ، بالمد ؛ لمكان الفتحة من ماولا .

(١٠٦) — باب الإنشاد وما ناسبه

الوقف بالترنم

ليس بين العرب اختلاف — إذا أرادوا الترنم ومَدَّ الصوت في الغناء والحداء — في إتباع القافية المطلقة ، مثلَها من حروف المد واللين في حال الرفع والنصب والخفض ، كانت مما ينون أو مما لا ينون ، فإذا لم يقصدوا ذلك اختلفوا : فمنهم من يصنع كما يصنع في حال الغناء والترنم ؛ ليفصل بين الشعر والكلام المنثور ، وهم أهل الحجاز ، ومنهم من ينون ما ينون ومالا ينون : إذا وصل الإنشاد أتى بنون خفيفة مكان الوصل فجعل ذلك فصلا بين كل بيتين فينشد قول النابغة :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ

منونًا إلى آخر القصيدة ، لا يبالي بما فيه ألف ولام ، ولا مضاف ، ولا بفعل ماض ، ولا مستقبل ، وهم ناس كثير من بني تميم .

الوقف على لغة قيس وأسد

ومنهم من يجري القوافي مجراها ولولم تكن قوافي فيقف على المرفوع والمكسور موقوفين ويعوض المنصوب ألفا على كل حال ، وهم ناس كثير من قيس وأسد ، فينشدون :

لا يبعد الله جيرانًا لنا ظعنوا لم أدر بعد غداة البين ما صنع

يريد « ما صنعوا » . وكذلك ينشدون :

ففاضتْ دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعى محمل

فإذا وصلوا جعلوه كالكلام وتركوا المدة لعلمهم أنها فى أصل البناء .

قال سيبويه : سمعناهم ينشدون :

* أقلىِّ اللَّوْمَ عاذِلَ وَالْعِتَاب *

إذا كان منوناً أثبتوا تنوينه ووصلوه كما يفعلون بالكلام المنثور .

الوقف بإشباع الحركة

ومن العرب مَنْ فى لغته أن يقف على إشباع الحركة : فتجر الضمة واواً ، والكسرةُ ياء ، والفتحة ألفاً ، فينشد هذا كله موصولا من غير قصد غناء ولا ترنم .

ومنهم من فى لغته أن لا يعوض شيئاً من النصب فهو ينشد هذا كله موقوفاً من غير اعتقاد تقييد ، وإذا كان الشعر مقيداً كان تنوينه بإزاء إطلاقه ، فهو غير جائز ؛ لأن الشعر المقيد يكسر بتنوينه كما يكسر بإطلاقه ، ما خلا الأوزان التى قدمنا القول فيها أنها من بين ضروب الشعر يجوز إطلاقها وتقييدها .

ويحكى عن رؤبة أنه أنشد قصيدته القافية المقيدة منونة، فرد ذلك الزجاجى وأنكره ، وذكر أنه وَهَم من السامع ، وأن الوجه فيه أن من العرب من يزيد بعد كل قافية «إن» الخفيفة المكسورة إعلاماً بانقضاء البيت ، فينشد :

وقاتِمِ الأعماق خاوى المخترقْ اِنْ مُشْتَبِهُ الأعلام لمَّاعُ الْخَفَقْ اِنْ

* يكلُّ وَفْدُ الريح منْ حيث انْخرَقْ اِنْ *

الوقف بنقل الحركة

وإذا كان ماقبل حرف الروى ساكناً — وكانت لغة مُنْشِدِهِ الوقوفَ على المضموم والمكسور — بنقل الحركة كما أنشد أعرابى من بنى سنبس قول ذى الرمة :

* وَلاَ زالَ مُنْهَلاًّ بجرعائكِ القَطُرْ *

— بضم الطاء و إسكان الراء لما وقف — حكى ذلك عبد الكريم ، وعلى هذا قال الآخر :

* أنا ابن ماوية إذ جد النقُرْ *

أراد « النقر » بالخيل .

وأنشد أبو العباس ثعلب :

أَرَتْنِيَ حِجْلاً على ساقها فهشَّ الفؤاد لذاك الحِجِلْ

فقلت ولم أخف من صاحبي: ألا بأبي أصلُ تلك الرِّجِلْ

وقال : نَقَلَ لاضطرار القافية .

ومما يدخل فى شفاعة هذا الباب : الغناء ، والحداء ، والتغبير ، قال الشاعر :

تغنَّ بالشعر إمَّا كنتَ قائله إن الغناء لهـذا الشعر مِضْمَارُ

و يقولون : فلان يتغنى بفلان أو بفلانة ، إذا صنع فيه شعراً .

قال ذو الرمة :

أُحِبُّ المكانَ القفرَ من أجلِ أننى به أَتَغَنَّى باسمهـا غَيْرَ مُعْجِمِ

وكذلك يقولون : حدَا به ، إذا عمل فيه شعراً .

قال المرار الأسدى:

ولو أنى حَدَوْتُ به أرفأنّتْ نعامته وأبْصَرَ ما يقولُ

أنواع غناء العرب

وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوْجه : النصب ، والسناد ، والهزج .

فأما النصب فغناء الركبان والفتيان ، قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وهو الذى يقال له المرائى ، وهو الغناء الجنابى ، اشتقه رجل من كلب يقال له جناب ابن عبد الله بن هبل ، فنسب إليه ، ومنه كان أصل الحداء كله ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض .

وأما السناد فالثقيـل ذو الترجيع ، الكثير النغمات والنبرات ، وهو

على ست طرائق : الثقيل الأول ، وخفيفه ، والثقيل الثانى ، وخفيفه ، والرمل ، وخفيفه .

وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ، ويمشى بالدفّ والمزمار فيطرب ، ويستخف الحليم ، قال إسحاق : هذا كان غناء العرب حتى جاء الله بالإسلام ، وفتحت العراق ، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير .

فرق ما بين العرب والعجم

قال الجاحظ : العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون .

أول من حدا

ويقال : إن أول من أخذ فى ترجيع الحداء مضر بن نزار ؛ فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه ، وايداه ، وكان أحسن خلق الله جرماً وصوتا ، فأصغت الإبل إليه وجدت فى السير ، فجعلت العرب مثالا لقوله هايدا هايدا يحدون به الإبل ، حكى ذلك عبد الكريم فى كتابه .

وزعم ناس من مضر أن أول من حدا رجل منهم ، كان فى إبله أيام الربيع ، فأمر غلاماً له ببعض أمر ، فاستبطأه ، فضربه بالعصا ، فجعل ينشد فى الإبل ويقول : يايداه ، يايداه ، فقال له : الزم الزم ، واستفتح الناس الحداء من ذلك الوقت .

وذكر ابن قتيبة أنهم قالوا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، وحكى الزبير ابن بكار فى حديث يرفعه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لقوم من بنى غفار سمع حاديهم بطريق مكة ليلا فمال إليهم : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعاته فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصا فضرب بها كف غلامه ، فعدا

الغـلام فى الوادى وهو يصيح : وايداه ، وايداه ، فسمعت الإبل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل هذا لا نتفعت به الإبل واجتمعت ، فاشتق الحداء .

التغبير

وأما التغبير فهو تهليل أو ترديد صوت ، بقراءة أو غيرها ، حكى ذلك ابن دريد ، وحكى أبو إسحاق الزجاجى قال : سألنى بعض الرؤساء : لم سمى التغبير تغبيرا ؟ قلت : لأنه وضع على أنه يرغب فى الغابر — أى : الباقى ، أى : يرغب فى نعيم الجنـــة وفيما يعمل للآخرة — وقال غيره : إنمـا قيل له تغبير لأنه جعل ما يخرج من الفم بمنزلة الغبار ، فعرض الجوابان على أحمد ابن يحيى ، فاستجاد جوابى .

يقال العراسل فى الغناء : المثالى ، حكاه غلام ثعلب

١٠٧ — باب الجوائز والصلات

اشتقاق الجائزة وأصلها

قال أبو جعفر النحاس : أصل الجائزة أن يعطى الرجل ما يجيزه ليذهب إلى وجهه ، وكان الرجل إذا ورد ماء قال لقيمه : أجزنى ـ أى : أعطنى ماء حتى أذهب لوجهتى وأجوز عنك ـ فكثر حتى جعلت الجائزة عطية .

قال الراجز :

يا قيم المـاء فَدَتْكَ نفسى أحْسِنْ جَوَازى وأقِلَّ حَبْسى

أول من سن الجوائز

قال ابن قتيبة : أصل الجائزة والجوائز أن عبد عوف بن أصرم من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ولى فارس لعبد الله بن عامر ، فمر به الأحنف بن قيس فى جيشه غازيا إلى خراسان ، فوقف لهم على قنطرة الكر فجعل ينسب الرجل فيُعْطيه على قدر حسبه ، فكان يعطيهم مائة مائة ، فلما كثروا عليه قال : أجيزوهم ، فأجِيزُوا ؛ فهو أول من سن الجوائز .

قال الشاعر:

فِدًى للأكرمين بنى هلال على علاّتهم عَمّى وَخَالِى
هُمُ سَنُّوا الجوائز فى مَعَدٍّ فصارت سُنَّة أخرى الليالى

البدرة والبدرة : عشرة آلاف درهم ، سميت بذلك لوفورها ، قال بعضهم : ومنه سمى القمر ليلة أربع عشرة « بَدْراً » لتمامه وامتلائه من النور ، ويقال : لمبادرته الشمسَ ، وقيل : بل البَدْرة جلدة السَّخْلة إذا فُطِمت والجذع من المعز يملأ مالا ، فسمى المال « بُدْرَةً » باسم الوعاء مجازا .

الصلة والصِّلَةُ : ما أخذه الرجل من السلطان أول ما يتصل به ، ثم كثر ذلك حتى قيل لهبة الملك « صِلَة » .

وهذه أبيات كنت صنعتها للسيد أبى الحسن أدامَ الله عزهُ ختمت بها الكتاب لما جاء موضعها :

إن الذى صاغت يدى وفمى وجَرَى لسانى فيه أو قَلَمِى
مما عنيت لسَبْكِ خالصه واخترته من جَوْهر الكَلِمِ
لم أهْدِهِ إلا لتكسُوَهُ ذكْراً تُجَدِّده على القدم
لسنا نزيدك فضل معرفة لكنهنَّ مصائدُ الكرم
فاقبل هدية مَنْ أشَدْتَ به وسَخْتَ عنه آية العدم
لا تحسب الدنيا أبا حسنٍ تأتى بِمثلِكَ فائقَ الهمم

الحمد لله الذى بنعمته تكمل الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد أشرف الكائنات ، وعلى آله وصحبه نجوم الهداية وأعلام الدِّرايات ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فقد نجز كتاب « العمدة ، فى محاسن الشعر وآدابه » لأبى على الحسن بن رشيق الأزدىّ : المولود فى سنة ٣٩٠ من الهجرة (١٠٠٠ م) المتوفى فى ذى القعدة من سنة ٤٥٦ من الهجرة (١٠٦٤ م) بعد أن صَقَله التحقيق ، وجَلَاهُ حُسْن الوَضع ، وزانه رَوْنق الطَّبع ، وبعد أن قضيتُ نصف حَوْل فى المراجعة ومعاودة النظر ، وقضيت من بعد ذلك ثلاثة أشهر فى الإشراف على طبعه ؛ لا يحملنى على تجشُّم هذه الأهوال إلا الرغبة الصادقة فى خدمة العربية ، والحرص على أن تكون كتبها صحيحة المعنى جميلة الرُّوَاء .

وإنى أتضرع إلى الله تعالى أن يثيبنى على هذا بمقدار إخلاصى فيه لوجهه ؛ فهو حسبى ونعم الوكيل .

محمد محيى الدين عبد الحميد

فهرس الجزء الثانى، من كتاب

« العمدة ، فى محاسن الشعر ونقده »

لأبى على الحسن بن رشيق ، القيروانى ، الأزدى

تمت ـ بحمد الله تعالى واهب القوى والقدر ـ فهرست الموضوعات الواردة فى الجزء الثانى من كتاب « العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده » لابن رشيق القيروانى ، مفصلة غاية التفصيل . والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على إمام المتقين ، سيدنا محمد ختام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين